جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بالمنصورة
شعبة التاريخ والحضارة

تاريخ الأنبيـــاء

دكتــور
مسعـــد سيد محمـــد كتبــي
مدرس التاريخ والحضارة الإسلامية
في كلية اللغة العربية بالمنصورة
جامعة الأزهر



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾

سورة النمل آية ١٩

المقـــدمـــة



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، ونصلي ونسلم على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ثم أما بعد ....

فقد اصطفى المولى – عز وجل – من خلقه رسلاً وأنبياء ؛ لهداية البشرية على مر العصور والأزمان ، من لدن آدم وحتى خاتمهم محمد ﷺ ؛ وذلك لحكمة بالغة ، تهدف إلى ترسيخ دعائم التوحيد ، والمناداة بالدين الأوحد ، الذي ارتضاه الله للأولين والآخرين وهو الإسلام ، وكلما انطمست تلك المعالم ، وتاهت البشرية في غياهب الضلال ، ابتعث لها المولى – عز وجلٍ – نبياً أو رسولاً لهدايتها ، ولإقامة الحجة على الناس يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ **رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ** ﴾ (١) ،

واختص المولى – عز وجل – من أنبيائه الرسل ، ومن هؤلاء اختص أولي العزم ، الذين مدحهم المولى عند خطابه لنبيه ورسوله محمد ﷺ قائلاً : ﴿ **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ** ﴾ (٢) ، إذ تحمل هؤلاء من الأهوال والصعاب ما تنوء الجبال الراسيات عن حمله، ولكنهم ثبتوا على ما عاهدوا الله عليه ، حتى بلغوا رسالات ربهم .

---

(١) من الآية ١٦٥ سورة النساء .

(٢) من الآية ٣٥ سورة الأحقاف .

ومــن نافلــة القــول أن جميع الرسالات على اختلافها ، واختلاف أزمانهــا ، تخــرج من مشكاة واحدة ، وتدعوا لأمر واحد وهو : تعبيد الــناس لــربهم ، كما قال تعالى : ﴿ **شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ** ﴾ (١) ، هذا الدين الذي صدع به كل نبي فــي قومــه ، حيث قال تعالى : ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ** ﴾ (٢) ، وأنكــر المولى على من يدعي غيره فقال : ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ (٣) ، وأكد حقيقة وحــدة هــذا الديــن الرسول ﷺ حينما قال : (**الأنبياء أخوة لعلات ، أمهــاتهم شتى ودينهم واحد**) (٤) ، فكل من هؤلاء الرسل قدم للبشرية لبــنة فــي صرح هذا الدين ، حتى اكتمل برسالة النبي محمد ﷺ الذي ارتضى له المولى – عز وجل – وللبشرية الإسلام ديناً ، ونسخ ما عداه من تشريعات ورسالات .

وممــا لا شــك فــيه أن البحــث في سيرة هؤلاء الأنبياء كان من الصــعوبة بمكان ؛ لطول الأمد الذي مرّ على هؤلاء الأنبياء ؛ كما

(١) من الآية ١٣ من سورة الشورى..

(٢) من الآية ١٩ سورة آل عمران .

(٣) الآية ٨٥ سورة آل عمــــران .

(٤) أخــرجه البخاري في صحيحه في كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قول الله تعالى: (واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها)،حديث رقم ٣١٨٧.

لاندارس معظـــم كتبهم وتعاليمهم التي جاءوا بها،إذ لم يبق منها إلا ما حـــرف وشوه ، ولا يمكن الاعتماد عليه في القطع بحقيقة تاريخية ، أو بيان لما مروا به من أحداث ، وما عانوه في سبيل تبليغ رسالات ربهم للـــناس ؛لانقطـــاع سند هذه الكتب ، ولطمس كل ما كان فيها مما يبشر برسالة النبي محمد ﷺ ، أو الدعوة للتوحيد الخالص .

ومـــن أهـــم المصـــادر التي اعتمدت عليها في تناول سيرة هؤلاء الأنبياء : القرآن الكريم ، وتفسيره ، إذ هو كتاب رب العالمين ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والذي تكفل المولى بحفظه فقال تعالى : ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ [١] ، بالإضافة إلى ما ورد في السنة النبوية من أحاديث ضافية ، أوضحت ما جاء في آي القـــرآن مجملا ، فهذان هما المصدران الرئيســان اللذان أسهما بنصيب وافر في إقامة هذه الدراســـة .

كما أن المصادر التاريخية الأصيلة للطبري ، وابن قتيبـــة ، وابن الأثير ، وابن كثير ، وغيرهم ، أسهمت بلا شك في اكمال الصورة عن هـــؤلاء الأنبـــياء ، مـــع الحذر في النقل عنهم ، للبعد عما تسرب إلى مؤلفاتهم من الإسرائيليات ، والروايات المدسوسة على التاريخ .

وإن أنســـى فلا أنسى دور المراجع الحديثة في إرشادي إلى بعض المصـــادر ، أو المـــراجع الهامـــة ، و الوقوف على ما فيها من آراء

---

(١) آية ٩ سورة الحجـــر .

اجـتهادية ، قد توافق ما عرضت له ، أو تخالفه ، فهي بلا شك أنارت لـي الطريق ، وكانت مرشداً لي للحذو حذوها في التركيب والعرض .

ولقد جاءت هذه الدراسة في خمسة فصول على النحو التالي :

الفصل الأول : **ألقى الضوء على النبوة والرسالة** : من حيث كونها مـنحة مـن الله – تعـالى – ، وحاجة البشرية إليها ، وتعريف النبي والرسول ، والفرق بينهما ، وعدد الرسل والأنبياء ، والشروط الواجب توافـرها فـيهم ، وصـفاتهم ، وحكـم التفاضل بينهم ، ثم بيان وحدة الرسالات السماوية .

وعرض الفصل الثاني : **لسيرة أبي البشر آدم** – عليه السلام – ممهدا له بخلق الكون ، والجن ، والملائكة ، ثم محاورة المولى لملائكته بشأن الخليفة ، وخلق آدم ، وبيان فساد نظرية دارون بشأن التطور والنشوء ، ثم سجود الملائكة لآدم ، وتعليمه الأسماء ، وامتناع إبليس عن السجود ، ثم دخول آدم الجنة ، وعصيانه ، وخروجه منها ، وتوبة المولى عليه ، وتوقفـنا قلـيلاً عـند جنة آدم ، وما قيل عن مكانها ، وكيفية وسوسة الشيطان له فيها ، والرد على شبهة وقوع المعصية من آدم ، ثم عرضنا لسـيرته بعد نزوله إلى الأرض ، وعمرانها ، وما دار بين ولديه قابيل وهابـيل ، وألمحنا لنبوة آدم ، وما انفرد به دون غيره من الأنبياء ، ثم وفاته، وأهم الدروس والعبر المستقاة من سيرته وقصته – عليه السلام–

وخصص الفصل الثالث : للحديث عن نوح – عليه السلام – وبيان نسبه ، ومـيلاده ، وكيفـية ظهـور الوثنية بعد آدم ، ثم دعوة نوح لقومه ،

وموقفهم منه ، ويأس نوح من إيمانهم به، وأمر المولى له بصناعة الفلك ، ثـم بـدء الطوفان ، وحمل نوح لمن آمن معه في السفينة ، وأقوال العلمـاء حـول عموم الطوفان للأرض من عدمه ، ثم ما دار لنوح في الفلـك ، وهبوطه ، وبدء عمران الأرض مرة أخرى،وما انفرد به نوح دون غـيره مـن الأنبياء، وطبيعة رسالة نوح ، وصفاته ، ثم وفاته ، وأخيراً الرد على الشبهتين المنسوبتين له – عليه السلام – .

وعُقد الفصل الرابع : **لخليل الرحمن إبراهيم** – عليه السلام – فتحدث عن نسـبه ، ونشـأته ، ورسـالته ، ثـم دعوته لأبيه ، وقومه ، ومناظرته لعُبّاد الكواكـب ، والأصـنام ، وتحطـيمه لها ، ثم محاكمته ، وعناية المولى به ، ونجاتـه مـن النار ، ومناظرته للنمروذ ، ثم هجرته لبلاد الشام ومصر ، ثم رجوعـه واستقراره في بلاد الشام ، وزواجه من هاجر ، وميلاد إسماعيل ، ثـم حمله هو وأمه هاجر إلى مكان البيت ، وظهور معجزة تفجر بئر زمزم لهمـا ، وقصية الذبيح ، ومن كان منهما من ولدي إبراهيم ، والوقوف حيالها قلـيلاً ، للرد على دعاوي أهل الكتاب من القول بأنه إسحاق ، ثم الحديث عن زيـارات إبراهـيم المتتالـية لولده إسماعيل ، والأمر ببناء البيت ، ثم ابتلاء إبراهـيم بالكلمـات ، وبيان ملة إبراهيم ، ورسالته ، وصحفه ، وما انفرد به دون غـيره من الأنبياء ، ثم الرد على الشبهات المنسوبة له ، وإلقاء الضوء على أسرته ، ثم وفاته – عليه السلام – .

وجاء الفصل الخامس : للحديث عن آخر أنبياء بني إسرائيل : زكريا ، ويحـيى ، وعيسى ، إذ كان زكريا كافلاً لمريم أم عيسى ، وكان يحيى

مبشـــراً بعيسى ورسالته ، فتحدثنا عن زكريا ، وتبشيره بميلاد يحيى ، ثم تحقــق البشارة ، ونبوة يحيى ، ومقتل النبيين : زكريا ، وولده يحيى ، ثم أعقبنا ذلك بعرض لتاريخ عيسى ، مستهلينه ببيان نسب مريم ، وميلادها ، وكفالة زكريا لها ، ثم البشرى بعيسى ، وحمله ، ووضعه ، والمواجهة بين مريم وقومها ، وكلام عيسى في المهد لتبرئة أمه ، ثم هجرتهما إلى مصر ، وعودتهمــا ، ورسالة عيسى ، ودعوته لقومه ، والمعجزات التي أيده الله بها ، وحواريّيه ، ونزول الإنجيل عليه ، وما احتواه من التبشير بمحمد ﷺ وأمته ، وتوقفنا قليلاً مع قضية رفع عيسى ، والتباس النصارى في ذلك ، ومــا ترتب عليه من انحرافهم عن عقيدته ، والقول فيه بما لم يقله عيسى عن نفسه ، والرد على هذه العقائد ، وبيان بطلانها من القرآن والسنة .

وبعــد فهذه محاولة للاجتهاد ، لصاحبها إن أصاب أجران ، وإن أخطأ فله أجر واحد ، وهذا عمل بشري لا يخلو من النقصان ، فما كان من خطأ أو نسيان ، فمني ومن الشيطان ، والله منه براء ، وما كان من توفــيق فمن الله ، الذي أسأله أن يتقبل هذا العمل،وأن يجعله في ميزان حسناتي،وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم،وأن يرشدني إلى ما فيه خيري الدنــيا والآخرة ، ربنا آتنا في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار ، وصلى اللهم وبارك على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

المنصورة في ٤ شعبــان ١٤٢٧هـ / ٢٨ أغسطس ٢٠٠٦م

دكتور/ ***مسعد سيد محمد كتبي***

الفصل الأول

❁ أضواء على النبوة والرسالة ❁

- النبوة والرسالـة منحة من اللـه .
- حاجة البشر إلى الرسالة ومهمة الرسل .
- النبي والرسول والفرق بينهمـا .
- عدد الأنبيـاء والرسـل .
- الشروط الواجب توافرها في الأنبياء والرسـل .
- صفات الأنبياء والرسـل .
- التفاضل بين الأنبياء والرسل .
- وحدة الرسالات السماويـة .

الفصل الأول

أضواء على النبوة والرسالـــة

النبوة والرسالة منحة من الله :

لا مراء في أن رسل الله هم فريق من البشر ، اصطفاهم الله تعالى لتبلـيغ رســالاته إلــى الناس ، وصنعهم المولى على عينه ، وشملهم برعايته وعنايته طيلة حياتهم ، وإنما كانوا كذلك ليتلقوا رسالتهم من الله ، ثــم لينهضــوا بعد ذلك بتبليغها لأممهم وأقوامهم ، كي يسيروا على هديهــا ، ليســعدوا بذلك في الدارين ، ولابد لهؤلاء الرسل أن يتصفوا بصفات الكمال البدني ، والعصمة من الدنايا ، والرسوخ في الفضائل ، ولابــد أن تكــون قلوبهم نقية ، وعلى صلة بالملأ الأعلى ، وأن تكون عقولهم ناضجة ، وأجسامهم سليمة مبرئة من العلل والأمراض ، الخبيثة والمــنفرة ، وحســبك أنهم خيرة الله من خلقه ﴿ **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** ﴾ (١) .

وبالــرغم مــن هذه الخصائص التي يتميز بها رسل الله دون سائر الــناس ، إلا أنهــم كبقــية البشــر ، يأكلون ، ويشربون ، ويحزنون ، ويفــرحون ، حيث قال تعالى : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الاسْوَاقِ** ﴾ (٢). حتى يكون الرسول من جنس من أرسل إليه (٣).

---

(١) من الآية ١٢٤ سورة الأنعــام .

(٢) من الآية ٢٠ سورة الفرقــان .

(٣) إبراهيم عبد الله حسن الحصري : دراسات في العقيدة الإسلامية ص ١٤٧، ١٤٨ ، مطبعة الأزهر الحديثة ، طنطا ، ١٤١٥هـ /١٩٩٤م

وهذه المنزلة العلية من النبوة والرسالة منحة من الله – تعالى – ، يهـبها لمن يشاء من عباده ، حيث قال تعالى : ﴿ **يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** ﴾ (١) ، فهي ليست اكتسابا ، وليست خاضعة للممارسات الشخصية،ولا يمكن لأي إنسان مهما بلغ من عبادته أن يكتسبها ، حيث قال تعالى : ﴿ **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** ﴾ (٢).

حاجة البشر إلى الرسالة ومهمة الرسل :

لا مراء في أن البشر ، ومنذ أن خلق الله الخليقة ، كانوا في حاجة إلـى مرشدين يهدونهم الطريق ، ويبلغونهم رسالات ربهم ؛ لأن العقل البشري قاصر عن إدراك الأمور كلها ، ولا يمكن أن يصل إلى ما خفي عليه من أمور الغيب ، إلا عن طريق الرسل الكرام ، كما أن الناس في هذه الحياة الدنيا في حاجة إلى قانون ينظم شئون حياتهم ، ولا أعظم من القـانون الإلهي ، الذي جاء به الأنبياء ، والذي يكفل لهم التمتع بخيري الدنيا والآخرة ، كما أن العقل البشري لا يكفي وحده للتفريق بين الخير والشر ، ولا يمكنه معرفة بعض الأمور الغيبية ، إلا عن طريق الوحي ، لكـل هـذا اقتضـت حكمة المولى – عز وجل – أن يبعث للخلائق الأنبـياء والرسـل ؛ ليقطع على البشر معاذيرهم ، ولئلا يبقى للإنسان حجـة عند الله يوم القيامة ، لذلك يقول الله تعالى : ﴿ **رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ** ﴾ (٣).

---

(١) من الآية ١٠٥ سورة البقرة .

(٢) من الآية ١٢٤ سورة الأنعام ، محمود محمد سيد : أضواء على الجانب العقـائدي فـي فكر الإمام الطحاوي ص ١٩٢ ، ١٩٣ ، الدار الإسلامية للطباعة والنشر ، المنصورة ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٦م .

(٣) مـن الآية ١٦٥ سورة النساء ، محمود محمد سيد : أضواء على الجانب =

وللرسل مهام أخرى منها : إخراج الناس من عبادة الحياة الفانية إلى الـــدار الباقـــية ، وتذكيرهم بالنشأة والمصير ، وتعريف الناس بما بعد المـــوت ، كمـــا أن هؤلاء الرسل هم القدوة الحسنة ، والأسوة الصالحة لجميع البشر ، حيث يقول الله تعالى عن رسوله محمد ﷺ : ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ** ﴾ (١) ، كما أمرنا المولى بالاقتداء بهم ، والسير على منهجهم حيث قال سبحانه : ﴿ **أُولَـئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** ﴾ (٢). فتلك هي حاجة البشر للرسل ، وهم رحمة من الله – عز وجل – بالبشر (٣).

فمهمة الرسل إذا : هي بيان العقائد الإلهية للناس ، وتعريفهم بربهم ، وبما يجب عليهم نحوه ، وتعريف الإنسان بخلقه ، وحياته ، ومماته ، وما بعد ذلك ، وأخيراً إصلاح حال الجماعة البشرية في حياتها الدنيا ، بما يكفل فوزها بالسعادة في الدار الآخرة (٤).

فإذا كانت هذه هي حاجة البشرية للرسالة الربانية . فمن هو النبي ؟ ومن هو الرسول ؟

النبي والرسول والفرق بينهما :

النبي : هو إنسان ذكر حر ، خال من العيوب المنفرة ، أوحى الله

= العقائدي ص ١٩٨ – ٢٠١ .

(١) الآية ٢١ سورة الأحـــزاب .

(٢) الآية ٩٠ سورة الأنعــــام .

(٣) محمود محمد سيد : أضواء على الجانب العقائدي ص ٢٠٣ – ٢٠٥ .

(٤) عبد الحميد عبد اللاه عبد الرحمن : قضايا النبوة في ضوء العقل والنقل ص٥-١٣ ، الدار الإسلامية للطباعة والنشر ، المنصورة ، ط١، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م .

إليه بشرع ، سواء أمر بتبليغه ، أو لم يؤمـــر .

والرســـول : هو إنسان ذكر حر ، خال من العيوب المنفرة ، أوحى الله إلـــيه بشرع ، وأمره بتبليغه ، حيث قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ** ﴾ (١).

وبـــناءً علـــى هذا التعريف ، فالرسول أخص ، والنبي أعم ، وكل رسول نبي ، وليس العكس ، والرسول هو من أمر بتبليغ ما أوحى الله إليه ، والنبي سواء أمر أو لم يؤمر بالتبليغ ، ومما يؤكد هذا الفارق بين النبـــي والرسول قولــه تعالـــى : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ** ﴾ (٢)، حيث إن عطف النبي على الرسول بالواو يقتضي المغايرة ، فيكون الرسول غير النبي (٣).

وبجانـــب هـــذا الاتجاه في التفرقة بين النبي والرسول على أساس التبليغ وعدمه ، هناك اتجاه آخر للعلماء ، يفرقون به بينهما على أساس الشـــريعة ، مفاده أن الرسول هو من كان صاحب كتاب وشرع جديد ، أمـــا النبـــي فهو من لم يكن له كتاب ، ولا شرع جديد ، ولكنه مأمور بتبليغ شرع غيره ، وبناء على هذا الرأي ، فإن كل من النبي والرسول مأمور بالتبليغ (٤).

وكيفما كان الفارق بين الرسول والنبي ، فالرسالة أعلى مرتبة من النبوة ، فكل رسول نبي ، وليس كل نبي رسول ، وأن الرسول والنبي قد اتفقا في أمر عام جمع بينهما ، وهو النبوة ، واختلفا في أمر خاص ،

---

(١) من الآية ٦٧ سورة المائدة .

(٢) من الآية ٥٢ سورة الحـــج .

(٣) عبد الحميد عبد الله : قضايا النبوة ص ٨٧ ، ٨٨ .

(٤) المرجع السابق ص ٨٩ .

وهو التبليغ ، فالتبليغ أمر به الرسول دون النبي [١] ، وعلى هذا الرأي فالأنبياء مؤيدون للرسل ، ومعضدون ومعاونون لهم في تبليغ شرائعهم ، مثل : إلياس ، واليسع ، وغيرهما من أنبياء بني إسرائيل [٢].

عدد الأنبياء والرسل عليهم السلام :

مما لاشك فيه أن المولى – عز وجل – قد أرسل العديد من الأنبياء، والرسل لهداية البشرية على مر العصور والأزمان ، فكان آدم هو أول إنسان ، وأول نبي ، ومحمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ، وبينهما كان عـــدد كبير من هؤلاء الأنبياء والرسل ، حيث قال تعالى : ﴿ **وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلا خلا فِيهَا نَذِيرٌ** ﴾ [٣] ، فما من أمة من الأمم إلا وأرسل الله فيها نبي ، أو رسول ، كما يفيد ظاهر الآية الكريمـــة [٤].

وقـــد ورد عدد هؤلاء الأنبياء والرسل في الحديث المروي عن أبي ذر ، حيث قال : (**يا رسول الله كم الأنبياء ؟ قال : مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً " قال : قلت : يا رسول الله : كم المرسل من ذلك ؟ قال : ثلثمائة وخمسة عشر جما غفيراً ، قال : قلت يا رسول الله من كان أولهـــم ؟ قال:** آدم ، **قال : قلت يا رسول الله وآدم نبي مرسل ؟ قال : نعم ، خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، ثم سواه قبلا**) [٥].

---

(١) محمود محمد سيد : أضواء على الجانب العقائدي ص ١٩١ .

(٢) إبراهيم عبد الله حسن : دراسات العقيدة الإسلامية ص ١٥١ .

(٣) من الآية ٢٤ سورة فاطـــر .

(٤) عبد الحميد عبد الله : قضايا النبوة ص ١١٥ .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده من مسند الأنصار من حديث أبي أمامة الباهلي ، حديث رقم ٢١٢٥٧ ، الطبري : (أبو جعفر محمد بن جرير ت ٣١٠هـ): تاريخ الرسل والملوك ١ / ١٥١ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار =

وقـد **قصّ** علينا القرآن الكريم بعضا من قصص هؤلاء الأنبياء والرسـل بأسـمائهم ، وبصفاتهم أحياناً أخرى ، وتجاوز عن بعضهم ، حيـث قـال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ** ﴾ (١).

فأمـا الذيـن ورد ذكرهم في القرآن الكريم فخمسة وعشرون نبياً ورسولاً ، حيث جاء منهم ثمانية عشر في قوله تعالى : ﴿ **وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴾ (٢).

وأما السبعة الباقون ، فقد ذكرهم القرآن في مواطن أخرى متفرقة ، وهـم : (آدم ، وإدريـس ، وهود ، وشعيب ، وصالح ، وذو الكفل ، ومحمد عليهم السلام) ، وقد جمعها بعض الناظمين في قوله :

في تلك حجتنا منهـم ثمانيـة ∴ من بعد عشر ويبقى سبعة وهـم

إدريس هود شعيب صالح وكـذا ∴ ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا(٣).

= المعارف ، القاهرة ، ط٤ ، د ت ، المقدسي (المطهر بن طاهر ت ٥٠٧هـ) : البدء والتاريخ ٣/ ١ ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، بدون بيانات.

(١) من الآية ٧٨ سورة غافـر .

(٢) الآيات ٨٣ – ٨٦ سورة الأنعام .

(٣) المقدسـي : البدء والتاريخ ٣/ ٣، ٤ ، إبراهيم عبد الله حسن : دراسات فـي العقيدة ص ١٥٧ ، ١٥٨ ، عبد الحميد عبد اللاه : قضايا النبوة ص ١١٥ ، ١١٦ .

ومن هؤلاء الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم خمسة عبرانيون ، وهم : آدم ، وشيث ، وإدريس ، ونوح ، وإبراهيم ، وخمسة من العرب وهم : هود ، وصالح ، وإسماعيل ، وشعيب ، ومحمد ﷺ ، وقد أرسل المولى – عز وجل – لبني إسرائيل ألف نبي ورسول ، كان أولهم موسى – عليه السلام – وآخرهم عيسى – عليه السلام – (١).

وقد اختص المولى من الأنبياء والرسل الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم أولى العزم ، وهم الذين ورد ذكرهم في قوله : ﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا** ﴾ (٢) ، حيث تحمل هؤلاء الرسل الكرام ما تنوء الجبال عن حمله ، في سبيل تبليغ الرسالة لأقوامهم ، وصبروا على ما تعرضوا له من أذى واضطهاد في سبيل دعوة أقوامهم ، وهدايتهم ، كما كانوا أقوى في هذا المجال من غيرهم من الرسل ، حتى خاطب المولى رسوله ﷺ قائلاً : ﴿ **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ** ﴾ (٣) ، للتنويه بفضل هؤلاء الرسل .

وأما من ورد في القرآن الكريم من الأنبياء والرسل بصفته ، فمنهم الذي ورد في قوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن**

---

(١) ابن قتيبة (أبو محمد بن عبد الله بن مسلم ت ٢٧٦) : المعارف ١/ ٥٦ ، تحقيق د/ ثروت عكاشة ، دار المعارف ، القاهرة ، بدون بيانات ، المقدسي : البدء والتاريخ ٣/ ١ .

(٢) آية ٧ سورة الأحزاب .

(٣) من الآية ٣٥ سورة الأحقاف ، المقدسي : البدء والتاريخ ٣/ ٧ ، إبراهيم عبد الله حسن : دراسات في العقيدة ص ١٥٩ .

بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ﴾ [١].

قال أهل التفسير : أنه أسماويل بن هلقانا ، ومنهم الذي ورد في قوله تعالى : ﴿ **أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا** ﴾ [٢]. حيث قيل : أنه أرميا ، أو عزير ، ومنهم الذي ورد في قوله سبحانه : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ** ﴾ [٣] ؛ حيث كان نبيهم يسمى : حزقيل بن بوزي [٤].

ويجب الإيمان بجميع الرسل والأنبياء إجمالاً ، من علمنا منهم ومن لم نعلم ، ويجب الإيمان تفصيلا بمن ورد ذكرهم في القرآن الكريم ، حيث قال تعالى : ﴿ **آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ**﴾[٥].

وكما وجب على المسلم الإيمان برسل الله وأنبيائه جملة وتفصيلاً ، يجب عليه كذلك الإيمان بالكتب المنزلة عليهم جملة فيما لم يصل إلينا ، وتفصيلا فيما ورد في القرآن الكريم من هذه الكتب ، فعن أبي ذر الغفاري قال : قلت : يا رسول الله : كم كتاب أنزل الله ؟ قال : (**مائة كتاب ، وأربعة كتب : أنزل الله – عز وجل – على آدم عليه السلام –**

---

(١) من الآية ٢٤٦ سورة البقرة .

(٢) من الآية ٢٥٩ سورة البقرة .

(٣) من الآية ٢٤٣ سورة البقرة .

(٤) ابن قتيبة : المعارف ١/ ٤٤ ، المقدسي : البدء والتاريخ ٣/ ٤ .

(٥) من الآية ٢٨٥ سورة البقرة ، إبراهيم عبد الله حسن : دراسات في العقيدة ص ١٥٧ ، محمد أبو النور الحديدي : عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليه ص ٢٦ ، مطبعة الأمانة ، بدون بيانات أخرى .

عشـر صـحائف ، وعلى شيث خمسين صحيفة ، وأنزل على أخنوخ – إدريـس – ثلاثيـن صحيفة ، وأنزل على إبراهيم عشر صحائف ، وأنزل – عز وجل – التوراة ، والإنجيل ، والزبور ، والفرقان) [١].

الشروط الواجب توافرها في الأنبياء والرسل :

يشترط في النبي والرسول ما يلي :

١- ***البشرية*** ، لأنـه مبعوث لبني الإنسان ، والحكمة تقتضي أن يكون الرسول من جنس من يُرسل إليهم ، ليألفوه ، ويتلقوا عنه عقائدهم ، وليحقق القدوة بنفسه ، وذلك لا يتحقق إلا إذا كان الرسول من جنسهم ، أما لو جعل المولى الرسول ملكا لما استطاع البشر رؤيته ، ومقابلته ، ولـو جعله ملكاً في صورة بشر لالتبس الأمر عليهم ، كما قال تعالى : **﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾** [٢].

٢- **الذكورة** لأن المرأة بحكم خلقتها لا تصلح لهذه المهمة الصعبة التـي لا يسـتطيع القيـام بها غير الرجال ، حيث قال تعالى : **﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم ﴾** [٣].

٣- ***الحرية*** فالرسول يبعث من السادة لا من الأرقاء ، لأنه لو حدث ذلك لما تمكن الرسول من أداء رسالته ؛ لأنه لا يكون حراً في تصرفاته

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه في كتاب البر والإحسان ، باب ما جاء في الطاعات وثوابها ، حديث رقم ٣٦٢ ، الطبري : تاريخ الرسل ١ / ٣١٢ ، ٣١٣ .

(٢) آية ٩ سورة الأنعام ، عبد الحميد عبد الله : قضايا النبوة ص٩٢، ٩٣ .

(٣) آية ٨ سورة الأنبياء ، عبد الحميد عبد الله : قضايا النبوة ص ٩٧ .

إذ كــان ملكــاً لسـيده ، وإذا كان المترفون وكبراء القوم قد نفروا من دعــوات الأنبــياء ، ورفضوها ، لأن أغلب أتباعهم كانوا من الضعفاء والأرقاء ، فما بالنا لو كان النبي نفسه من العبيد ! [١].

٤- **الخلو من العيوب المنفرة سواء الخلقية أو الخُلُقية** ، فلا يجوز أن يكــون قبــيحا ، أو مريضاً ، أو فظّا ، أو غليظ القلب ، بل لابد أن يكون مستقيم الخِلقة ، حميد الخصال ، جميل الصفات ، متمتعا بطهارة النسب ، بعيداً عما يخل بالمروءة والشرف ، كالأكل في الأسواق [٢].

٥- **أن يوحــي إلــيه مــن قبل الله تعالى** ، بأي صورة من صور الوحي ، التي وردت في قوله تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلا وَحْــيًا أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاء إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ** ﴾ [٣].

صفات الأنبياء والرسل :

الرسل والأنبياء هم سفراء بين الله تعالى وعباده ، ليبلغوهم رسالاته ، ويؤدونهــا بكــل صدق ، وأمانة ، وفطانة ، وهم حملة مشاعل النور الإلهي ، ورواد الحضارة الإنسانية ، فيجب أن يكونوا هم القدوة الطيبة ، والمــثل الصــالح في سلوكهم ، وفي معاملتهم ، حتى يُقبل كلامهم ، ويُسمع بكل يقظة وانتباه ، لذا وجب اتصافهم بهذه الصفات :

---

(١) المرجع السابق ص ٩٩ ، ١٠٠ .

(٢) المرجع نفسه ص ١٠١ .

(٣) آية ٥١ سورة الشورى ، عبد الحميد عبد الله : قضايا النبوة ص ١٠٢ .

١- *الصدق :*

وهو مطابقة الخبر للواقع ولو بحسب الاعتقاد ، ويشمل صدق الرسول في كل ما يبلغه لقومه من أوامر ونواهي ، ومن أحكام ومن أخبار، حيث وصف المولى رسله الكرام بالصدق ، فقال تعالى:﴿ **وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا** ﴾ (١) ، وقال في حق محمد ﷺ ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى** ﴾ (٢).

ولو كذب الأنبياء لما وثق الناس بهم ، ولا سمعوا كلامهم ، مما يضيع فائدة الرسالة والهدف المرجو منها ، ولو لم يصدق الأنبياء في قولهم للزم الكذب في خبر الله تعالى ، لتصديقه لهم بالمعجزات النازلة منزلة قوله : (**صدق عبدي في كل ما بلغ عني**) وتصديق الكاذب كذب ، وهو محال في حقه تعالى ، فملزومه وهو عدم صدقهم محال ، كما أن وقوع الكذب منهم يتنافى مع عصمتهم ، إذا فهو محال (٣).

٢- *الأمانة* : هي حفظ الله ظواهر الأنبياء والرسل وبواطنهم من الوقوع في المحرمات ، والمكروهات ، وكل ما ينفر منه ، سواء أكانت كبائر ، أم صغائر ، فهي ملكة تمنع العبد من الفجور ، وضد الأمانة الخيانة ، وقد وصف المولى رسله بالأمانة ، حيث قال تعالى على لسان غير واحد من الرسل : ﴿ **إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ** ﴾ (٤). فلو لم يكن أمينا

---

(١) آية ٤١ سورة مريم .

(٢) الآيتان ٣ ، ٤ سورة النجم .

(٣) حلمي السعيد السعيد : دراسات في قضايا النبوة والرسالة ص ٢٣ – ٢٥ بدون بيانات .

(٤) من الآية ١٠٧ سورة الشعراء .

فعلا ، ما صدقه الله تعالى في هذا القول ، بما يؤيده من معجزة [١].

إذا فالأنبياء والرسل محفوظون ظاهرا من الزنا ، وشرب الخمر ، والكذب ، وغير ذلك من مهينات الظاهر ، ومحفوظون باطناً من الحسد ، والكبرياء ، والرياء ، وغير ذلك من مهينات الباطن ، سواء قبل النبوة ، أو بعدها ، كما لا يقع منهم مكروه ، ولا خلاف الأولى ، بل ولا مباح على وجه الكراهة ، إذ هم لو خانوا الأمانة بفعل محرم ، أو مكروه ، أو خلاف الأولى ، لكنا مأمورين به ، لأن الله أمرنا باتباعهم في أفعالهم ، وأقوالهـم ، وأحوالهـم ، مـن غير تفصيل ، وهو – تعالى – لا يأمر بمحـرم ، ولا مكروه ، ولا خلاف الأولى ، فلا تكون أفعالهم محرمة ، أو مكروهة ، ولا خلاف الأولى [٢].

٣- ***التبليغ*** : وهو تبليغ الرسل والأنبياء ما أمرهم الله بتبليغه للخلق ، مما أوحى إليهم ، فلو كتم الأنبياء شيئاً مما أمروا بتبليغه لكنا مأمورين بكتمان العلم ، لأننا مأمورون بالاقتداء بهم ، وهذا باطل ، لأن كاتم العلم ملعـون ، ولا يمكـن أن يأمر الله بما يجلب اللعنـة ، ولو جاز عليهم الكتمان لكتموا ما وجه إليهم من لوم أو عتاب ، مثل ما وجهه الله لنبيه محمد ﷺ حيث قال : ﴿ **وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ** ﴾ [٣]، والدليل النقلي على وجوب التبليغ للأنبياء قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ**

---

(١) حلمي السعيد : دراسات في قضايا النبوة ص ٢٥ ، ٢٦ .

(٢) إبراهـيم البـيجوري : شرح البيجوري على الجوهرة ص ١٤٢ ، طبعة الإدارة المركزية للمعاهد الأزهرية ، القاهرة ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

(٣) من الآية ٣٧ سورة الأحـزاب .

مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ [(١)].

٤- ***الفطانة*** : وهي التيقظ ، وحدة العقل ، وذكائه ، بحيث يتمكن المتصف بها من إلزام المخالفين ، ورد دعاويهم الباطلة ، وإفحام المعاندين ، فلو لم يكن الأنبياء والرسل فطناء لكانوا عاجزين عن إقامة الحجة على دعاويهم ، فيكون إرسالهم عبثاً ، ثم إنهم لو لم يتصفوا بالفطانة لاتصفوا بضدها ، وهي البلادة ، والغفلة ، وكل منها نقص بشرى محال عليهم ، ولا يتفق والمكانة التي منحهم الله وهيأهم لها واختارهم لتأديتها على أكمل الصور ، وقد أثبت المولى هذه الصفة لرسله ، فقال تعالى في حق إبراهيم : **﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ﴾** [(٢)]، وقال سبحانه لرسوله محمد ﷺ : **﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾**[(٣)].

هذا ما يجب من صفات للرسل إجمالاً وتفصيلاً ، أما ما يجوز في حقهم ، فهو فعل الأعراض البشرية ، التي لا تؤدي إلى نقص في مراتبهم العلية ، مثل : الأكل ، والشرب ، والنكاح ، كما تجوز عليهم الأمراض العادية ، التي لا تؤدي إلى نفرة الناس منهم ، وأما الأمراض

---

(١) من الآية ٦٧ سورة المائدة ، إبراهيم البيجوري : شرح البيجوري على الجوهرة ص ١٤٤ ، ١٤٥ ، عبد الحميد عبد اللاه : قضايا النبوة ص ١١١ ، ١١٢ .

(٢) من الآية ٨٣ سورة الأنعام .

(٣) من الآية ١٢٥ سورة النمل ، إبراهيم البيجوري : شرح البيجوري على الجوهري ص ١٤٣ ، ١٤٤ ، عبد الحميد عبد الله : قضايا النبوة ص ١١٣ ، ١١٤ .

المنفرة ، مثل : الجنون ، والجذام ، والبرص ، والعمى ، فإنها لا تجوز عليهم ، ولم يثبت أن نبياً مرض بها [١].

٥- ***العصمة*** : ومعناها حفظ الله ظواهر الرسل وبواطنهم من التلبس بمنهي عنه ، أو ترك مأمور به ، وهذا يعني أن الله حفظ أنبياءه ورسله، ومنعهم من ارتكاب المعاصي والمحرمات ، فالعصمة من لوازم الوحي، وهي لازمة للأنبياء والرسل ، لسلامة القدوة بهم ، وإلا لانقلبت المعصية طاعة ، وذلك فيما إذا وقع من الأنبياء معصية ، لأن الله أمرنا بالاقتداء بهم في كل أحوالهم ، إلا ما ثبت اختصاصهم به [٢]، حيث قال تعالى : ﴿ **وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ** ﴾ [٣]. وقال سبحانه : ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** ﴾ [٤].

واتفق العلماء على أن الأنبياء معصومون من الكبائر ، واختلفوا في صغائر الذنوب ، هل تقع منهم أم لا ؟ إلى عدة آراء :

١- **فقال الطبري وغيره من الفقهاء** : تقع الصغائر منهم .

٢- **بينما قال جمهور الفقهاء** من الشافعية ، والمالكية، والحنفية : إن الأنبياء معصومون من الصغائر ، كعصمتهم من الكبائر أجمعها ،

---

(١) إبراهيم البيجوري : شرح البيجوري ص ١٤٥ – ١٤٧ .

(٢) عبد الحميد عبد الله : قضايا النبوة ص ١٣٢ ، ١٣٣ ، محمد أبو النور الحديدي : عصمة الأنبياء ص ٦٢ .

(٣) الآية ٧٣ سورة الأنبياء .

(٤) من الآية ٩٠ سورة الأنعام .

لأننا أمرنا باتباعهم في أفعالهم مطلقاً من غير التزام قرينة ، فلو جوزنا عليهم الصغائر ، لم يكن الاقتداء بهم ذي فائدة .

وأمـا مـن قـال بوقوع الصغائر منهم ، فقال إن هذا لا يطعن في مناصـبهم ، إذ هـذه الأمور وقعت على جهة الندور ، أو الخطأ ، أو النسـيان ، أو تأويل دعا إلى ذلك ، فهي بالنسبة إلى غيرهم حسنات ، وفي حقهم سيئات ، وهي من باب حسنات الأبرار ، سيئات المقربين[١].

وسـوف نعرض للشبهات التي أثيرت حول الأنبياء والرسل موضع الدراسـة ، ونـرد عليها في مكانها ، بما يدحضها ، ويثبت العصمة للأنبياء .

التفاضل بين الأنبياء والرسل :

مع علو مكانة الأنبياء جميعا ، وسمو منزلتهم ، فإن بعضهم أفضل من بعض بنص قوله تعالى : ﴿ **تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ** ﴾ [٢] ، وقوله سبحانه: ﴿ **وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا** ﴾ [٣]. فهاتان الآيتان تشيران صراحة إلى التفاضل بين الأنبياء والرسل [٤].

---

(١) القرطبـي (أبـو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري ت ٦٧١) : الجامع لأحكـام القرآن ١/ ٣٠٩ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، د ط ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

(٢) من الآية ٢٥٢ سورة البقرة .

(٣) من الآية ٥٥ سورة الإسراء .

(٤) عبد الحميد عبد اللاه : قضايا النبوة ص ١٢٠ .

ولقد حاول العلماء أن يحددوا الأفضل من الأنبياء والرسل فقالوا : إن أفضلهم هم أولوا العزم ، وهم : [**محمد ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى**] – عليهم السلام – وسموا بأولى العزم لأنهم أكثر الأنبياء جهاداً ، وابتلاءً ، وتحملاً ، وصبراً ، حيث أمر تعالى نبيه محمد ﷺ بالاقتداء بهم فقال تعالى : ﴿ **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ** ﴾[١] ، وهم الذين وردوا في قوله تعالى : ﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا** ﴾ [٢] ، فقد خص المولى هؤلاء بالذكر لمزيد فضلهم ، وتكريمه لهم [٣].

ومن أولى العزم هؤلاء اختص المولى نبيه محمد ﷺ بالفضل ، حيث قال هو عن نفسه :(أنا سيد ولد آدم ولا فخر)[٤] كما قال ﷺ :(**فضلت على الأنبياء بست ، أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلت لي الغنائم ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، وأرسلت إلى الخلق كافة ، وختم بي النبيون**) [٥]،وقوله ﷺ : (**أنا أكرم الأولين والآخرين**

---

(١) من الآية ٣٥ سورة الأحقاف .

(٢) الآية ٧ سورة الأحزاب .

(٣) عبد الحميد عبد اللاه : قضايا النبوة ص ١٢٠ ، ١٢١ .

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الفضائل ، باب تفضيل نبينا محمدﷺ على جميع الخلائق ، حديث رقم ٤٢٢٣ .

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب المساجد ومواضع الصلاة حديث رقم ٨١٢.

علـــى الله ولا فخر) [١] ، وهذا التفضيل سواء أكان لأولي العزم على غيرهم ، أم لنبينا محمد على أولى العزم ، هو من الله وحده ، وما علينا إلا الانقياد والتسليم ، فنفضل من فضله الله منهم ، ولا نعتقد النقص في غيرهم ، وليس التفضيل لعصبية ، أو عرق ، أو تخاصما ، أو تشاجراً بين أتباعهم ، وإنما هو أمر دين وخلق ، فلا نقول إلا: سمعنا وأطعنا[٢].

وأمـــا مـــا ورد من النهي عن التفريق بين الرسل في قوله : ﴿ **لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ** ﴾ [٣]. فالمراد بالتفريق هنا هو الإيمان ببعض الرســـل ، والكفـــر ببعضهم ، كما فعل اليهود والنصارى ، الذين آمنوا برسالة بعض الأنبياء ، وكفروا برسالة آخرين ، ففرقوا بين الرسل [٤] ، حيث قال تعالى عنهم : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً أُوْلَـــئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا** ﴾ [٥].

وأمـــا مـــا ورد من نهيه ﷺ عن تفضيله على الأنبياء كقوله : (**لا تفضلوني على الأنبياء**) ، وقوله : (**لا تخيروني على موسى**) فالمراد النهي عن التفضيل الذي يؤدي إلى تنقيص غيره من الأنبياء ، أو أنه ﷺ

---

(١) أخـــرجه الترمذي في سننه في كتاب المناقب عن رسول الله ﷺ ، باب فضل النبي ، حديث رقم ٣٥٤٩ .

(٢) عبد الحميد عبد اللاه : قضايا النبوة ص ١٢٠ ، ١٢١ .

(٣) من الآية ٢٨٥ سورة البقرة .

(٤) القرطبي : الجامع ٣ / ٤٢٥ .

(٥) الآيتان : ١٥٠ ، ١٥١ سورة النساء .

قاله قبل أن يعلم أنه أفضل ، أو أنه قاله من باب الأدب والتواضع [١].

وحدة الرسالات السماوية :

بالرغم من تعدد الأنبياء والرسل ، واختلاف أزمانهم ، وأماكنهم ، إلا أنهم جميعا يكملون الرسالة الإلهية للبشر ، كل في زمانه ومكانه ، حتى وصلت الرسالة إلى ختامها على يد محمد ﷺ ، فالأنبياء جميعا لبنات بناء واحد ، يشد بعضه بعضاً [٢]، كما ورد في حديث الرسول ﷺ حيث قال : (**مثلي ومثل الأنبياء قبلي ، كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه ، إلا موضع لبنة فيه ، فجعل الناس يطوفون به ويتعجبون ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ، فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين**) [٣].

كما أن جميع الرسالات السماوية التقت على أصول العقيدة ، والعبادة ، والأخلاق ، فكل نبي دعا قومه إلى التوحيد الخالص ، كما اشتركت العبادة والأخلاق في إطارها العام بين جميع الرسل ، وإلى هذا المعنى أشار الرسول ﷺ حيث قال : (**الأنبياء أخوة لعلات دينهم واحد وأمهاتهم شتى**) [٤] ، أي في الأصول والعقيدة ، وإن اختلفت الشرائع والرسالات في بعض التفصيلات ، لأن ما يصلح لأمة ، قد لا يتناسب مع أخرى ، وما يصلح لزمن ، قد لا يستمر لزمن آخر [٥].

---

(١) إبراهيم البيجوري : شرح البيجوري ص ١٥٣ ، ١٥٤ .

(٢) عبد الحميد عبد الله : قضايا النبوة ص ١٢٤ .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه من كتاب المناقب ، باب خاتم النبيين ، حديث رقم ٣٢٧١ .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده ، باقي مسند المكثرين ، من مسند أبي هريرة ، حيث رقم ٩٢٥٩ .

(٥) عبد الحميد عبد اللاه : قضايا النبوة ص ١٢٤ – ١٢٦ .

وحسبنا دليلا على أصل ووحدة الرسالات السماوية ، **أنه ما من نبي** إلا ودعـا قومـه للإسلام ، من لدن آدم وحتى محمد ﷺ فقال نوح : ﴿**وَأُمِـرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾ [(١)] ، وأقر إبراهيم بالإسلام ﴿ **إِذْ قَـالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [(٢)] ، وكذلك إسماعيل الـذي قال : ﴿ **رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ** ﴾ [(٣)] ، وأيضاً يعقوب وبنيه الذيـن قـالوا : ﴿ **وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** ﴾ [(٤)] ، ويوسف الذي دعا ربه ﴿**تَوَفَّنِي مُسْلِمًا**﴾ [(٥)] ، ودعا موسى قومه إليه قائلاً : ﴿ **يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ** ﴾ [(٦)]، وكذلك سليمان الذي قال لملكة بلقيس : ﴿ **أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ** ﴾ [(٧)] ، وأقر به عيسى والحواريون الذين ﴿ **قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ** ﴾ [(٨)].

وخـتم المولى القضية بقوله : ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ [(٩)] ، وقوله سبحانه : ﴿ **إِنَّ الدِّيـنَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ** ﴾ [(١٠)]، ليؤكد أن دين الإسلام هو الخاتم لكل

---

(١) من الآية ٧٢ سورة يونس .

(٢) الآية ١٣١ سورة البقـرة .

(٣) من الآية ١٢٨ سورة البقـرة .

(٤) من الآية ١٣٣ سورة البقـرة .

(٥) من الآية ١٠١ سورة يوسف .

(٦) من الآية ٨٤ سورة يونـس .

(٧)الآية ٣١ سورة النمل .

(٨) من الآية ١١١ سورة المائدة .

(٩) الآية ٨٥ سورة آل عمران .

(١٠) من الآية ١٩ سورة آل عمران .

الرســالات ، إذ هو قد حوى كل ما في الديانات السابقة ، من الأصول العقائدية ، ومن الدعوة إلى التوحيد الخالص ، وأضاف إليها ما تميز به هذا الدين ، من شريعة وسطية ، تحقق للفرد والأمم ما فيه خيري الدنيا والآخــرة ، حيــث قال تعالى : ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** ﴾ [1].

وبعــد هذا الإلماع لموضوع النبوة والرسالة ، وما يتعلق بهما من أمــور هامــة ، نشرع في الحديث عن بعض الأنبياء والرسل من أولى العــزم وغيرهم ، مستهلين ذلك بالحديث عن أبي الأنبياء والبشر آدم – علــيه الســلام – ، وموطئيــن ذلــك بالحديث عما سبق آدم من خلق الســماوات والأرض ، والكون ، والملائكة ، والجن ، وذلك في الفصل التالي .

---

(١) من الآية ١٤٣ سورة البقرة ، جمال عبد الهادي ، ووفاء محمد رفعت : أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ ، الإسلام دين الله في الأرض والسماء ص ٣٦ – ٣٩ ، دار الوفاء ، المنصورة ، ط٢ ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .

الفصل الثاني

❁ آدم عليه السلام ❁

- خلق الكون
- الملائكة
- خلق الجن وعمارتهم للأرض
- محاورة المولى للملائكة بشأن الخليفة
- خلق آدم ومراحله
- آدم أبو البشر وفساد نظرية دارون
- سجود الملائكة لآدم
- تعليم آدم الأسماء
- امتناع إبليس عن السجود لآدم
- دخول آدم الجنة وعصيانه وخروجه منها
- جنة آدم
- شبهة وقوع آدم في المعصية
- آدم وحواء في الأرض
- قصة قابيل وهابيل
- نبوة آدم
- ما انفرد به آدم
- وفاة آدم
- العبرة والعظة من قصة آدم



الفصل الثاني
آدم عليه السلام

بداية خلق الكون :

كان الله ولم يكن معه شيء ، فهو الأول بلا ابتداء ، والآخر بلا انتهاء ، وهو السابق للأشياء قبل وجودها ، والباقي بعد فنائها ، فليس له أول ، وليس له آخر [١]، وأول ما خلقه الله القلم ، حيث أمره فكتب ما كان ، وما هو كائن إلى الأبد ، ثم خلق عرشه ، وكان على الماء[٢]، ﴿ **الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى** ﴾ [٣].

وخلق الله السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، حيث قال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ** ﴾ [٤]، خيث خلق المولى الأراضين السبع يومي الأحد والاثنين ، وخلق الجبال الرواسي يوم الثلاثاء ، وخلق الشجر ، والعمران ، والنباتات ، والحيوانات ، وأقوات أهل الأرض ، وأرزاقهم ، والماء ، يوم الأربعاء ، وخلق السماوات السبع يوم الخميس ، وفي يوم الجمعة خلق الشمس ، والقمر ، والنجوم ، والملائكة ، وخلق آدم عليه السلام في آخر

---

(١) القرماني (أحمد بن يوسف ت ١٠١٩هـ) : أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ ١/ ٩ ، دراسة وتحقيق د/ فهمي سعد ، ود/ أحمد حطيط ، عالم الكتب ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م .

(٢) الطبري : تاريخ الرسل ١ / ٣٨ .

(٣) آية ٥ سورة طه .

(٤) آية ٣٨ سورة ق .

ساعة من يوم الجمعة ، وهي ساعة الإجابة من صلاة الجمعة ، وساعة قيام الساعة [١]، وسمى يوم الجمعة بذلك لاجتماع تكامل أصول الخلق فيه [٢] .

قال تعالى ﴿ **قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** ﴾ [٣].

وقد اختلف في مقدار هذه الأيام ، التي خلق الله فيها السماوات والأرض والمخلوقات ، هل هي مثل أيام الدنيا ؟ أم مثل أيام الآخرة ؟ كل يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون .

فقال مجاهد والحسن البصرى : إنها كأيام الدنيا ، وقال ابن عباس : إنها كأيام الآخرة ، والراجح منها الأولى ؛ لأنها المعهودة والمعروفة لدينا ، إذ لم نعايش شيئا من أيام الآخرة ، كما أن المولى ذكرها لنا من غير تقييد ، فالأولى حملها على أيام الدنيا [٤].

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل ١/ ٤٦ ، ٤٧ ، القرماني : أخبار الدول ١/١١

(٢) ابن الشحنة (محب الدين أبو الوليد محمد ت٨١٥هـ) : روض المناظر في علم الأوائل والأواخر ص١٨ ، تحقيق محمد سيد مهنى ، دار الكتب العلمية بيروت، ط١ ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م .

(٣) الآيات ٩ - ١٢ سورة فصلت .

(٤) ابن كثير (عماد الدين أبو الفداء إسماعيل ت ٧٧٤هـ) : البداية والنهاية ١ / ١٤ ، تحقيق أحمد عبد الوهاب فتيح ، دار الحديث ، القاهرة ، ط٤ ، =

ولم يكن خلق الكون في لحظة واحدة بمعجز للمولى – عز وجل – ، الذي يقول للشيء كن فيكون ، وإنما كانت الحكمة من خلقه في ستة أيام – كما حكى القرآن الكريم – إشارة إلى الرسوخ ، والتثبيت ، ليكون أبلغ في القدرة ، إذ الحكمة لا تقتضي العجلة ، كما أن المولى – عز وجل – أراد أن يظهـر في كل وقت أمرا تستعظمه الملائكة ، فتسبح وتثنى على الذات العلية ، ولا مراء في أن خلق السماوات والأرض في ستة أيام فيه درسا وعبرة للبشرية ، وتدريبا لها على الرفق في كل ما تقوم به ، والتثبت في الأمور [١].

وبعـد أن خلـق الله الكون وما فيه اقتضت حكمته أن يبث الحياة في الكوكـب الأرضـي ، ويتخذ لنفسه خليفة فيه ، فكان ما كان من مخاطبته لملائكته بشأن ذلك ، وما دار من نقاش حول هذا الخليفة ، ثم دخول إبليس طـرفا في هذا النقاش ، الأمر الذي يستلزم أن نعرض بشيء من الإيجاز لهذه الأطراف الثلاثة : الملائكة ، الجن ، آدم .

الملائكـة :

هـي مخلوقـات نورانية سماوية ، مجبولة على الخير ، قادرة على التشـكل بأشـكال حسنة ، قال عنها النبي ﷺ : **(خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار)** [٢]، وهم لا يأكلون ، ولا يشربون ، ولا

= ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م ، القرماني : أخبار الدول ١ / ١١ .

(١) القرماني : أخبار الدول ١/ ١١ ، ١٢ .

(٢) أخـرجه مسـلم فـي صحيحه في كتاب الزهد والرقائق ، باب أحاديث متفرقة ، حديث رقم ٥٣١٤ ، ابن عاشور : التحرير والتنوير ٥/ ٢٤١ المكتبة الشاملة ٢.

يتناسلون ، بل متفرغون لعبادة الله ، وتسبيحه ، والثناء عليه ، قال تعالى : **(لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)** (١). وقـال تعالـى : **﴿ وَمَـنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ ﴾**(٢). وقال تعالى : **﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴾** (٣).

وقـد اخـتلف العلماء حول من الأفضل الملائكة أم البشر إلى ثلاثة آراء ، فقال **أصحاب الرأي الأول** : إن الرسل من البشر أفضل من الرسل مـن الملائكـة ، والأولياء من البشر أفضل من الأولياء من الملائكة (٤).
واستدل هؤلاء على رأيهم بعدة أدلة منها :

١ – قولـه تعالى : **﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾** (٥).

٢ – قوله ﷺ : **(إن الملائكة لتضع أجنحتها رضى لطالب العلم)** (٦).

٣ – قوله ﷺ : **(إن الله يباهي بأهل عرفات الملائكة)** (٧) ولا يباهي

---

(١) من الآية ٦ سورة التحريم .

(٢) الآيتان ١٩ ، ٢٠ سورة الأنبياء .

(٣) آية ١٦٦ سورة الصافات .

(٤) القرطبي : الجامع ١/ ٢٨٩ .

(٥) آية ٧ سورة البينـة .

(٦) أخـرجه أبـو داود في سننه في كتاب العلم ، باب الحث على طلب العلم ، حديث رقم ٣١٥٧ .

(٧) أخرجه ابن حبان في صحيحه في كتاب الحج ، باب الوقوف بعرفه ومزدلفة ، حديث رقم ٣٩٢٥ .

إلا بالأفضل ، مما يؤكد أفضلية البشر على الملائكة [١].

٤ – ما ورد عن عبد الله بن عمر مرفوعا حيث قال : (لما خلق الله الجـنة قالـت الملائكة يا ربنا اجعل لنا هذه ، نأكل ونشرب منها ، فإنك خلقت الدنيا لبنى آدم ، فقال الله : لن أجعل صالح ذرية من خلقت بيدى ، كمن قلت له كن فيكون [٢].

الرأى الثانى يقول : بأن الملائكة أفضل من البشر لما يلي :

١– لقولـه تعالى : ﴿ **عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُـونَ** ﴾ [٣]. وقولـه : ﴿ **لا يَعْصُـونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴾ [٤]. وما ورد في صحيح البخارى عن رسول الله ﷺ عن رب العـزة قوله : (**من ذكـرنى فـي ملأٍ ذكرتـه فـي ملإٍ أكثـر منهم وأطيب**) [٥]. فكل هذه الشواهد ترجح أفضلية الملائكة على البشر .

وقد رد الفريق الثاني على ما استدل به الفريق الأول من قوله : (**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية**) بأن هذه الآية ليست خاصة بالبشر ، حيث وصف الله الملائكة بالإيمان في قوله : ﴿ **وَيُؤْمِنُونَ بِـهِ** ﴾ [٦]. كما وصف بذلك الجن في قوله ﴿ **وَأَنَّا لَمَّـا سَمِعْنَا الْهُـدَى**

---

(١) القرطبي : الجامع ١/ ٢٨٩ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ١/ ٥٤ .

(٣) الآيتان ٢٦ ، ٢٧ سورة الأنبياء .

(٤) من الآية ٦ سورة التحريم .

(٥) أخـرجه أحمـد في باقي مسند المكثرين من مسند أبي هريرة ، حديث رقم ٨٢٩٦ ، القرطبي : الجامع ١/ ٢٨٩ .

(٦) من الآية ٧ سورة غافـر .

آمَـنَّا بِهِ ﴾ (١) مما يفيد اشتراك البشر مع الملائكة مع الجن في الإيمان بالله .

٢ – كما استـدل الفريق الثانـي بأفضلية الملائكة بقوله تعالى : ﴿ **قَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِيـنَ** ﴾ (٢). حيـث منى إبليس آدم وحواء أن يرتقيا مرتبة أعلى من البشـرية ، وهـي مرتبة الملائكة ، واستدلـوا أيضا بقولـه : ﴿ **وَقُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا هَـذَا بَشَرًا إِنْ هَـذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ** ﴾ (٣).

لـم يسـتكن أصحاب الرأي الأول لأدلة الفريق الثاني ، وقالوا : إن البشر أفضل من الملائكة ، لأن إطاعة الملائكة بالفطرة ، فلا شهوة لهم ، ومن ثم لا فضل لهم في العصمة من الذنوب ، أما الآدمي فإنه يجاهد نفسه ، وشهواته وميوله(٤).

وحاول فريق ثالث التوفيق بين هذين الرأيين بقولهم : إن عموم الملائكة أفضل من عموم البشر ، ولكن خواص البشر وهم الأنبياء والرسل أفضل من خواص الملائكة(٥) ، وهذا ما أميل إليه ، لتوافقه مع ظواهر النصوص القرآنية .

---

(١) من الآية ١٣ سورة الجـن .

(٢) من الآية ٢٠ سورة الأعراف .

(٣) آيـة ٣١ سـورة يوسـف ، عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء ص١٧ ، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط٢ ، ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م

(٤) عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء ص ١٨ .

(٥) المرجع السابق ص ١٨ .

خلق الجن وعمارتهم للأرض قبل خلق آدم

الجن لغة : مأخوذ من الاستتار ، ومنه الجنين لأنه مستتر في بطن أمه ، ومنه الجنة لاستتار أرضها بورقها .

أما اصطلاحا : فهي أجسام هوائية ، قادرة على التشكل بأشكال مختلفة ، لها عقول وأفهام ، وقدرة على الأعمال الشاقة ، بخلاف الإنسي ، وسمى الجـان بذلك لتواريه عن الأعين ، والجن كبنى آدم يأكلون ، ويشربون ، ويتناسـلون ، ومنهم المؤمنون ، ومنهم الكافرون ، حيث قال تعالى على لسـانهم : ﴿ **وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ** ﴾[1] وقال تعالى:﴿ **وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ** ﴾ [2]. وخلق الجن من مارج النار ، وهو لسان اللهب الذي يكون في طرفها إذا التهبت ، قال تعالى : ﴿ **وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ** ﴾ [3].

وأما الشيطان فهو: كل عات متجبر من الجن ، وهي إما مأخوذة من الشط أي البعد عن الخير ، أو من شاط يشيط إذا احترق ، فعن عائشة رضى الله عنها قالت: (**خُلِقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ، وخلق آدم مما وصف لكم**) [4] أما إبليس : فهو لفظ غير عربي ، مشتق من الإبلاس

---

(١) من الآية ١٤ سورة الجـن .

(٢) آية ٢٩ سورة الأحقـاف .

(٣) آيـة ١٥ سـورة الرحمـن ، الطبري : تاريخ الرسل ١/ ٨٤ ، ابن كثير : البداية ١/ ٥٦ ، القرماني : أخبار الدول ١/ ١٥ ، .

(٤) أخـرجه مسلم في صحيحه كتاب التوحيد ، باب أحاديث متفرقة ، حديث =

، أي البعد من الخير ، واليأس من رحمة الله تعالى ، والمراد به أب جميع الشياطين ، خلقه الله قبل خلق آدم من نار السموم ، حيث قال تعالــى عن أصلــه : ﴿ وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ إِلا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ (٢).

وكان إبليس قبل إبلا سه يسمى : عزازيل ، وكانت له مكانة كبيرة ، حيــث كــان خازنا من خزان الجنة ، ومن أشراف الملائكة ، وله سلطان الســماء الدنــيا ، وكــان من المجتهدين في العبادة ، ومن أولى الأجنحة الأربعة .

وكانــت الجــن قــد استوطنت الأرض قبل خلق آدم ، وأفسدوا فيها ، وســفكوا الدماء ، وكفروا بالمولى عز وجل ، فأمر سبحانه جندًا من ملائكة الســماء الدنــيا بقيادة إبليس بالهبوط إلى الأرض ، وقتال هؤلاء المفسدين ، فأجلوهم عن الأرض ، وألجؤهم إلى التخوم ، وجزائر البحور ، واستقر إبليس وجنده في الأرض ، وضمها إلى سلطانه ونفوذه بأمر المولى عز وجل (٣).

= رقم ٥٣١٤ ، ابن كثير : البداية ١/٥٤، ٥٥ ، القرماني : أخبار الدول ١ /١٥.

(١) آية ٢٧ سورة الحجر .

(٢) مــن الآية ٥٠ سورة الكهف ، الطبري : جامع البيان في تأويل القرآن ١٧/ ٩٩ ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، مؤسسة الرسالة ، ط١ ، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م ، ابن عاشور : التحرير ١/ ٢٢٩ .

(٣) الطبري : تاريخ الرسل ١/ ٨١ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٨ ؛ جامع البيان ١/ ٤٥٠ ، ابــن قتيــبة : المعارف ص ١٤ ، ١٥ ، المقدسي : البدء والتاريخ ٢/ ٨٨ ابن كثير : البداية والنهاية ١/ ٥٥ ، ٧٤ .

لا مـــراء في أن هذه المكانة المرموقة التي نالها إبليس ، قد حركت كوامن الشر والإفساد في نفسه ، تلك التي كانت منطوية وخامدة قبل ذلك ، فاغـــتر في نفسه قائلا : لقد صنعت شيئا لم يصنعه أحد قبلي ، وقال : ما أعطاني الله هذا إلا لمزية لي على الملائكة كافة ، ووقع الكبر في صدره ، ورأى أن له بذلـــك الفضل على المولى عز وجل ، الذي اطلع على ذلك ، ولم تطلع عليه الملائكة ، الذين كانوا معه ، وكان من الطبيعي أن يعلن هذا الملعون عصيانه للمولى – عز وجل – عند أول أمر للمولى له ، وهذا ما كان عندما أمره بالسجود لآدم [١].

واخـــتلف المفسرون والمؤرخون حول طبيعة إبليس ، وهل هو من الملائكة أم من الجن ؟ إلى أقوال ثلاثة :

الرأي الأول : يقول:بأنه من الملائكة ، واستدلوا على ذلك بقوله:﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ** ﴾[٢]. فهو استثناء متصل ، مما يفيد أن المستثنى من جنس المستثنى منه [٣] ، وقال عبد الله ابن عباس : إن إبليس كان من أشراف الملائكة ، ثم أُبلس وعصى الله ، فغضب عليه ، ولعنه ، وجعله شيطانا ، بل وقال قتادة : إنه كان من أفضل صف من الملائكة ، وهم الذين يقال لهم : الجِنّة [٤].

الـرأي الثـاني : يقـــول:إنه من الجن ، ولا صلة له بالملائكة ، لقوله

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل ١/ ٨٤ ، ٨٥ ، ابن كثير : البداية ١ / ٥٥ .

(٢) من الآية ٣٤ سورة البقرة .

(٣) القرماني : أخبار الدول ١ / ١٨ .

(٤) القرطبي : الجامع ١ / ٢٩٤ .

تعـــالى : ﴿ **إلا إبليسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ** ﴾ [(١)] ، وقوله تعـــالى فـــي حـــق الملائكـــة : ﴿ **لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَـــرُونَ** ﴾ [(٢)]. إذ لو كان من الملائكة ما رفض أمر المولى له بالسجود لآدم [(٣)].

لم يستكن أصحاب الرأى الأول لهذه الأدلة وقالوا : بأن إبليس كان من خـــزان الجنة ، ورئيس ملائكة السماء الدنيا ، ومن أشد الملائكة اجتهاد ، وأكـــثرهم علما ، مما زاده تيها وشرفا ، ودعاه إلى الكفر ، فعصى الله ، فمســـخه شيطانا رجيما ، ويرد أصحاب هذا الرأى على أدلة الفريق الثانى بثـــبوت النص في صف إبليس بأنه من الجن في قوله تعالى : ﴿ **كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ** ﴾ [(٤)]. بأن الملائكة قد تسمى أحيانا جِنَّة ، كما ورد فـــي قولـــه تعالى : ﴿ **وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا** ﴾ [(٥)]. كما أن الملائكة قد تسمى جنّا : لاستتارها عن الأعين [(٦)].

الرأى الثالث : يقول بأن إبليس ليس من الملائكة ، ولا من الجن ، بل هو خلق خلقه الله من النار ، كما خلق آدم من الطين [(٧)].

لا جـــرم فـــي أن هـــذا الرأي يلقى قبولا في النفس ، إذ فيه الأخذ

---

(١) من الآية : ٥٠ سورة الكهف .

(٢) من الآية ٦ سورة التحريـــم .

(٣) القرطبي : الجامع ١/ ٢٩٥ ، القرماني : أخبار الدول ١/ ١٨ .

(٤) من الآية ٥٠ سورة الكهف .

(٥) من الآية ١٥٨ سورة الصافات .

(٦) القرطبي : الجامع ١ / ٢٩٥ .

(٧) القرماني : أخبار الدول ١ / ١٨ .

بظواهـر الآيـات التـي تصـف إبليس بالجنية ، وتنأى به عن الاتصال بالملائكـة ، على الرغم من عبادته وتبتله لله قبل بدور المعصية منه عند الأمر بالسجود لآدم .

محاورة المولى للملائكة بشأن الخليفة

بعد أن علم المولى – عز وجل – ما أضمره إبليس في نفسه من العتو والفسـاد ، إثر تفضيل المولى له ، ومنحه حكم السماء الدنيا ، وقول هذا الملعـون ما أعطاني الله هذا إلا لمزية لي على الملائكة ، خاطب المولى ملائكته قائلا : ﴿ **إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً** ﴾[١]. واختلف المفسرون حول هذا الخطاب هل كان قبل خلق آدم ؟،أم بعد خلقه وبث الروح فيه ؟، والذي أميل إليه أنه كان قبل خلق آدم ، ووجه المولى هذا الخطاب للملائكة علـى جهة الإخبار ليسوقهم إلى معرفة فصل هذا الخليفة ، وليزيل ما في نفوسهم من سوء الظن بهذا الجنس البشرى ، وليكون كالاستشارة في قالب تكريم [٢].

والخليفة المراد به آدم وذريته ، وسمى بذلك لأنه خليفة الله في أرضه ، لإقامة أحكامه ، وتنفيذ وصاياه ، أو لأنه خلف الجن الذين كانوا يعيشون على الأرض قبله ، أو لأنه يخلف بعضهم بعضا ، فالأبناء يخلفون الآباء ، أو يخلـف كـل قرن منهم الذي سلف ، والراجح الأول ، وهو خلافة آدم للمولـى عز وجل في إعمار الأرض ، إذ هو مناط الخلق ، والحكمة من الاستخلاف [٣].

---

(١) من الآية ٣٠ سورة البقرة ، الطبري : الجامع ١/ ٤٥٨ ، ٤٥٩ ،

(٢) ابن عاشور : التحرير ١ / ٢٠٩ .

(٣) الطـبري : جامع البيان ١/ ٤٥١ ، البغوي (أبو محمد الحسن بن مسعود =

قالت الملائكة للمولى – عز وجل – : ﴿ **أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء** ﴾ [(١)]. استفهام حقيقي متضمن معنى التعجب والاستبعاد ، مـع التماسهم ما يزيل إنكارهم ، لأنهم مفطورون على الصدق ، وعلمت الملائكـة بوقوع الفساد من هذا الخليفة لوصف المولى له ، أو توقعهم أنه سـيبدر منه فساد في الأرض ، أو لأن الملائكة علمت ورأت ما كان من إفسـاد الجن ، وسفكهم للدماء قبل ذلك ، فقاسوا الشاهد على الغائب ، أو لأن المولـى أعلمهـم أن هـذا الخليفة سيكون من ذريته قوم يفسدون في الأرض ، ويسـفكون الدمـاء ، فقـالوا مقالتهم على سبيل التعجب من أن يسـتخلف الله مـن يعصـيه ويفسـد فـي الأرض ، مع أن مراد الله من الاستخلاف هو صلاح الأرض وعمرانها [(٢)].

أدرك الملائكـة أن استفهامهم هذا قد يسخط المولى عليهم ، فبادروا إلى الاعتذار قائلين : ﴿ **وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ** ﴾[(٣)] أي نفوض الأمر إليك ، ونتهم أنفسنا فيما تحدثنا به من الفساد وسفك الدماء ، ونسبح لك ، ونثني عليك بالقدس والطهارة ، أو يكون المراد من قولهم التعريض

= ت٥١٦هـ) : معـالم التـنزيل ١/ ٧٩ ، حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر ، وعثمان جمعة ضميرية ، وسليمان مسلم الحرش ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، ط٤ ، ١٤٤٧هـ/ ١٩٩٧م ، ابن عاشور : التحرير ١/ ٢٠٨ .

(١) من الآية ٣٠ سورة البقرة .

(٢) القرطبـي : الجـامع ١/ ٢٧٤ ، البـغوي : معـالم التنزيل ١/ ٧٩ ، ابن عاشور : التحرير ١/ ٢٠٩ – ٢١٢ .

(٣) من الآية ٣٠ سورة البقرة .

بأنهم أولى بالاستخلاف ممن يتوقع منه الفساد وهو آدم [١].

أجـاب المولـى ملائكته قائلا : ﴿ **إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ** ﴾ [٢]من إضـمار إبليس الفساد والمعصية ، ورفضه الخضوع لي ، فاستخلف هذا الخليفة في الأرض بدلا من إبليس وأعوانه ، أو أعلم أن فيمن استخلفه في الأرض سـيكون أنبياء وأولياء وعلماء ، وسيكون من ذريته من يعبدني ، ويطيعني ، فله الجنة ، ومن يذنبون فاغفر لهم [٣]. وكان ذلك إيذانا بإنهاء المحـاورة بيـن الله وملائكته بشأن الخليفة المنتظر ، وإقامة الحجة على الملائكـة ، بأن سعة علم الله تحيط بما لم يحط به علمهم ، وأنه حين أراد أن يجعل آدم خليفة كانت إرادته عن علم بأنه أهل للخلافة [٤].

خلق آدم ومراحله :

آدم هـو أبـو البشر باتفاق جميع البشر كلها إلا شذوذا من أصحاب النزعات الإلحادية ، وهو اسم عربي ، وكنيته أبو محمد ، وسمي آدم بهذا الاسم لأنه خلق من أديم الأرض : وهو وجهها ، أو لأنه مشتق من الأدمة وهـي : سـمرة اللـون ، كما سمي إنسانا : لأنه كما قال تعالى عهد إليه فنسي[٥].

---

(١) البغوي : معالم التنزيل ١/ ٧٩ ، ابن عاشور : التحرير ١/ ٢١٢ ، ٢١٣ .

(٢) من الآية ٣٠ سورة البقرة .

(٣) القرطبي : الجامع ١/ ٢٧٨ ، البغوي : معالم التنزيل ١/ ٧٩ .

(٤) ابن عاشور : التحرير ١/ ٢١٤ .

(٥) الطـبري : جامع البيان ١٧/ ٩٦ ، المقدسي : البدء والتاريخ ٢/ ٨٢ ، ابن كثـير : البداية والنهاية ١/ ٩٩ ، القرماني : أخبار الدول ١/ ٤٣ ، ابن عاشور : التحرير والتنوير ٣/ ٨٨ ، ٥/ ٢٣٨ .

ولما أراد الله – تعالى – خلق آدم بعث جبريل – عليه السلام – إلى الأرض لـيأته بطين منها ، فقالت الأرض : إنى أعوذ بك أن تنقص منى شيئا أو تشينني ، فرجع ولم يأخذ ، وقال : يا رب إنها عاذت بك فأعذتها ، فبعث ميكائيل ، فعاذت منه ، فأعاذها ، فرجع فقال كما قال جبريل ، فبعث المولى ملك الموت ، فعاذت الأرض منه ، فقال لها : وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره ، فأخذ من وجه الأرض،وخلط ملك الموت ولم يأخذ من مكان واحد ، فأخذ من تربة حمراء ، وبيضاء ، وسوداء ، ولذلك خرج بنو آدم مختلفين في ألوان بشرتهم [١] ، وروى عن النبى ﷺ أنه قال: **(إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، جاء منهم الأحمر ، والأسود ، والأبيض ،وبين ذلك ، والسهل ، والحزن ، والخبيث ، والطيب)** [٢].

وهكذا كانت بداية الخليقة من قبضة من تراب ، وضعت بين يدى باريها ، واختلطت بالماء حتى صارت طينا لازبا جيدا ، ثم تركت حينا حتى صارت حمأ مسنونا ، أى طينا أسود ، ثم تركت حتى يبست وصارت صلصالا لم يحترق ، وإن دق عليه سمعت له صلصله [٣]. فتلك مراحل خلقه التي ورت في غير آية من القرآن الكريم منها :﴿ **إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ**

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل ١/ ٩٠ ، المقدسي : البدء ٢/ ٨٢ .

(٢) أخرجه ابن داود في سننه في كتاب السنة ، باب القدر ، حديث رقم ٤٠٧٣ ، الطبري : تاريخ الرسل ١/ ٩١ .

(٣) الطبري : جامع البيان ١٧/ ٩٥ – ٩٧ ، القرطبي : الجامع ٢١/١٠ ، ابن عاشور : التحرير ١١/ ١٦٤ .

اللّــه كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [١]. وقوله : ﴿ **وَبَدَأَ خَلْقَ الانسَانِ مِن طِينٍ** ﴾ [٢]. وقوله : ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ** ﴾ [٣].

لا مـــراء فـــي أن الحكمة من ذكر مراحل خلق آدم هو التنبيه على عجيـــب صنع الله – تعالى – الذي أخرج من هذه المواد المهينة نوعا هو ســيد الأرض ، كمـــا فـــيه إشارة إلى الأطوار التي مرت على مادة خلق الإنسان [٤] ولو شاء الله لخلقه بقوله كن فيكون ، كما أن نسبة الخلق إلى الله وإلى يديه فيها تكرمة وتعظيما لآدم [٥].

اكتمل خلق آدم فظل ملقيا على الأرض أربعين ليلة وقيل سنة ، يأتيه إبلـــيس فيضــــربه بقدميه فيصلصل ، ويقول له : لأمر ما خلقت ، ويقول للملائكـــة : لا ترهبوا من هذا ، فإنه أجوف ، وربكم صمد ، ولئن سلطت عليه لأهلكنه ، ولئن سلط علي لأعصينه [٦].

ثـــم حانت اللحظة العظيمة في تاريخ البشرية وفي حياة آدم ، حيث نبه المولى ملائكته إلى امتثال الأمر بالسجود لآدم فور النفخ فيه من الذات العلـــية حيث قال تعالى : ﴿ **فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ**

---

(١) آية ٥٩ سورة آل عمران .

(٢) من الآية ٧ سورة السجـــدة .

(٣) آية ٢٦ سورة الحجـــر .

(٤) ابن عاشور : التحرير ٧ / ٤٧٥ .

(٥) المقدسي : البدء والتاريخ ٢/ ٨٢ ، ٨٤ .

(٦) الطبري : تاريخ الرسل ١/ ٩٢ ، ٩٣ .

سَاجِدِينَ ﴾ [١]. ويروى عبد الله بن مسعود (رضى الله عنه) أنه لما نفخ فيه الروح دخل الروح من رأسه فعطس ، فقالت له الملائكة : قل الحمد لله ، فقـــال : الحمد لله ، فقال الله – عز وجل – له :رحمك ربك ، فلما دخـــل الروح إلى عينيه نظر إلى ثمار الجنة ، فلما دخل في جوفه اشتهي الطعـــام ، فوثب قبل أن تبلغ الروح رجليه عجلان إلى ثمار الجنة ، فذلك قوله : ﴿ **خُلِقَ الانسَانُ مِنْ عَجَلٍ** ﴾ [٢].

ثـــم بادر الملائكة جميعهم بالسجود لآدم ، ملبين الأمر الإلهي بذلك ، حيث قال تعالى ﴿ **فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ** ﴾ [٣]. وكان خلق آدم في السماء على أرجح الأقوال ، وأتم الله خلقه ، ونفخ الروح فيه في آخر ساعة من يوم الجمعة وذلك قوله : ﴿ **هَلْ أَتَى عَلَى الانسَانِ حِينٌ مِّـــنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا** ﴾ [٤]. وكان آدم كالنخلة السحوق ستين ذراعا في سبعة أذرع ، أجمل البرية ، أمرد اللحية كثير الشعر في بدنه ، جعدا آدما [٥].

آدم أبو البشر وفساد نظرية داروين

على الرغم من أن نصوص وظواهر الآيات القرآنية ، المتعلقة ببدء الخلـــق ، تشـــير إلى أن آدم هو أول إنسان بشرى يسكن الأرض ، إلا أن

---

(١) آية ٢٩ سورة الحجـــر .

(٢) من الآية ٣٧ سورة الأنبياء ، الطبري : تاريخ الرسل ١/ ٩٤ .

(٣) من الآية ١١ سورة الأعراف .

(٤) آية ١ سورة الإنسان .

(٥) ابن كثير : البداية ١/ ٩٠ ، ٩٣ ، المقدسي : البدء والتاريخ ٢/ ٨٤ ، ٩٩ ، القرماني : أخبار الدول ١/ ٤٣ .

هناك بعض الآراء القديمة والحديثة التي تقول بأنه : لم يكن أول البشر الذين خلقهم الله على ظهر الأرض ، وأنه ما ظهر بصورته البشرية إلا بعد أن مر بمراحل من التطور ، حتى ارتقى ، فكان إنسانا بشرا مكلفا من قبل الله تعالى .

فيقول بعض الفلاسفة القدامى : إن آدم ما هو إلا حيوان تولد من رطوبة الأرض ، كما يتولد الهوام ، وكان له جلد كقشر السمك ، ثم لما دار عليه الزمان جف عنه وسقط ، ويضيف آخر إلى أنه لم يظهر مكتملا دفعة واحدة ، وإنما ظهر شيئا فشيئا ، ثم اكتملت أعضاؤه ، واتصلت بمرور الزمان ، حتى صار إنسانا سويا ، ويقول ثالث : إن الفلك لما دار على استقامته ظهرت البهائم ، ثم دار على أعدل من ذلك فظهر القرد ، وكاد يكون إنسانا ، ولا شيء أشبه به منه ، ثم دار على غاية العدل فظهر الإنسان (١).

لا جرم أن هذه الأفكار القديمة البالية قد لاقت قبولا من بعض المحدثين ، الذين تلقفوها ، وأخرجوا منها نظرية حديثه تدعى (النشوء والتطور) ، وكان الذي تولى كبرها هو أحد الأوربيين اليهود ويدعى (دارون) ، والذي يقول إن الإنسان أصله قرد ، ثم تطور مع مرور الأزمان حتى صار إنسانا سويا ، فهو ينكر أن آدم أبو البشر ، خلقه الله بيده ، وقال له كن فيكون (٢).

وهذه النظرية لا أساس لها من الصحة ، ولا يقبلها عقل ، ولا يقرها شرع ،وبعيدة عن المنطق السليم ، فالحيوانات بأنواعها المختلفة تعيش

---

(١) المقدسي : البدء والتاريخ ٢/ ٧٦ .

(٢) عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء ص ١٢ – ١٤ .

على ظهر الأرض ، ويحتفظ كل منها بخواصه المميزة دون أن يطغي نوع على آخر ، أو يسلبه مميزاته ، والقردة التي اكتشف الجيولوجيون هياكلها قبيل العصور التاريخية ، هي القردة التي تعيش إلى يومنا هذا ، كما أن الهياكل البشرية التي عثر عليها مطمورة في الثلوج ، وأرجعوها إلى مئات السنين ، لا تختلف أبدا عن هياكل البشر في كل العصور والأزمنة [(١)].

وقد ظهرت بعد نظرية دارون العديد من النظريات التي تخالفه ، وتناقضه ، منها واحدة لعالم ألماني يقول فيها : إن القرد إنسان متقهقر ، وهي عكس نظرية دارون ، وقد جعل هذا العالم نفس أدلة دارون وبراهينه أدلة وبراهين على صحة نظريته [(٢)].

ومن ذلك نرى أن نظرية دارون ، ومن سار في فلكه من أن أصل الإنسان قرد تمدن وارتقى عبر القرون وهم باطل ، وزيف واضح ، لا يمت إلى الحقيقة بصلة ، وهي تناقض صريح القرآن الكريم ، وما جاء في الكتب السماوية الأخرى [(٣)].

وقد افترض أحد العلماء المحدثين جدلاً صحة نظرية دارون ، وبنى عليها مقدمة ، ليخرج بنتيجة ، تحتم وتبرز فساد نظرية دارون ، إذا افترض أن الحياة على الكوكب الأرضي قضى عليها بزلزال ونحوه ، وفنى الجنس البشري بتمامه ، فهل يتصور أن القردة تهب لعمران الأرض كما عمرها الإنسان ، ويخرج من بين القردة علماء ، ومصلحون ،

---

(١) السيد محمد يونس : تاريخ الأنبياء ص ٤٥ ، ط١ ، بدون دار نشر ، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٤م .

(٢) عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء ص ١٥ .

(٣) السيد محمد يونس : تاريخ الأنبياء ص ٤٥ .

وعباقرة و ومخترعون ، وذلك محال ، بل ستبقى القردة كما هي ، ولا تلد القردة إلا قردة مثلها [١].

كما ظهرت نظرية أخرى حديثا تقول : إن آدم لم يكن أول البشر ، بل سبقته أوادم أخرى ، ويستأنس هؤلاء بقول الملائكة لربهم (**أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء**) [٢]. وأن الملائكة لم يقولوا ذلك إلا لرؤيتهم من تقدموا آدم من الخلق الذين على صورته قد فعلوا ذلك ، وأن آدم إنما كان خليفة عن بشر كانوا من جنسه وبادوا ، ويعزز أصحاب هذا الرأى أقوالهم بما اكتشفه علماء الجيولوجيا من وجود بقايا عظام لآدميين تخالف عظام الآدميين الموجودين الآن ، ويرجع تاريخ وجودها إلى أزمان كثيرة ، تعد بعشرات الآلاف ، ومئات الآلاف من السنين [٣].

والعقل لا يجعل من المحال أن يكون الله خلق بشرا غير آدم هذا[٤]. وقد تبنى الدكتور عبد الصبور شاهين هذا الرأى ، ودافع عنه في كتابه (أبى البشر) .

وعقب سجود الملائكة لآدم تبرز على بساط البحث لدينا قضيتان : الأولى طبيعة سجود الملائكة لآدم ، والثانية موقف إبليس من الأمر بالسجود لآدم ، فإليك بيان ذلك :

سجود الملائكة لآدم

اختلفت آراء العلماء حول السبب الذي دفع المولى أن يأمر ملائكته

---

(١) عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء ص ١٥ ، ١٦ .

(٢) من الآية ٣٠ سورة البقرة .

(٣) عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء ص ١١ ، ١٢ .

(٤) المرجع السابق ص ١١ .

بالسـجود لآدم ، فقال بعضهم : إن الله – تعالى – لما قال : ﴿ **إِنِّي جَاعِلٌ فِـي الأَرْضِ خَلِيفَةً** ﴾[١]. قالت الملائكة :لن يجعل الله خلقا أعلم منا ، ولا أكـرم علـيه منا ، فابتلوا بالسجود لآدم عقابا لهم [٢] ، وقال آخر : إنهم استعظموا أنفسهم لتسبيحهم المولى وتقديسه ، فأمرهم الله بالسجود لغيره ، لـيريهم اسـتغناؤه عنهم ، وعن عبادتهم [٣]. وقيل : أمروا بالسجود لآدم لفضل علمه ، أو لحمله الروح من المولى – عز وجل – ، أو لأنه لم يكن في الخلق أحسن ولا أكمل ولا أفضل منه [٤].

والـذي أميل إليه هو الرأى الأول ، وهو أن الأمر بالسجود لآدم كان ابتلاء للملائكة ، لمظنتهم أن الله لن يخلق خلقا أعلم منهم .

وكيفما كان الأمر فقد كان الأمر بالسجود لجميع الملائكة على أرجح الأقوال ، وبادر جميعهم بالسجود ، بدليل قوله تعالى : ﴿ **فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ** ﴾ [٥]، وأول من سجد منهم إسرافيل – عليه السلام – فأثابه المولى – عز وجل – بأن كتب القرآن على جبهته ، وتيقن الملائكة وعلموا من الأمر بالسجود أن ادم خير وأكرم منهم عند الله – عز وجل – [٦].

---

(١) من الآية ٣٠ سورة البقرة .

(٢) ابـن كثير : البداية والنهاية ١/ ٧٢ ، المقدسي : البدء والتاريخ ٢/ ٨٧ ، ٨٩ ، القرطبي : الجامع ١/ ٢٩٢ .

(٣) القرطبي : الجامع ١/ ٢٩٢ .

(٤) المقدسي : البدء والتاريخ ٢/ ٨٩ ، ابن عاشور : التحرير ١/ ٢٢٧ .

(٥) آية ٣٠ سورة الحجر .

(٦) ابـن الأثير (عز الدين أبو الحسن على ت ٦٣٠هـ) : الكامل في التاريخ ١/ ٣١ ، دار صادر ، بيروت ،د ط ، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م ، ابن كثير : =

وكمـــا اختلف العلماء والمفسرون حول أسباب سجود الملائكة لآدم ، فقـــد اختلفوا كذلك حول طبيعة هذا السجود ، وهل كان سجودا حقيقيا، أم مجازيـــا ؟؛والمتفق عليه بينهم أنه لم يكن سجود عبادة ، وإنما كان سجود تحية ، ولكن كما قلت:اختلفوا في كيفية أدائه [١].

فقال القرطبي[٢] : إنـــه كان سجودا حقيقيا ، كسجود الصلاة ، حيث أمروا بالسجود له كسجود المسلمين إلى القبلة ، وإن كان المراد لله تعالى ، كما قص علينا القرآن الكريم .

وقال آخرون: إن سجود الملائكة لآدم كان سجود تعظيم ، وتحية بالانحناء والإيمـــاء ، ووضع اليد على الصدر ، ولم يكن بوضع الوجه على الأرض ، كســـجود إخـــوة يوســـف له في قوله : ﴿ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا ﴾ [٣]. ولما جاء الإسلام أبطل هذا النوع من التحية وأحل محلها السلام [٤].

وهذا السجود سواء أكان حقيقيا أم مجازيا لا يتنافى مع تحريم السجود لغير الله – تعالى – كما جاء به الإسلام لما يلي :

أ – أن هذا إخبار عن العالم العلوي ، ولا تقاس أحكامه على تكاليف عالم الدنيا ، ولأنه من أمر المولى ، فليس داخلا تحت تكاليف أهل الأرض

= البداية ١/ ٧٤ ، ٨٨ ، القرماني : أخبار الدول ١/ ٤٦ .

(١) القرطبي : الجامع ١/ ٤٩٣ .

(٢) الجـــامع لأحكـــام القـــرآن ١/ ٤٩٣ ، المقدسي : البدء والتاريخ ٢/ ٨٨ ، القرماني : أخبار الدول ١/ ٤٧ .

(٣) من الآية ١٠٠ سورة يوسف .

(٤) القرطبي : الجامع ١/ ٤٩٣ ، البغوي : معالم التنزيل ١/ ٨١ ، القرماني : أخبار الدول ١/ ٤٧ .

٢ – أن شـــريعة الإســـلام جاءت بالكمال ، وبما لم يأت في الشرائع السابقة ، حيث لم يكن – كما قلت – السجود لغير الله محظورا قبل ذلك ، بدلـــيل سجود إخوة يوسف له ، وكانوا أهل إيمان ، فكان شرعنا ناسخ لما قبله [(١)].

تعليم آدم الأسماء

ومـمـــا يرتبط أيضا بقضية سجود الملائكة لآدم ، تعليم المولى – عز وجـــل – الأسماء لآدم ، حيث يروى أن الملائكة قالت عقب إخبار المولى لهم بجعل خليفة في الأرض : ليخلق ربنا ما يشاء ، فلن يخلق خلقاً إلا كنا أكـــرم على الله منه وأعلم ، فلما خلق آدم ، وأمرهم المولى بالسجود له ، علموا أنه خير منهم وأكرم على الله منهم ، فقالوا : إن يك خيرا منا وأكرم على الله فنحن أعلم منه ، لأنا خلقنا قبله ، ورأينا ما لم يره ، فلما أعجبوا بعلمهم ، ابتلاهم المولى – عز وجل – مرة أخرى بتعليم آدم الأسماء كلها ، ليقروا بالعجز أمام آدم ، كما ابتلاهم آنفا بالسجود له[(٢)].

فعلّـــم المولـــى – عز وجل – آدم جميع الأسماء التي رآها والتي لم يـــرها ، وقيل بل أسماء ما كان وما يكون إلى يوم القيامة ، حتى القصعة والقصيعة، بل وقيل علمه أسماء اللغات ، والملائكة، وذريته [(٣)] فذلك قوله : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ﴾ [(٤)].

وتلقـــى آدم هـــذا العلـــم إما بالتلقين من المولى – عز وجل – ، أو

---

(١) ابن عاشور : التحرير ١/ ٢٢٨ ، ٧ / ٤٧٧ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ١/ ٣١ ، البغوي : معالم التنزيل ١/ ٨١ .

(٣) البغوي : معالم التنزيل ١/ ٨٠ .

(٤) من الآية ٣١ سورة البقرة .

بالإلهـام ، أو بالاستدلال والاجتهاد ، فاستدل بالآثار على المراد من المسميات ، واستحق بذلك آدم شرف الرتبة العلية لاجتهاده [١].

ثم عرض المولى هذه المسميات على الملائكة ، طالبا منهم تسميتها ، إن كانوا صادقين فيما ادعوه ، من أن الله لن يخلق خلقا إلا وهم أفضل منه وأعلم ، أو فيما نسبوه لآدم من عدم جدارته بخلافة المولى – عز وجل – في أعمار الأرض[٢]. وذلك قوله : ﴿ **ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾[٣].

وهنا بادر الملائكة إلى الاعتذار ، وإظهار العجز عن ذلك ، وأنهم لا يحيطون بشيء من علمه ، إلا ما علمهم إياه ، وأظهروا ذلك في ثوب التذلل والخضوع للذات العلية[٤]. وذلك قوله : ﴿ **قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ** ﴾[٥].

فأمر المولى – عز وجل – آدم أن يخبرهم بأسماء المسميات ، والحكمة التي لأجلها خلق كل منها وبذلك أقام المولى الحجة على الملائكة في صلاحية آدم وأحقيته في عمران الأرض ، وأنه – عز وجل – يعلم ما بدى منهم ، من اتهام آدم بالفساد وسفك الدماء ، وما كتموه من قولهم لن يخلق الله خلقا أكرم عليه منا ، وقيل بل ما كتمه إبليس اللعين الذي اضمر المعصية لله ، ورفض السجود لآدم إن أمر به [٦] ، فذلك قوله : ﴿ **قَالَ يَا**

---

(١) المقدسي : البدء والتاريخ ٢/ ٩٣ ، ابن عاشور : التحرير والتنوير ١/ ٢١٧ .

(٢) البغوي : معالم التنزيل ١/ ٨٠ ابن عاشور : التحرير ١/ ٢١٩ .

(٣) من الآية ٣١ سورة البقرة .

(٤) البغوي : معالم التنزيل ١/ ٨٠ ، ابن عاشور : التحرير ١/ ٢٢١ .

(٥) الآية ٣٢ سورة البقرة .

(٦) البغوي : معالم التنزيل ١/ ٨٠ ، ٨١ ، ابن عاشور: التحرير والتنوير ١/ ٢٢١ .

آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (١).

امتناع إبليس عن السجود لآدم

ذكرنا أن المولى – عز وجل – قد أمر الملائكة ومن حضر معهم بالسجود لآدم فور نفخ الروح فيه ، فلبى جميع الملائكة الأمر الإلهي بالسجود ، إلا إبليس الذي كان مختلطا بهم ، ومعدودا فيهم ، حيث امتنع عن السجود ، وجاهر بما كان قد أضمره من عدم السجود لآدم إن أمر بذلك (٢). حيث قال تعالى : ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾(٣).وقال تعالى : ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ (٤) .

لم يسارع المولى – عز وجل – بإنزال العقوبة بإبليس اللعين فور رفضه الأمر ، بل طلب منه المولى تعليل عدم السجود لآدم ، الذي خلقه الله بيده ، وسجد له الملائكة أجمعون ، وهل منعه من ذلك الاستكبار ، أم إحساسه بعلو رتبته عن آدم (٥) ، حيث قال تعالى : ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ (٦). وهذا من عظيم رحمة المولى – عز وجل – ، إذ يستمع لحجة هذا الملعون ، على الرغم من عصيانه ، وخروجه على أوامره ، الأمر الذي يقتضي

---

(١) الآية ٣٣ سورة البقرة .

(٢) ابن عاشور : التحرير والتنوير ٥/ ٢٣٩ .

(٣) من الآية ١١ سورة الأعراف .

(٤) الآية ٣١ سورة الحجر .

(٥) البغوي : معالم التنزيل ٧ / ١٠٢ .

(٦) آية ٧٥ سورة ص .

كفره وضلاله ، وخلوده في جهنم وبئس المصير .

استمر إبليس في عناده وضلاله ، وبرر عدم سجوده بأن آدم خلق من طين ، وأما هو فخلق من نار ، وهي أفضل لعلوها ، وصعودها على الطين ، وقوتها [1]. حيث قال تعالى : ﴿ **قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ** ﴾ [2] ، ويقول عبد الله ابن عباس تعليقا على موقف إبليس هذا : (أول من قاس إبليس فأخطأ القياس ، فمن قاس الدين بشيء من رأيه قرنه الله مع إبليس) ، وقال ابن سرين : (ما عبدت الشمس إلا بالقياس) [3] ، ولا جرم في أن قياس إبليس باطل من عدة أوجه كما قال العلماء لما يلي :

١ – أنه قياس مع وجود نص.

٢ – أنه برهن على إعجابه بنفسه وتكبره ، والقول على الله بلا علم .

٣ – أنه كذب في تفضيل مادة النار على مادة الطين ، لأن الأخيرة فيها الخشوع والسكون والنار فيها الخفة والطيش [4].

كان من الضروري أن يلقى إبليس جزاءه جراء سفهه وعصيانه ، فأمره المولى بالخروج من رحمته ، ومن جنته ، ومن سمائه ، بل ومن خلقته النارية تلك التي افتخر بها وتكبر عن السجود لآدم ، فغيَّر الله خلقته ، فاسود ، وقَبُحَ بعد حسنه ، ولم يكن عقاب المولى لإبليس بسبب تركه السجود ، بل كان لعصيان أمر المولى – عز وجل – ، وفقد إبليس كل ما

---

(١) البغوي : معالم التنزيل ١ / ٢١٧ .

(٢) من الآية ١٢ سورة الأعراف .

(٣) البغوي : معالم التنزيل ١/ ٢١٧ ، ابن كثير : البداية ١ / ٧٣ .

(٤) ابن كثير : البداية ١ / ٧٣ .

كان يتمتع به قبل ذلك ، خاصة مخاطبة المولى له بلا واسطة، إذ بمعصيته لـــم يعد أهلا لهذه المكانة العالية ، بل خرج من رضوان الله إلى سخطه ، ومن جنته إلى ناره ، وإن كانت بعد حين(١) .

وحسبنا دليلا على ندم إبليس على ما ارتكبه من معصية لله ما رواه الرســـول ﷺ حيــث قـــال : (**إذا قرأ ابن آدم السجدة ، فسجد ،اعتزل الشيطان يبكي يقول : يا ويله أمر ابن آدم بالسجود فسجد ، فله الجنة ، وأمرت بالسجود ، فأبيت ، فلى النار**) (٢).

وقـــد يقـــول قائل : إن إبليس لم يكن من الملائكة ، فهو غير مأمور بالسجود لآدم ، فكيف يعاقب على مخالفة أمر لم يوجه إليه ؟

والجواب : أن إبليس لو لم يكن مأمورا لقال لله : إنك لم تأمرني حين قـــال الله له : ﴿ **مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ** ﴾(٣) ، ولكنه كما أوضحنا أظهـــر التكبر ، ولم ينف الأمر، فدل هذا على أنه كان مأمورا ، وإنه وإن كـــان من غير الملائكة ، ولكن الله تعالى قد أمر الشاهدين لنفخ الروح في آدم بالســـجود ، وإبليس كان حاضرا ، وإنما عبر الله بالملائكة لأنهم كانوا الجمهور الأعظم في الحاضرين ، وإبليس كفرد يدخل فيهم ، وإن كان غير ملك ، وليس لأحد أن يكون أقوم بحجة إبليس من إبليس نفسه(٤) .

وهـــناك رأي آخر يقول : بأن في الملائكة صنفا يقال لهم الجن كما

---

(١) البغوي : معالم التنزيل ٧ / ١٠٢ ، ابن عاشور : التحرير ٥٤٢/٥ ، ١٢ / ٢٦١ .

(٢) أخرجه مسلم في سننه في كتاب الإيمان ، باب بيان إطلاق اسم الكفرة على من ترك الصلاة ، حديث رقم ١١٥ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١/ ٩٣ .

(٣) من الآية ١٢ سورة الأعراف .

(٤) عبد الوهاب ، النجار : قصص الأنبياء ص ٨

أوضحنا ذلك آنفاً ، إذا فلفظ الملائكة يشمل إبليس ، ولا أساس للاعتراض من بابه [١].

دخول آدم الجنة وعصيانه وخروجه منها وتوبة المولى عليه :

هذه مكرمة أخرى أكرم الله بها آدم ، بعد كرامة سجود الملائكة له ، حيث أمره بدخول الجنة ، والسكني فيها ، وفي ذلك إشارة لطيفة إلى أنه مفارقها لا محالة ، إذ هي سكن لا إقامة دائمة ، ولا ملكا ، ولم يكن لآدم في الجنة من يجالسه أو يؤانسه، فخلق له حواء لتفي بهذا الغرض[٢] ، وفي ذلك يقول ابن مسعود وابن عباس : (لما أُسكن آدم الجنة مشى فيها مستوحشا ، فلما نام خلقت حواء من ضلعه الأيسر ، ليسكن إليها ، ويأنس بها ، فلما انتبه رآها ، فقال : من أنت ، قالت : امرأة خلقت من ضلعك لتسكن إلى) [٣].

ولم يرد اسم حواء في القرآن الكريم ، وإنما ورد في حديث شريف رواه ابن سعد في طبقاته أن رسول الله ﷺ قال : (**الناس لآدم وحواء ، كطفّ الصّاع ، لن يملأوه**) وسميت أمنا حواء بهذا الاسم : لأنها خلقت من حي ، خلقها الله من غير أن يحس بها آدم ، أو يجد لها ألما ، وقيل بل

---

(١) عبد الوهاب النجار : قصص النبياء ص ٨ .

(٢) القرطبي : الجامع ١/ ٢٩٩ ، ابن عاشور : التحرير ١/ ٢٣٣ .

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسير سورة البقرة ، قوله : يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، حديث رقم ٣٦٩ ، الطبري : تاريخ الرسل ١/ ١٠٣ ، ١٠٤ ، البغوي : معالم التنزيل ١/ ٨٢ ، القرطبي : الجامع ١/ ٣٠١ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١ / ٧٥ .

لأنها أم كل حي [١].

وأمر الله آدم وزوجه بالتمتع بما في الجنة من نعيم ، وظلال وعيش هنئ ، والأكل من كل ثمار الجنة وشجرها ، إلا شجرة واحدة نهاه عن الأكل منها ، وإنه إن داوم على ذلك فلا جوع ، ولا شقاء ، ولا تعب ، ولا نصب ، ولا عطش ، بل ظل ممدود ، ونعيم دائم [٢]. حيث قال تعالى : ﴿ **وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ** ﴾[٣]. وقال جل شأنه : ﴿ **إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى** ﴾ [٤].

واختلف العلماء في نوع هذه الشجرة ، وهل المنهي عنه جنسها ، أم هي شجرة مخصوصة ، فقال ابن عباس : هي الكرم لذلك حرمت علينا الخمر ، وقيل السنبلة ، وقيل : التين وقيل : شجرة العلم ، وفيها كل شيء ، وقيل : الكافور ، وقيل : الحنطة ، وقيل : بل هي شجرة وحيدة لا مثيل لها [٥].

وكما قال ابن عطية : إنه لم يرد نص يؤكد لنا ماهية هذه الشجرة

---

(١) البغوي : معالم التنزيل ١/ ٨٢ ، ابن عاشور : التحرير ١/ ٢٣٤ .

(٢) القرطبي : الجامع ١/ ٣٠٤ ، البغوي : معالم التنزيل ١/ ٨٢ ، ٥/ ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ابن عاشور : التحرير والتنوير ١/ ٢٣٦ ، ٩ / ١٠٥ .

(٣) آية ٣٥ سورة البقرة .

(٤) الآيتان ١١٨ ، ١١٩ ، سورة طه .

(٥) البغوي : معالم التنزيل ١ / ٨٣ ، القرطبي : الجامع ١/٣٠٥ ، ابن كثير ، البداية ١/٧٥ ، ٧٦ ، ابن عاشور : التحرير ١/٢٣٧ .

والصواب أن نعتقد أن الله نهي آدم عن شجرة ، فخالف هو إليها ، وعصى ربــه في الأكل منها [١]. أو كما قال ابن كثير[٢] : (**وقد أبهم الله ذكرها وتعييــنها ، ولو كان في ذكرها مصلحة تعود إلينا لعينها لنا**) . وأما عن كيفـية تمكــن عدو الله إبليس من خداع آدم وزوجه وإقناعهما بالأكل من الشجرة فهناك روايتان في هذا الأمر .

الأولى : رواها القرطبى ، وهي أن إبليس أضمر العداوة لآدم ، واجتهد في إغوائه بالأكل من الشجرة ،ليطرده من الجنة كما طرد هو ، ولم يتمكن إبلــيس مــن الدخول لآدم في الجنة ، إلا بعد أن عرض إبليس نفسه على العديــد من الحيوانات ، ليدخلوه فيها ، فأبى الجميع إلا الحية ، التي كانت من أحسن دواب الأرض ، ومن ذوات الأربع ، فحملته في فيها ، وأدخلته الجنة من دون أن يعلم به خزنتها ، ثم خرج إبليس من جوفها ، وأخذ من الشجرة التي نهي الله آدم وزوجه عنها ، وأغوى حواء بالأكل منها ، حتى فعلــت ، ثــم أغوى آدم وحواء حتى أكلا منها ، فبدت لهما سوآتهما ، واقترفا الذنب ، الذي حذرهما الله منه[٣].

وهناك رواية أخرى ذكرها الطبري مفادها : أن آدم بعد أن رأى نعيم الجــنة قال : لو أن خلدا لي في الجنة ، فاغتنم إبليس ذلك منه ، وأتاه من قــبل الخلد حيث دخل الجنة ، ووقف بين يديهما وهما لا يعرفانه ، فبكى وناح نياحة أحزنتهما ، فقالا له : ما يبكيك ، قال : أبكــي عليكما ، تموتان

---

(١) القرطبي : الجامع ١ / ٣٠٥ .

(٢) البداية والنهاية ١ / ٧٦ .

(٣) الطــبري : تــاريخ الرسل والملوك ١/ ١٠٨ ، القرطبي : الجامع ١/ ٣١٣ ، البغوي : معالم التنزيل ١/ ٨٣ ، المقدسي : البدء والتاريخ ٢/ ٩٥ .

فتفارقان ما أنتما فيه من النعمة ، فاغتم آدم وحواء ، وفارقهما إبليس ، ثم آتاهمـــا بعد ذلك ، وقال : يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد ، فأبى آدم أن يقـــبل منه ، فأقسم له إبليس أنه لمن الناصحين ، فاغتر آدم وحواء بذلك ، وما ظنا أن أحدا يحلف بالله كاذبا ، فبادرت حواء إلى الأكل من الشجرة ، ثم أعطت آدم حتى أكل ، ووقعا في الذنب[1]، فذلك قوله تعالى: ﴿ **فَوَسْوَسَ لَهُمَـــا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ** ﴾[2]. ، ومما يؤكـــد أن حواء كانت سببا في دفع آدم للأكل من الشجرة ما روى عن النبـــي ﷺ أنه قال : (..... **لولا حواء لم تخن أنثى زوجها**)[3].

وهكذا تمكن عدو الله إبليس من الإيقاع بآدم وزوجه حواء حتى سقطا فـــي معصية الله ، وأكلا من الشجرة ، فكانت العاقبة ملازمة لهما ، حيث يـــروى عن رسول الله ﷺ قوله : (**فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه ، فـــأول مـــا بدا منه عورته ، فلما نظر إلى عورته جعل يشتد في الجنة ، فأخذ شعره شجرة ، فنازعها ، فناداه الرحمن -عز وجل - : يا آدم منى تفر ، فلما سمع كلام الرحمن قال : يارب لا ، ولكن استحياء**)[4].

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل ١/ ١١٠ ، ١١١ ، المقدسي : البدء والتاريخ ٢ / ٩٤ ، البغوي : معالم التنزيل : ١ / ٨٣ .

(٢) الآيتان ١٩ ، ٢٠ سورة الأعراف .

(٣) أخـــرجه الـــبخاري في صحيحه في كتاب أحاديث الأنبياء ، باب خلق آدم وذريته ، حديث رقم ٣٠٨٣ ، ابن كثير : البداية ١/ ٧٩ .

(٤) **أخـــرجه ابن أبي حاتم في تفسيره لسورة البقرة قوله : " فأخرجهما مما =**

وقـيل بل دخل آدم في جوف الشجرة التي أكل منها ، فناداه ربه ألا تخـرج يا آدم ، قال : أستحيي منك يا رب ، قال : اهبط إلى الأرض التي خلقت منها [(١)].

وكيفما كـان الأمر فقد بدت لهما عوراتهما بعد اقترافهما للذنب ، وكانـا قبل ذلـك مسـتورين بثياب من نور ، فأسرع آدم وحواء بجمع الأوراق مـن شجر الجنة ليستترا بها ، وخاطبهما المولى مؤنبا لهما على نسـيان مـا حذرهما منه من عداوة إبليس ، وتربصه بهما ليخرجهما من الجنة ، حتى لا يكون لآدم على إبليس مزية وفضل ، وحتى يتساويان في جرم المعصية لله تعالى[(٢)] ، حيث قال تعالى : ﴿ **فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّـجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَـا رَبُّهُمَـا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ** ﴾ [(٣)].

وهكذا نجح إبليس في إذلال آدم وحواء ، وإغوائهما بالمعصية ، تلك التي ترتب عليها طردهما من الجنة ، وحرمانهما من نعيمها ، فأسرع آدم وحواء باللجوء إلى الله ، والاعتراف بالعصيان ، والإقرار بأن ضر المعصية قد عاد عليهما ، حيث ظلما أنفسهما ، مما جلب لهما غضب الله عليهما ، وما تبعه من عقوبة ، وجر عليهما كشف السوءات ، ومشقة سترها ، وأقرا بالخسران إن لم

= كانا فيه " حديث رقم ٣٨٤ ، ابن كثير : البداية ١/ ٨٠ .

(١) القرطبي : الجامع ١ / ٣١٣ .

(٢) القرطبـي : الجامع ٧ / ١٨١ ، ابن كثير : البداية ١/ ٧٩ ، ابن عاشور : التحرير ٥ / ٢٥٧ .

(٣) الآية ٢٢ سورة الأعراف .

يغفر الله لهما هذا الذنب [١]. فذلك قوله : ﴿ قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [٢].

ويبدو لي أن آدم كان يتوقع عفو المولى عنه ، واستمرار بقائه في الجنة ، ولكن مشيئة الله كانت قد اقتضت خلاف ذلك، حيث أمر المولى آدم وحواء وإبليس والحية بالخروج من الجنة ، بعدما بدر منهم ، ليس هذا فحسب ، بل وضرب المولى العداوة بين آدم وإبليس وذريتهما منذ تلك اللحظة ، وحتى قيام الساعة ، ليبتلى هذا بذاك ، ولتكون الأرض ميدانا لصراعهما ، هما وذريتهما [٣]. فذلك قوله : ﴿ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ [٤].

ويروى الحافظ ابن عساكر عن مجاهد أن الله أمر ملكين أن يخرجا آدم وحواء من جواره في الجنة ، فنزع جبريل التاج عن رأسه ، وحل ميكائيل الإكليل عن جبينه ، وتعلق غصن بآدم فظن أنه قد عوجل بالعقوبة ، فنكس رأسه يقول : العفو العفو ، فقال الله : فرارا منى ؟ قال: بل حياء منك يا سيدى [٥].

وقال القرطبى [٦] : إن هذا الهبوط لم يكن عقوبة لآدم ، لأنه لم يهبط إلاَّ بعد أن تاب المولى عليه ، وقَبِلَ توبته – وهذا على فرض أن التوبة

---

(١) ابن عاشور : التحرير والتنوير ١/ ٢٣٨ ، ٥ / ٢٥٩ .

(٢) الآية ٢٣ سورة الأعراف .

(٣) البغوي : معالم التنزيل ١ / ٨٤ ، ابن عاشور : التحرير ١/ ٢٣٩ ، ٢٤١

(٤) من الآية ٣٦ سورة البقرة .

(٥) ابن كثير : البداية ١ / ٨١ .

(٦) الجامع ١/ ٣٢١ ، ٣٢٣ .

كانت قبل الإهباط – ويضيف القرطبى أنه أهبطه لإعمار الأرض ، وليقوم آدم بمهـــام الخلـــيفة ، إذ هذا هو سبب خلقه ، وليدور سجال وصراع بين ذريتهما على ظهر الأرض ، لأن الجنة ليست بدار تكليف . وبشر المولى آدم بعودته مرة أخرى إلى الجنة ، تلك التي أخرجه عدو الله إبليس منها ، فذلك قوله : ﴿ **وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ** ﴾ (١).

تـــاب المولى على آدم ابتداء ، ثم قبل توبته ، ووفقه لها ، فتلقى آدم بطريق الوحى أو الإلهام كلمات من المولى ، قالها طلبا للمغفرة ، فعفا الله عـــنه ، بعـــد أن أهـــبطه من الجنة ، اكتفاء بهذه العقوبة ، وذلك في يوم عاشوراء من يوم الجمعة (٢).

واختلف المفسرون في هذه الكلمات التي قالها آدم ، فقال مجاهد وسعيد بـــن جبير: هي قوله تعالى : ﴿ **رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَـــنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ (٣). وقال مجاهد:إنها (**سبحانك اللهم لا إله إلا أنـــت ، ربى ظلمت نفسي ، فاغفـــر لي ،إنك أنـــت الغفور الرحيـــم**) (٤).وقال القرطبى : إن آدم رأى على ساق العرش مكتوبا لا إله إلا الله محمد رسول الله، فتشفع بذلك (٥) ، وقال البغوى : هذه الكلمات هي : الحياء ، والدعاء ، والبكاء ، حيث بكى آدم وحواء على ما فاتهما من نعيم الجنة مائتى سنة (٦).

---

(١) من الآية ٣٦ سورة البقـــرة .
(٢) ابن عاشور : التحرير ١ / ٢٤٢ .
(٣) الآية ٢٣ سورة الأعراف ، ابن كثير : البداية والنهاية ١/ ٨٢ .
(٤) القرطبي : الجامع ١ / ٣٢٤ .
(٥) القرطبي : الجامع ١ / ٣٢٤ .
(٦) البغوي : معالم التنزيل ١ / ٨٥ .

ومما يؤكد قبول المولى توبة آدم قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾ (١) حيث غفر له ذنبه ، واصطفاه ، وكلفه بمهام النبوة على ظهر الأرض ، ليكون أول نبى (٢).

وحـتى لا يظن آدم أن توبة الله عليه قد تسـوغ له الرجوع إلى الجنة ،أكد المولـى له أن هبوطه إلى الأرض كائن لا محالة ، لأن مراد الله أن يجعـل في الأرض خلـيفة ، وهو ما كان (٣). فذلك قوله : ﴿ قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٤).

وهكذا طوى المولى قصة آدم بذكر توبته ، لأن الهدف من القصة هو التذكـير بعـداوة الشيطان ، وبإصدار الأمر بالنزول ، صار آدم وحواء وإبليس من سكان الأرض ، وقبل أن نشرع في بيان ذلك ، نعرض لبعض الـنقاط الهامة المتعلقة بجنة آدم ، وكيفية دخول إبليس له في الجنة ، ثم الرد على شبهة عدم عصمة آدم .

* **جنة آدم ومكانها ومدة مكثه فيها وكيفية وسوسة الشيطان له**

اختلف المفسرون حول مكان جنة آدم إلى ثلاثة أقوال :

الـرأى الأول : وهو رأى أهل السنة الذين يجمعون على أن جنة آدم هـي دار الخلـد التـي وعد الله المؤمنـين بها ، وأنها موجودة في العالم العلوي ، وأنها أعدت لأهل الطاعة بعد القيامة (٥)، للأدلة الآتية :

---

(١) الآية ١٢٢ سورة طـــه .

(٢) ابن عاشور : التحريز والتنوير ٩ / ١٠٩ .

(٣) ابن عاشور : التحرير والتنوير ١ / ٢٤٤ .

(٤) الآية ٣٨ سورة البقـــرة .

(٥) القرطبـــي : الجامع ١/ ٣٠٣ ، ابن كثير : البداية ١/ ٧٦ ، ابن عاشور =

١ – أخذا من ظواهر الآيات القرآنية ، التي عرفتها بأل ، وهي للعهد الذهني ، أي الجنة المعهودة لآدم .

٢ – لحديث رسول الله ﷺ الذي قال فيه : (**يجمع الله الناس ، فيقوم المؤمنون حين تزلف لهم الجنة ، فيأتون آدم ، فيقولون : يا آبانا استفتح لنا الجنة ، فيقول : وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم**) (١)

٣ – لحديث رسول الله ﷺ الذي قال فيه : (**احتج آدم وموسى ، فقال له موسى : أنت آدم الذي أخرجتك خطيئتك من الجنة ، فقال آدم : وأنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه ، تلومني على أمر قدر على قبل أن أخلق**) (٢) مما يدل على أنها جنة الخلد المعروفة ، إذ لم ينكر آدم ذلك ، ولو كانت غيرها لرد على موسى ، فهذا دليل على أن الدار التي أخرجهم الله منها بخلاف الدار التي أُخرجوا إليها (٣)

٤ – قولـــه تعالى : (اهبطوا) مما يفيد أنها في السماء ، حيث أمر المولى آدم وحواء بالنزول منها إلى الأرض (٤)

<u>الرأي الثاني</u> : وهـــو رأي المعتزلة والقدرية حيث قالوا : بأنها جنة في أرض عدن في الأرض ، خلقها الله لإسكان آدم وزوجه (٥) للأدلة الآتية :

= التحرير : ١ / ٢٣٤ .

(١) أخـــرجه مســـلم في صحيحه في كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها ، حديث رقم ٢٨٨ ، ابن كثير : البداية ١/ ٧٦ .

(٢) أخـــرجه البخاري في صحيحه في كتاب أحاديث الأنبياء ، باب وفاة موسى وذكره ، حديث رقم ٣١٥٧ ، ابن كثير : البداية ١/ ٨٣ .

(٣) القرطبي : الجامع ١/ ٣٠٢ ، ٣٠٣ .

(٤) ابن كثير : البداية ١ / ٧٨ .

(٥) القرطبـــي : الجـــامع ١/ ٣٠٢ ، ابن كثير : البداية ١/ ٧٦ ، ابن عاشور : التحرير ١/ ٢٣٤ .

١ – أنها لو كانت جنة الخلد لما وصل إليها إبليس ، حيث قال تعالى عنها : ﴿ **لا لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ** ﴾ (١).

٢ – أنه لا يخرج منها أهلها ، فهي دار خلد لقوله تعالى : ﴿ **وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ** ﴾ (٢).

٣ – إن جنة الخلد تقدست عنة الخطايا والمعاصي، أما هذه فقد لغا فيها إبليس ، ونام فيها آدم ، وخرج منها هو وحواء بمعصيتهما .

٤ – لو كان آدم جدلا في جنة الخلد ، فكيف يجوز له مع مكانتـه من الله ، وكمـال عقله أن يطلب الخلد ، وهو في دار الخلد ، والملك الذي لا يبلى . وما فائدة ذلك ؟ (٣).

٥ – يـروى (**أن آدم لمـا احتضر اشتهي قطفا من عنب الجنة ، فانطلق بنوه ليطلبوه له ، فلقيتهم الملائكة ، فقالوا : أين تريدون يا بنى آدم ، فقالوا : إن آبانا اشتهي قطفا من عنب الجنة ، فقالوا لهم : ارجعوا فقـد كفيتموه ...**) (٤) ، فلولا أن الوصول إلى الجنة التي كان فيها آدم واشـتهي منها القطف ممكنا ، لما ذهب بنوه يطلبون ذلك ، فدل هذا على أنها في الأرض لا في السماء (٥).

٦ – أن الأمر بالهبوط لا يدل على أنها في السماء ، حيث قال تعالى لبنى

---

(١) آية ٢٣ سورة الطـور .

(٢) آية ٤٨ سورة الحجـر .

(٣) القرطبي : الجامع ١/ ٣٠٢ ، ابن كثير : البداية ١ / ٧٦ .

(٤) أخـرجه أحمد في مسنده،مسند الأنصار من حديث عتى بن ضمرة السعدى ، حديث رقم ٢٠٢٨٨ .

(٥) ابن كثير : البداية ١/ ٧٧ .

إســـرائيل : ﴿ اهْـبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ [١]. وهم لم يصعدوا أبدا للسماء ، فالهبوط لآدم معناه من جنة الأرض إلى سهلها [٢].

٧ – أن آدم خلق من تراب الأرض ، ولم ينقل أنه رفع إلى السماء ، وخلق ليكون في الأرض [٣].

● **لم يستكن أصحاب الرأي الأول لأدلة الفريق الثاني فردوا عليها بما يلي :**

١ – أن آدم لو كان في جنة من جنات الدنيا ، فكيف يبحث عن شجرة الخلد ، في دار لا خلود فيها [٤] ؟

٢ – أن الله – عز وجل – عرّف الجنة بالألف واللام ، ومن سئل الله الجنة لم يفهم إلا أنها جنة الخلد .

٣ – لا يمتنع عقلا دخول إبليس الجنة لإغواء آدم وحواء ، وذلك عن طريق المرور فيها ، لا الإقامة ، أو أنه وسوس لهما وهو على باب الجنة ، أو من تحت السماء .

٤ – ما احتج به المعتزلة والقدرية من آيات الخلود في الجنة ، وعدم الخروج منها لمن دخلها ، فهذا ليس بدليل ، لأن ذلك من أحوال أهلها ، لا لتأثـــير المكان ، أو قد يكون الخلود وعدم الخروج منها يوم القيامة ، ولا يمنع أن تكون الجنة دار الخلد لمن أراد الله تخليده فيها ، وقد يخرج منها من قضى عليه بالفناء ، كما أن الملائكة يدخلون هذه الجنة ويخرجون منها

---

(١) من الآية ٦١ سورة البقرة .

(٢) ابن كثير : البداية ١/ ٧٨ .

(٣) ابن كثير : البداية ١ / ٧٧ .

(٤) عبد الوهاب ، النجار : قصص الأنبياء ص ١٠ .

، وكانــت مفاتــيحها بيد إبليس ، ثم نزعت منه ، ودخلها الرسول ﷺ ليلة الإسراء والمعراج ، وخرج منها [١].

الرأي الثالث : يقول إن جنة آدم خلقها الله بين السماء والأرض للابتلاء ، وحدث فيها ما حدث ، ثم أمر الله بهبوطهما منها ، ثم أفنيت وزالت [٢].

لا يساور المرء ريب في أن الرأي الأول هو الذي تميل إليه النفس ،أخذا بظواهر الآيات القرآنية ، ولأن هذه الجنة كانت من العظمة بما كان ، حتى حزن عليها آدم وحواء حزنا شديدا ، وبكى على فراقها بكاء مرا ، فلو كانت جنة من جنان الأرض أو بستانا ، لما بدر من آدم كل هذا الأسى ، كما أن ما جاء من آيات الذكر الحكيم في وصفها يجعل النفس تركن إلى كونها في السماء ، وأنها جعلت للخلد ، إذ لا ظمأ فيها ، ولا عرى ، ولا جوع ، بل هي ظل ممدود لمن كتب له الله الفوز بها .

وممـــا يرتــبط بجنة آدم المدة التي مكثها آدم فيها ، وقد وقع فيها خلاف كبير بين المؤرخين والمفسرين ، والثابت أن آدم عليه السلام خلق في آخر ساعة من يوم الجمعة ، فقد روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : (**خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها**) [٣]. وروى عن ابن عباس أنه قال : (ما أسكن آدم الجنة إلا ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس) [٤]. وعلى

---

(١) القرطبي : الجامع ١/ ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ابن عاشور : التحرير ١/ ٢٣٤ ، ٢٣٥ .

(٢) المقدسي : البدء والتاريخ ٢/ ٨٤ ، ٨٥ ، ابن كثير : البداية ١/ ٧٦ .

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الجمعة ،باب فضل يوم الجمعة ، حديث رقم ١٤١٠ ، المقدسي : البدء والتاريخ ٢/٨٥ ، ابن كثير : البداية ١/ ٨٢.

(٤) ابن كثير : البداية ١/ ٨١ ، ٨٢ .

هذا فإن كان آدم قد خرج من الجنة في نفس اليوم الذي خلق فيه ، وكانت أيام الآخرة كأيام الدنيا ، فقد لبس آدم في الجنة بضع يوم [(١)].

وأما إن كان خرج من الجنة في يوم غير الذي دخلها فيه ، أو كانت أيام الآخرة ألف سنة مما نعد كما قال تعالى : ﴿ **وإنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ** ﴾ [(٢)] إذا فقد لبث آدم في الجنة زمنا طويلا ، لأن ساعة الآخرة بثلاث وثمانين سنة وأربعة أشهر[(٣)] ، وعلى هذا فقد مكث آدم جسدا طيـنا قـبل نفخ الروح فيه أربعين سنة ، وأقام في الجنة قبل هبوطه منها ثلاثا وأربعين سنة وأربعة أشهر ، وهذا ما تميل النفس إليه ، لأن الأحداث التـي مـر بها آدم منذ بدء خلقه كانت طويلة وجليلة وعظيمة ، فما بين مـراحل متعددة لخلقه ، ثم نفخ الروح فيه ، ثم أمر الملائكة بالسجود له ، ثم تعليمه الأسماء ، ودخوله الجنة ، وإخراج حواء له ، ثم فتنة الابتلاء في الجنة ، والإخراج منها ، والهبوط إلى الأرض ، فهذا ما لا يتصور حدوثه فـي ساعة من ساعات الدنيا ، وإن كان ليس مستحيلا على الله الذي يقول للشيء كن فيكون .

ومما يرتبط بأحداث آدم في الجنة ، كيفية دخول إبليس إليه فيها بعد أن طـرده الله منها ؟ ومن رحمته ، عقب إبائه السجود لآدم . فيقال : إنه كـان مارا في الجنة ، فوسوس لهما ، أو أنه مارس هذا الأمر وهو على أبواب الجنة ولم يدخل لهما ، أو من تحت السماء ،أو دخل في فم الحية[(٤)].

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل ١/ ١١٩ ، ابن كثير : البداية ١ / ٩٣ .

(٢) من الآية ٤٧ سورة الحج .

(٣) الطبري : تاريخ الرسل ١ / ١١٩ ، ابن كثير : البداية ١ / ٩٣ .

(٤) ابن كثير : البداية ١ / ٧٧ .

آثما وعاصيا لأمــر ربه ، بدليل قولــه تعالى : ﴿ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ (١).وهذا هو الرأى الراجح أخذا بظواهر الآيات القرآنية (٢).

* **شبهة وقوع آدم في المعصية**

إذا كان آدم نبيا فكيف عصى بالأكل من الشجرة التي نهاه الله عنها ، والأنبــياء معصــومون من المعصية ؟ نجيب عن ذلك بعدة ردود ذكرها العلماء منها :

١ – أن الأنبياء والرسل معصومون من الكبائر بالإجماع ، وما وقع من آدم (عليه السلام) يعد من الصغائر التي لا يؤاخذ عليها (٣).

٢ – قيل إن هذا حدث قبل تكليف آدم بالنبوة ، وفي غير عالم التكليف ، فهــو بمثابة الخروج عن الامتثال في التربية ، وإن كان خطيئة ، إلا أنها لا يترتب عليها عقاب أخروى ، ولا تقدح في نبوة آدم ، لاختلاف العلماء حول وقوع الصغائر من الأنبياء والرسل، ناهيك عن أن آدم لم تكن له عصمة حينئذ إذ هي لازمة له بعد تكليفه بالنبوة ، وهذه كانت في الأرض (٤).

٣ – قــيل : إن آدم تــأول في أكله من الشجرة ، إذ أكل من شجرة أخرى غير التي عينها الله له ، فلم يظن أن النهي واقع على جميع جنسها ، فأغراه إبليس بالأخذ بالظاهر (٥).

---

(١) من الآية ٢٤ سورة الأعراف .

(٢) عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء ص ٨ .

(٣) المرجع السابق ص ١١ .

(٤) ابــن عاشــور : الــتحرير ١/ ٢٤٢ ، ٩ / ١٠٩ ، عــبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء ص ١١ .

(٥) القرطبي : الجامع ١١ / ٢٥١ ، ٢٥٢ .

٤ – قـيل : إن آدم تـأول فيما فعل ، إذ فهم أن الأمر والنهي غير جازمين ، بحيث يترتب على المخالفة الغضب والمجازاة ، بل ظنه للإرشاد فقـط ، وما كان من هذا القبيل لا تحرم مخالفته ، كما حمل الفقهاء الأمر بكتابة الدين على أنه أمر إرشاد ولا إثم بتركه (١).

٥ – قـيل : إن آدم أكل من الشجرة ناسيا لقول الله تعالى : ﴿ **فَنَسِيَ وَلَـمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا** ﴾ (٢). أي صبرا على المحافظة على أمر الله ، وعلى هـذا يحـتمل أن يكون آدم – عليه السلام – كان في ذلك الوقت مأخوذا بالنسـيان ، وإن كان هو اليوم عنا مرفوع ، فخطيئة آدم من باب حسنات الأبـرار سـيئات المقربيـن ، وأثبتت الآية المذكورة خروج آدم – عليه السلام– من أولى العزم من الرسل ، وهذا هو الرأي الراجح (٣). في الرد على شبهة وقوع المعصية من آدم .

آدم وحواء في الأرض

أهـبط المولى آدم في سرنديب بالهند ، وحواء في جدة ، وإبليس في البصرة ، والحية في أصبهان ، فبكى آدم واشتد بكاؤه على خطيئته ، وندم علـيها ، وسأل المولى قبول توبته ، وغفران خطيئته ، فقال : أى رب ألم تنفخ فيّ من روحك ؟ ، قال : بلى ، قال : رب ألم تسكنى جنتك ؟ ، قال : بلـى ، قال:رب ألم تسبق رحمتك غضبك ؟ قال : بلى ، قال : أرأيت إن تبـت وأصلحت أراجعى أنت إلى الجنة ؟ قال : بلى ، فذلك قوله ﴿ **فَتَلَقَّى**

---

(١) عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء ص ١١ .

(٢) من الآية ١١٥ سورة طــه .

(٣) القرطبـي : الجـامع ١١ / ٢٥١ ، ٢٥٢ ، عـبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء ص ١١ .

آدَمُ مِن رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾ [١].

وكـــان أول طعام أكله آدم في الأرض من الحنطة ، حيث جاءه جبريل ببعض حبات منها ، فلما سأله آدم عنها ، قال له جبريل : هذا من الشجرة التي نهيت عن الأكل منها فأكلت ، وأمره ببذرها في الأرض ، فأنبتت ، فحصده آدم ، ثم درسه ، ثم ذراه ، وطحنه ، ثم عجنه ، وخبزه ، فأكله بعد جهد عظيم ، وتعب وكد ، فذلك قوله : ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ [٢].

وقـــال أبـــو موســـى الأشعري : إن الله لما أهبط آدم من الجنة إلى الأرض علمه صنعة كل شيء ، وزوده من ثمار الجنة ،فثمارنا في الحياة الدنيا منها ، وإن كانت تعطب ، وتتغير ، وأما ثمار الجنة فلا يصيبها شيء من ذلك [٣].

ولـــم تكـــن معانـــاة آدم على وجه الأرض معاناة جسدية من الكد ، والتعب، في المأكل والمشرب فحسب،ولكنها كانت معاناة روحية ، إذ فارق الجنة ، ورؤية الذات العلية ، والقرب منها ، والتمتع برؤية الملائكة ، وهم يطوفون بالبيت المعمور ، لذلك عوضه الله ببيت له في الأرض يطوف به هو وبنوه ، كما تطوف الملائكة بالبيت المعمور ، وهو مقابل له تماما .

فيروى ابن عباس أن آدم لما أهبطه الله إلى الأرض قال المولى له : إن لـــي حـــرما بحيال عرشي ، فانطلق ، وابنِ لي بيتا فيه ،وطف به ، واذكرنـــي عنده ، كما رأيت الملائكة تطوف بعرشي ، فتقدم آدم يتخطى ،

---

(١) الآيـــة ٣٧ ســـورة البقرة ، الطبري : تاريخ الرسل ١ / ١٣٢ ، ابن كثير : البداية ١/ ٨١ .

(٢) من الآية ١١٧ سورة طـــه .

(٣) ابن كثير : البداية ١ / ٨١ ، ٩٤ .

وطويت له الأرض ، ولم تقع قدمه على شيء إلا صار عمرانا ، حتى انتهى إلى الحرم ومعه جبريل ، الذي ضرب بجناحيه الأرض حتى برز أساس البيت ، وحملت إليه الملائكة الأحجار من خمس جبال ، فبناه آدم(١).

ثم علّم جبريل آدم المناسك ، وأمره بالطواف ، ففعل ، ثم أمره أن يضحى لله ، فامتثل ، وخرج آدم وجبريل إلى عرفات ، حيث أخبره الملك أن الله أمره أن يقف فيه ، ثم عاد إلى مكة ، فاعترض إبليس طريق آدم ، فقال له جبريل : ارمه يا آدم ، فرماه بالحصى ، ثم سار إلى الأبطح فتلقت الملائكة آدم وقالت له : بر بحجك يا آدم ، فقد حججنا قبلك بألفي سنة (٢).

ثم شاءت إرادة المولى – عز وجل – أن يلتقى آدم بحواء على ظهر الأرض ، وجدّ آدم في البحث عنها ، حتى اجتمعا ، فازدلفت إليه حواء ، فلذلك سميت بالمزدلفة ، وتعارفا بعرفات فلذلك سمى عرفات ، واجتمعا بجُمع ، فلذلك سميت جمّعاً (٣).

واشتكى آدم العرى لربه ، فأمره أن يذبح كبشاً ،ويأخذ صوفه ، فغزلته له حواء ،ونسجه آدم ،وصنع لنفسه جبة ، ولحواء درعا وخمارا ،ثم عاد آدم وحواء إلى الهند ، وأمر جبريل آدم أن يتخذ آلات الحرث ، ففعل ليفلح الأرض ، كما أوحى إليه المولى بمعاشرة زوجه حواء ، فأنجبت له بنين وحفدة ، وكانت تضع في كل مرة ذكرا وأنثى ، فأمر المولى آدم أن

---

(١) القرطبي : الجامع ٢ / ١٢١ ، ابن كثير : البداية ١ / ٩٤ .

(٢) اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر ت ٢٩٢ هـ) : تاريخ اليعقوبي ١/ ٦ ، دار صادر ، بيروت ، د.ط ، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م ، الطبري : تاريخ الرسل ١/ ١٢٥ .

(٣) الطبري : تاريخ الرسل ١ / ١٢١ ، ١٢٢ .

يزوج كل ذكر بأخت أخيه ، لأنه لم تكن تحل أخت لأخيها قد ولد معها في بطن واحد [(١)] ، وقد ولد لآدم أربعون ولدا في عشرين بطنا [(٢)].

* **قصة قابيل وهابيل**

قص المولى علينا قصة ولدى آدم : قابيل ، وهابيل ، اللذين دار بينهما صراع بسبب عدم موافقة قابيل على الزواج من أخت أخيه هابيل ، وإصراره على الزواج من أخته ، التي ولدت معه ، لأنها كانت أجمل من الأخرى ، فطلب آدم أن يتقدم كل منهما بقربان لله تعالى ، فمن قُبِلَ قربانه فهـو أحـق بالأخت الجميلة ، فقرب قابيل من ثمار حرثه قربانا ، وقرب هابـيل من أبكار غنمه قربانا ، فتقبل الله قربان هابيل ، ولم يتقبل قربان قابيل ، عن طريق نزول نار من السماء فأحرقته ، مما أوغر صدر قابيل ، فعزم على قتل أخيه للتخلص منه ، والظفر بأخته زوجة له [(٣)].

اتهـم قابيل أباه آدم أنه قد دعا لقربان أخيه هابيل حتى قبله الله ، ولم يدع له ، ولما كان ذات ليلة ، واستبطأ آدم ولده هابيل ، فأرسل قابيل في طلبه ، فقال قابيل لهابيل لما رآه:تقبل الله منك ،ولم يتقبل منى ، فقال هابيل: إنمـا يتقبل الله من المتقين ، فغضب قابيل ، وطوعت له نفسه قتل أخيه ، فقتله ، بحديدة أو حجر رماه به على رأسه [(٤)].

وبعـد قتله أحسّ قابيل بالذنب الكبير الذي اقترفه ، وحمل جثة أخيه علـى ظهـره سـنة كاملـة ، وهو لا يدرى ما يفعل بها ، حتى هداه الله

---

(١) ابن كثير : البداية ١ / ٩٤ ، القرماني : أخبار الدول ١ / ٥٠ .

(٢) الطبري : تاريخ الرسل ١/ ١٤٥ .

(٣) ابن قتيبة : المعارف ١ / ١٨ ، ابن كثير : البداية ١/ ٩٤ ، ٩٥ .

(٤) ابن كثير : البداية ١/ ٩٥ ..

لمواراتها ، إذ أُرسل إليه غُرابان يقتتلان ، فصرع أحدهما الآخر ، ثم حفر له في الأرض وواراه ، فلما رأى قابيل ذلك عضّ على أصابعه من الندم وقال : أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب ، فأوارى جثة أخى ، ففعل مثلما فعل الغراب [١].

قال تعالى عن هذه القصة ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ من أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّــهُ مِــنَ الْمُتَّقِينَ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْــتُلَكَ إِنِّــي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَــتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِــيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ فَبَعَثَ اللّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَــذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ** ﴾ [٢].

وقــد روى عن النبى ﷺ أنه قال : (**لا تُقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل**) [٣].

وقد حزن آدم –عليه السلام – لمقتل ولده هابيل حزنا شديدا ، ودعا الله أن يعوضــــه عنه ، فرزقه بشيث (هبة الله) ، وجازى الله قابيل على سوء صنيعه ، فانقرض نسله ، بينما صار جميع أولاد بنى آدم ينتمون إلى شـــيث ، الذي ولد وآدم ابن مائة وثلاثين سنة ، ولم يقبض الله آدم إليه إلا

---

(١) المصدر السابق ١ / ٩٦ .

(٢) الآيات ٢٧ – ٣١ سورة المائدة .

(٣) أخــرجه البخاري في صحيحه في كتاب أحاديث الأنبياء ، باب خلق آدم ، حديث رقم ٣٠٨٨ .

بعد أن قرت عينه ، ورأى من ذريته أربعمائة ألف نسمة[١].

نبوة آدم

لمـــا أُهْبط آدم إلى الأرض عانى فيها ، حتى يسَّر الله له أمر الحياة والـــتقى بـــزوجه ، فتكون منه ومن حواء ومن نسلهما أول جماعة بشرية مســلمة في التاريخ ، وقد كانت تلك الجماعة الأولى نواة المجتمع البشرى أمـــة مســلمة ، فطرت على التوحيد ، وقد تولى آدم وزوجه حواء تنشئة أبنائهما على حب الله ، وطاعته ، والاستسلام له ، حيث كان آدم قد وعى العلـــم الـــذي علمه ربه إياه ، وعلمه لأبنائه ، فعلمهم كيف يعبدون الله ، وحذرهـــم الشـــيطان الذي كان وراء إغوائهما ، ونزولهما من الجنة إلى الأرض [٢].

وقـــد جمع آدم بين خلافته في الأرض ، وبين النبوة ، حيث ورد عن أبـــى ذر (رضـي الله عنه) أنه قال : قلت يا رسول الله : أنبيًا كان آدم ؟ قال : (**نعم خلقه الله بيده ، ثم نفخ فيه من روحه ، ثم سواه قبلا**) [٣].وقد أرســل المولـــى آدم لأبـــنائه ، وأنـــزل عليه عشر صحائف ، في إحدى وعشـــرين ورقة كتبها آدم بخط يده ، وتلقاها عن جبريل ، ومما كان فيها من تعاليم : تحريم الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، وحروف المعجم ، وهو أول كتاب كان في الدنيا ، كما كان آدم أول الخلق ، وأول الأنبياء ، وأول مـــن علمـــه الله الخط ، والقلم ، ثم لم يكتب من ولده أحد بعده حتى زمن

---

(١) ابن قتيبة : المعارف ١ / ٢١ ، ابن كثير : البداية ١ / ٩٧ ، ٩٨ .

(٢) جمال عبد الهادي : الإسلام دين الله في الأرض والسماء ص٩٤ ، ١٠٣

(٣) أخرجه أحمد في مسنده،باقي مسند الأنصار من حديث أبي إمامة الباهلي ، حديث رقم ٢١٢٥٧ .

إدريس ، ولم تكن له شريعة غير التوحيد [١].

ولمـــا اقـــترب أجل آدم دعا ابنه شيثا إليه ، فعهد إليه عهده ، وكتب وصيته ، وأعطاها له ، وأمره أن يخفيها عن أولاد قابيل ، الذين قتل أبوهم أخاه هابيل ، فاستخفى شيث وولده بما عندهم من العلم ، ولم يكن عند أولاد قابـــيل ما ينتفعون به ، ولقد علم آدم شيثا ساعات النهار والليل ، وأعلمه عبادة الخلق في كل ساعة منهن ، وأنبأه بخبر الطوفان ومدته ، وصارت الرئاســـة لشـــيث بعد وفاة أبيه آدم ، فنبئ ، وأنزل المولى عليه خمسين صحيفة ، وصارت أنساب البشرية جميعا تعود إليه ، إذ انقرض نسب سائر إخوته [٢].

* **ما انفرد به آدم دون غيره من الأنبياء**

نـــال آدم (علـــيه السلام) من المولى تشريفا لم ينله أحد بعده من الأنبياء ومن ذلك :

١ – خلـــق المولى له بيده الكريمة ، ونفخه فيه من روحه ، وأمر الملائكة بالسجود له ، وتعليمه الأسماء ، ولهذا قال له موسى حين اجتمعا في الملأ الأعلى وتـــناظرا : (**أنت آدم أبو البشر،الذي خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك الملائكة ، وعلمك أسماء كل شيء**) [٣]. وأدخلك الجنة [٤].

---

(١) الطـــبري : تـــاريخ الرسل ١/ ١٥٠ ، ١٥١ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ابن قتيبة : المعارف ١/ ١٨ ، ١٩ ، المقدسي : البدء والتاريخ ٣/ ١٠ ، ١١ .

(٢) الطبري : تاريخ الرسل ١/ ١٥٢ ، ١٥٨ ، المقدسي : البدء والتاريخ ١٢/٣ .

(٣) أخـــرجه الـــبخاري فـــي صحيحه في كتاب التوحيد ، باب قوله : وكلم الله موسى تكليما ، حديث رقم ٦٩٦٢ .

(٤) ابن كثير : البداية ١ / ٧٣ ، ٧٦ ، ٨٧ ، ٩٦ ، القرطبي : الجامع ٤/ ٦٢ .

٢ – أن المولـــى خلق آدم على صورته بشراً سوياً كما قال ﷺ [١] ، وجعل عقل آدم مثل عقل جميع ولده ، وكل أهل الجنة يدعون بأسمائهم إلا آدم فإنه يكنى أبا محمد ، وهو أبو البشر[٢].

٣– أن الله استخرج من صلبه ذريته إلى يوم القيامة، وبين له أصحاب الجـــنة منهم ، وأصحاب النار ، وأقررهم بتوحيد الله – عز وجل – حيث قـــال : ﴿ **وَإِذْ أَخَـــذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ** ﴾ [٣].

كما ورد في الحديث قوله ﷺ : (**إن الله خلق آدم (عليه السلام) ، ثم مسح ظهره ، فاستخرج منه ذرية ، قال : خلقت هؤلاء للجنة ، وبعمل أهل الجنة يعملون ، ثم مسح ظهره ، فاستخرج منه ذرية ، قال : خلقت هؤلاء للنار ، وبعمل أهل النار يعملون**) [٤].

وفـاة آدم

عاش آدم عليه السلام ألف سنة ، منها ثلاث وأربعون سنة في الجنة ، والباقي على ظهر الأرض ، ومما يروى عن عمر آدم ما ذكره ابن عباس أنه حينما نزلت آية الدين من سورة البقرة قال الرسول ﷺ : (**إن أول من**

---

(١) أخـــرجه مسلم في صحيحه في كتاب البر والصلة والآداب ، باب النهي عن ضرب الوجه ، حديث رقم ٤٧٣١ .

(٢) القرطبي : الجامع ٤/ ٦٣ ، ابن كثير : البداية ١/ ٩٩ .

(٣) الآية ٧٢ سورة الأعـــراف .

(٤) أخـــرجه أبو داود في سننه كتاب السنة ، باب القدر ، حديث رقم ٤٠٨١ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١ / ٩١ ، ٩٢ .

جحد آدم عليه السلام قالها ثلاث مرات ، وإن الله تبارك وتعالى لما خلقه مسـح ظهره ، فأخرج منه ما هو ذار إلى يوم القيامة ، فجعل يعرضهم على آدم ، فرأى فيهم رجلا يزهر ، فقال : أي رب أي بني هذا ؟ ، قال : هذا ابنك داود ، قال : أي رب كم عمره ؟ قال:ستون سنة ، قال : أي رب زده فـي عمره ، قال : لا إلا أن تزيده أنت من عمرك ، وكان عمر آدم ألف سنة . فوهب له من عمره أربعين سنة ، فكتب الله عليه بذلك كتاباً ، وأشهد عليه الملائكة ، فلما احتضر آدم ، أتته الملائكة لتقبض روحه قال : إنه قد بقى من عمري أربعين سنة ، قالوا : إنك قد وهبتها لابنك داود ، قال ما فعلت ، ولا وهبت له شيئا ، فأنزل الله عليه الكتاب ، وأقام عليه شهوداً ، فأكمل لآدم ألف سنة ، وأُكمل لداود مائة سنة) [١].

ولمـا أحـسّ آدم بدنوّ أجله قال لبنية : إني أشتهي من ثمار الجنة ، فذهبوا يطلبونها له ، فقابلتهم الملائكة ومعهم أكفانه وحنوطه ، فسئلوا أولاده عن وجهتهم ، فقالوا لهم : إن أبانا مريض وهو يشتهي شيئاً من ثمار الجنة ، فقالوا لهم : ارجعوا ، فقد قضى أبوكم ، فلما دخلوا عليه عرفتهم حواء ، ولاذت بآدم ، فقال لها : إليك عنى ، فإنما أُتيت من قِبَلك ، فخلى بينى وبين ملائكة ربى -عز وجل -، فقبضوه ، وغسلوه ،وكفنوه ، وحنطوه ، وحفروا له ، ولحدوه ، وصلّوا عليه ، وكبرت الملائكة عليه أربعا ، وقالت لبنيه : هذه سنة أبيكم آدم في ولده ، وذلك يوم الجمعة[٢] .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده من مسند بني هاشم ، بداية مسند عبد الله بن عباس ، حديث رقم ٢٥٧٨ ، الطبري : تاريخ الرسل ١ / ١٥٦ .

(٢) أخـرجه أحمـد في مسند الأنصار من حديث عتى بن ضمرة السعدى ، حديث رقم ٢٠٢٨٨ ، الطبري : تاريخ الرسل ١ / ١٦٠ ، ١٦١ ، ابن كثير : البداية ١/١٠٠ .

ودفن آدم في جبل أبي قبيس في مكة ، في موضع يقال له غار الكنز ، وماتت زوجه حواء بعده بسنة واحدة ، فدفنت معه في قبره ، ولم يزالا مدفونيـــن حتى زمن طوفان نوح ، حيث حملهما نوح معه في السفينة في تـــابوت ، فلما هبطت السفينة أعادهما إلى نفس مكانهما الأول ، وقيل بل دفنهما في بيت المقدس (١).

العظة والعبرة من قصة آدم

تلك كانت خاتمة أبي البشر آدم - عليه السلام - ، وفيها من العبر والعظات ما فيها ومن ذلك ما يلي :

١ - أن الله تعـــالى قد يحجب سرّ حكمته عن أقرب خلقه إليه ، كما حجب قصة استخلاف آدم في الأرض عن الملائكة ، حتى تحيروا واشتاقوا إلى معرفة الحكمة من هذا الاختيار .

٢ - أن عـــناية الله تعالى إذا وجهت إلى الشيء الحقير خلعت عليه حلل البهاء ، وصيرته عظيما ، كما حدث مع آدم من خلقه من تراب ، ثم إفاضة المولى عليه من العلم والمعرفة ، ما أقر الملائكة بالعجز عن إدراكه

٣ - أن الإنســـان مهمـــا أوتى من الكرامة ففي طبعه الضعف ، فهو عرضه للنسيان ، كما وقع من آدم من الأكل من الشجرة ، وطاعة إبليس

٤ - أن رحمة الله لا ييئس منها من عصاه وخالف أمره ، فإن آدم قد تاب الله عليه ، واجتباه مع ما بدر منه من النسيان والمعصية (٢).

وتلـــك كانت سيرة وتاريخ أبي الأنبياء والبشر آدم (عليه السلام) ، الذي دعا بنيه للتوحيد ، وإسلام الوجه لله تعالى ، وابتعث المولى من ذريته

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل ١ / ١٦١ ، ابن كثير : البداية ١ / ١٠٠ .

(٢) عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء ص ٢١ .

أنبياء ، واصلوا مهمة أبيهم في هداية قومهم ، ومنهم : شيث ، وإدريس ، ولما طال الزمان ، ودارت السنون بالبشرية ، أغواهم الشيطان ، فأذلهم ، وانحـــرف بهم عن التوحيد شيئاً فشيئاً حتى عبدوا الأصنام من دون الله ، فأرسل المولى نوحاً – عليه السلام – إلى البشرية لإخراجها من الظلمات إلى النور ، وهذا ما ستطالعه في الفصل التالي .

الفصل الثالث

❁ نوح عليه السلام ❁

- نسبه وميلاده .
- ظهور عبادة الأوثان .
- دعوة نوح لقومه وموقفهم منه .
- يأس نوح من إيمان قومه .
- الأمر بصناعة الفلك ووصفها .
- بدء الطوفان وحمل نوح مَن أمر الله بحمله .
- عموم الطوفان للأرض .
- سفينة نوح منذ الطوفان وحتى رُسُوّها .
- هبوط نوح من الفلك وبدء عمران الأرض .
- ما انفرد به نوح دون غيره من الأنبياء .
- رسالة نوح وصفاته ووفاته .
- الشبهتان المنسوبتان لنوح .

نسبه وميلاده :

هو نوح بن لامك ، بن متوشلخ ، بن خنوخ (إدريس) ، بن يرد ، ابن مهلاييل ، بن قينن ، بن أنوش ، بن شيث، بن آدم، أبي البشر– عليه السلام – وأم نوح هي هيجل ، بنت لاموش ، بنت متوشلخ ، فهي ابنة عم أبيه (١).

واسم نوح – عليه السلام – أعجمي أو مشتق كما قيل : من ناح ينوح ، وذلك لكثرة نوحه على نفسه ، وقومه ، فعلى نفسه لمراجعته ربه بشأن ابنه كنعان ، وعلى قومه لدعوته عليهم بالهلاك ، وقيل : لا أصل لهذا النوح ، كما أطلق عليه اسم سكن ؛ لأن الناس سكنوا إليه بعد آدم – عليه السلام – (٢).

وقد ولد نبي الله نوح – عليه السلام – في منطقة الجزيرة من أرض العراق ، حيث كان يعيش بنو راسب ، وذلك بعد وفاة آدم – عليه السلام – بعشرة قرون ، كما ورد عن ابن عباس ، حيث كانت هذه القرون على الإسلام ، وإن كان المراد بالقرن المائة سنة ، فيكون الفاصل بين آدم ونوح ألف عام ، وإن كان المراد بالقرن الجيل من الناس ، فيكون بينهما ألوف السنين ؛ لأن الناس قبل نوح وفي عهده كانوا يعمرون طويلاً (٣).

وكان نوح – عليه السلام – دقيق الوجه ، في رأسه طول ، عظيم

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ١/ ١٠٢، البغوي : معالم التنزيل ٨/ ٢٣٤ .

(٢) القرطبي : الجامع ٤/ ٦٢ ، البغوي : معالم التنزيل ٣/ ٢٤٠ ، المقدسي : البدء ٣ / ١٥ ، ١٦ ، ابن عاشور : التحرير ١٥ / ٣٢٧ .

(٣) ابن كثير : البداية ١ / ١٠٣ ، ١٠٨ ، ابن عاشور : التحرير ٥/ ٣٣٨.

العينين ، غليظ الفصوص ، دقيق الساقين والساعدين ، كثير لحم الفخذين ، طويل اللحية ، طويلاً ، جسيماً ، **قريباً** للأدمة [١].

وأرسل المولى نوحاً – عليه السلام – إلى قومه وهو على رأس الأربعين ، وظل في دعوته لهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وعاش بعد الطوفان ستين سنة ، فكان عمره ألف سنة وخمسين عاماً ، حيث قال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلا خَمْسِينَ عَامًا** ﴾ [٢].

ظهور عبادة الأوثان :

تطاولت السنون والأيام على البشرية بعد آدم وبنيه ، فحاد الناس عن تعاليم هؤلاء الأنبياء ، وتطرق الانحلال إلى عقيدتهم ، وأخلاقهم ، حيث انغمس بنو راسب – وهم قوم نوح – في إتيان ما يغضب المولى – عز وجل – وارتكاب الفواحش ، وشرب الخمور ، والاشتغال بالملاهي ، ليس هذا فحسب بل وتركوا عبادة الله الواحد القهار إلى عبادة الأوثان ، وكانوا أول أمم الأرض إشراكا بالله تعالى ، ولتفسير كيفية حدوث ذلك ، **ذكر المؤرخون والمفسرون العديد من الآراء حول هذا الأمر** [٣] :

فيقول محمد بن كعب : كان لآدم – عليه السلام – خمس بنين:(ود ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر) ، وكانوا عُبَّاداً ، فمات واحد

---

(١) ابن قتيبة : المعارف ١/ ٢١ ، القرماني : أخبار الدول ١ / ٦٠ .

(٢) الآية ١٤ سورة العنكبوت ، ابن كثير : البداية ١/ ١٠٣ ، ١٠٩ ، البغوي : معالم التنزيل ٦/ ٢٣٦ ، القرطبي : الجامع ٧ / ٢٣٣ .

(٣) الطبري : تاريخ الرسل ١ / ١٧٩ .

منهم ، فحزنوا عليه ، فقال الشيطان : أنا أصور لكم مثله ، إذا نظرتم إلـيه ذكرتموه ، قالوا : افعل ، فصوروه في المسجد ، ثم مات آخر ، فصـوروه ، حتى ماتوا جميعا ، فصوروهم ، والتبس الأمر عليهم بعد حيـن ، حـتى تركوا عبادة الله ، فقال لهم الشيطان : ما لكم لا تعبدون شيئاً ؟ ، قالوا : وما نعبد ؟ ، قال : آلهتكم ، وآلهة آبائكم ، ألا ترونها في مصلاكم ، فعبدوها من دون الله ، حتى بعث الله إليهم نوحا [١].

وقيل: إن (وَدّ ، وسواع ، ويعوق ، ويغوث ، ونسر) لم يكونوا أبناء آدم ، بـل كانوا قوما صالحين ، بين آدم ونوح ، وكان لهم تبع يقتدون بهـم ، فلمـا مـاتوا زين لهم الشيطان أن يصوروا صورهم ليتذكروا اجـتهادهم ، وليسلوا أنفسهم بالنظر إليها ، فصوروهم ، فلما ماتوا جاء آخرون ، قالوا : ليت شعرنا هذه الصور ما كان أباؤنا يصنعون بها ؟، فجـاءهم الشـيطان فقال : كان أباؤكم يعبدونها ، فترحمهم ، وتسقيهم المطر ، فعبدوها ، وتلك كانت بداية عبادة الأوثان [٢].

بينما قال ابن عباس : إن هذه الأصنام أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا ، أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا في مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابا ، وسموها بأسمائهم ، تذكروهم بها ، ففعلوا ، فلم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك ، ونسخ العلم ، عبدت من دون الله [٣].

وذكر جعفر الباقر أن وداً كان رجلاً صالحاً محبباً في قومه ، فلما

---

(١) القرطبي : الجامع ١٨ / ٣٠٨ .

(٢) القرطبي : الجامع ١٨ / ٣٠٨ ، البغوي : معالم التنزيل ٨ / ٢٣٢ .

(٣)القرطبي : الجامع ١٨ / ٣٠٨ ، البغوي : معالم التنزيل ٨ / ٢٣٢ ، ابن كثير : البداية ١ / ١٠٨ .

مات عكفوا حول قبره في أرض بابل ، وجزعوا عليه ، فلما رأى إبليس جزعهم عليه ، تشبه في صورة إنسان ، قائلا لهم : هل لكم أن أصور لكم مثله ، فيكون في ناديكم فتذكرونه ؟ ، قالوا : نعم ، فصور لهم مثله ، ووضعوه في ناديهم ، وجعلوا يذكرونه ، فلما رأى ما بهم من ذكره قال : هل لكم أن أجعل في منزل كل واحد منكم تمثالاً مثله ، ليكون في بيته فتذكرونه ؟ ، قالوا نعم ، فمثل لكل بيت تمثالاً مثله ، فجعلوا ينظرون إليه ، ويذكرونه ، ثم جاء أبناؤهم ففعلوا مثل آبائهم حتى تطاولت عليهم السنون ، فنسوا أصل هذه الصور والأصنام ، واتخذوها آلهة يعبدونها من دون الله ، وكان أول ما عبد وَدّ [(١)].

ولا تعارض بين هذه الروايات حول بدء ظهور عبادة الأوثان بين عهدى آدم ونوح ، إذ كان لكل طائفة من هؤلاء صنما خاصا بها ، قام إبليس بالتلبيس عليهم به ، وإن كنت أضعف الرواية الأولى ، التى تقول: إن ود وسواع ....كانوا أولاد آدم ، إذ لو كانوا كذلك لكانوا قريبى عهد بدعوة شيث ، ومن بعده إدريس ، وأرجح أن هذا الانحراف فى العقيدة قد حدث فيما بين عهدي إدريس ونوح – عليهما السلام – بسبب تلبيس إبليس عليهم بصورهم ، لذلك حذرنا الرسول ﷺ من هذا الأمر ، حينما ذكرت أم سلمة ، وأم حبيبة ، تلك الكنيسة التى رأينها بأرض الحبشة ، وما فيها من تصاوير ، حيث قال ﷺ : (**أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا ، ثم صوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله عز وجل يوم القيامة**) [(٢)].

---

(١) ابن كثير : البداية ١ / ١٠٨ ، ١٠٩ .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الصلاة ، باب هل تنبش قبور =

وعلى الرغم من حدوث الطوفان ، واندثار تلك الأوثان ، وهلاك من كـان يعـبدها على عهد نوح ، على الرغم من ذلك فقد تسربت عبادة الأوثـان جيلا بعد جيل ، حتى وصلت للقبائل العربية على عهد رسول الله ﷺ ، فصـار وَدٌّ معـبوداً لقبيلة كلب بدومة الجندل ، ثم انتقل إلى قـريش ، وبـه سمى عمرو بن وَدّ ، واستقر سواع معبودا لهزيل على ساحل البحر الأحمر ، وأما يغوث فكان لمراد ، ثم لبنى عطيف بالجرف عـند سبأ ، وأصبح يعوق معبودا لهمدان ببلـخ ، وأما نَسْر فكان لكلاع مـن حمـير ، وكانت هذه الأوثان مختلفة الأشكال والصور ، فود كان على صورة رجل ، وسواع على صورة امرأة ، ويغوث مجسم لأسد ، ويعوق على صورة فرس ، ونسر على صورة الطائر [١].

وإن دل هذا الأمر على شئ ، فإنه يدل على أن الانحراف ولو كان طفيفا فى العقيدة ، فإنه قد يفسدها فى خاتمة المطاف ، فهؤلاء الرجال الصالحون تحولوا بعد تصويرهم إلى أوثان تعبد من دون الله ، ليس هذا فحسب ، بل وتحولت صورهم بعد حين من الزمن إلى صور لحيوانات وطـيور ونسـاء ، ومن ثم كان التحريم لكل ما قد يؤدى إلى مثل هذا الأمر فى حديث الرسول ﷺ عن كنيسة الحبشة ، وما فيها من تصاوير ، بل ولعن من يقوم بذلك الأمر .

دعوة نوح لقومه وموقفهم منه

بعد أن انتشر الفساد فى الأرض ، وعم البلاء بعبادة الأصنام ، بعث

= مشركي الجاهلية ويتخذ مكانها مساجد ، حديث رقم ٤٠٩ ، ابن كثير : البداية ١ / ١٠٩ .

(١) القرطبي : الجامع ١٨ / ٣٠٩ ، البغوي : معالم التنزيل ٨ / ٢٣٢ ، ٢٣٣

الله نوحا لدعوة قومه إلى عبادة الله الواحد القهار ، والنهى عن عبادة ما سواه ، وإفراده بالعبادة ، ودعوتهم للتوبة ، والرجوع إلى الحق ، والعمل بما أمر الله به ، حتى يكتب لهم النجاة فى الدنيا ، والفوز فى الآخرة [١] ، حيث قال تعالى : ﴿ **إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ [٢].

يبدو أن قوم نوح دهشوا لسماع تلك الدعوة ، فبادروا إلى وأدها فى مهدها ، واتهام من يقوم بها بالبشرية ، وأنه لا يهدف من وراء ذلك إلا أن ينال مكانة مرموقة عليهم ، ودللوا على رأيهم بأنه لو أراد الله أن يرسل رسولا ، لأرسل ملكا من السماء ، ثم أضافوا إلى اتهامهم اتهاما آخر ، وهو اتباع العوام لنوح ، وهم الأراذل الذين قبلوا دعوته من غير نظير ولا روية ، وهذا ليس بدليل لهم بل هو يبطل دعواهم ، لأن الحق الظاهر لا يحتاج إلى فكر وتدبر ، بل يجب اتباعه والانقياد له متى ظهر [٣]. قال تعالى : ﴿ **فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ** ﴾ [٤] وقال سبحانه على لسان قوم نوح : ﴿ **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي**

---

(١) ابن كثير : البداية ١/ ١٠٩ ، ابن الأثير : الكامل ١ / ٦٨ .

(٢) الآيات ١- ٤ سورة نوح .

(٣) ابن كثير : البداية ١ / ١١٠ .

(٤) الآية ٢٧ سورة هود .

آبَائنَا الأوَّلِينَ ﴾ [١].

وقد علق القرطبي[٢] على دعوى قوم نوح باتباع الأراذل له فقال : كان هذا جهلا منهم ، لأنهم عابوا على نبى الله نوح ذلك ، والأنبياء إنما عليهم أن يأتوا بالبراهين ، وليس عليهم تغيير الصور والهيئات ، وهم مبعوثون إلى الناس كافة ، فإذا أسلم منهم الدنيء لم يلحقهم من ذلك نقص ، لأن عليهم أن يقبلوا إسلام كل من أسلم منهم ، مع العلم أن المراد بالأراذل هم الفقراء والضعفاء .

لم يقف قوم نوح عند هذا الاتهام فحسب ، بل سارعوا إلى اتهام نوح - عليه السلام - بالضلال ، بل وبالجنون ، فيما يقوله لهم من أوامر ونواهي ، حيث قال تعالى : ﴿ قَالَ الْمَلأُ من قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِين ﴾ [٣]، وقال سبحانه على لسان نوح : ﴿ إِنْ هُوَ إِلا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ ﴾ [٤].

نفى نوح - عليه السلام - دعوى قومه عليه بالضلال والجنون ، وبين لهم أنه رسول من رب العالمين ، ناصح لهم ، مخبر بما خفى عنهم ، وأنه لا غضاضة فى أن يكون رسولا من بين أظهرهم ، ليهديهم إلى الطريق المستقيم ، لا سيما وأنه لا يطلب منهم مالا ولا أجرا على هذه الدعوة ، فأجره وثوابه عند الله تعالى ، فقال تعالى على لسان نوح : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ

---

(١) من الآية ٢٤ سورة المؤمنون .

(٢) الجامع ٩ / ٢٣ .

(٣) الآية ٦٠ سورة الأعراف .

(٤) الآية ٢٥ سورة المؤمنون .

الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [1].

واصل نوح دعوته لقومه مرهبا لهم تارة ، ومرغبا لهم أخرى ، وواثقا من نصر الله له في كلتا الحالتين ، حيث بين أنه على يقين من نبوته ورسالته ، وإن لم تصل إلى شغاف قلوبهم ، ولا يمكنه أن يفرضها عليهم فرضا ، حيث قال تعالى على لسانه : **﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّيَ وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾** [2].

حاول قوم نوح مساومته على الاستجابة لدعوته في مقابل طرده لمن معه من الضعفاء والفقراء ، فأبى – عليه السلام – ذلك ، لأنهم هم الذين صدقوه ، وآزروه ، وضعف حالهم ليس عيبا فيهم ، لأنه مرسل للناس كافة ، ومرد ذلك إلى الله تعالى ، الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور[3] حيث قال تعالى على لسان نبيه نوح : **﴿ وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ وَلَـكِنِّيَ أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾** [4].

أفحمت هذه الكلمات قوم نوح ، فاتجهوا إلى اتهامه بأنه من طلاب

---

(١) الآيات ٦١ – ٦٣ سورة الأعراف .

(٢) الآية ٢٨ سورة هود ، القرطبي : الجامع ٩ / ٢٥ .

(٣) القرطبي : الجامع ١٣ / ١٢٠ ، ١٢١ ، ٩ / ٢٦ ، البغوي : معالم التنزيل ٤/ ١٧١ ، ١٧٢ ، ٦ / ١٢١ .

(٤) الآيتان ٢٩ ، ٣٠ سورة هود .

متاع الدنيا ، فنفى نبى الله نوح – عليه السلام – هذا الاتهام ، وبين أنه لا يسـألهم أجرا على تبليغ الدعوة ، فأجره عند الله ، فنقلوا التهمة إلى الذيـن اتبعوه ، بأنهم ما آمنوا به إلا ابتغاء متاع الدنيا ، فدافع نوح عن أتباعه ، بأنهم آمنوا به ، وآزروه ، ونصروه ، عن إيمان به وبرسالته ، وأن الغيـب لا يعلمـه إلا الله ، ولا علم لنوح به ، إذ هو بشر ، وليس بملك [١] حيث قال تعالى على لسان نبيه : ﴿ وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَـالاً إِنْ أَجْـرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّه ﴾ [٢]. وقال سبحانه : ﴿ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ [٣].

لم يثمر الحوار الممتد من جيل إلى جيل فى قبول قوم نوح لدعوته ، فاتجـه – عليه السلام – إلى ترغيب قومه فى الإيمان به ، وبدعوته ، وبيان ما سوف يعود عليهم فى دنياهم وأخراهم من نعيم مقيم ، وغفران المولـى لمـا بدو منهم من ذنوب ومعاصى إن هم آمنوا به ، ليس هذا فحسب ، بل سوف يغير المولى ما حاق بهم من جدب وقحط ، ونقص فى الأموال والأنفس والثمرات .

فقد روى مقاتل أن قوم نوح لما كذبوه زمنا طويلا ، حبس الله عنهم المطـر ، وأعقـم أرحـام نسـائهم أربعين سنة ، وهلكت مواشيهم ، وزروعهم، فالتجئوا إلى نوح مستغيثين به، فدعاهم[٤].قائلا:﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُـمْ إِنَّـهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ

---

(١) القرطبي ٩ / ٢٦ ، ٢٧ ، ابن كثير : البداية ١ / ١١١ .

(٢) من الآية ٢٩ سورة هود .

(٣) من الآية ٣١ سورة هود .

(٤) القرطبي : الجامع ١٨/ ٣٠٢ ، البغوي : معالم التنزيل ٨ / ٢٣٠ .

وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾ (١).

اســتمر قوم نوح على كفرهم وعنادهم لنبيهم ، فحاول نوح – عليه السلام – أن يدعوهم إلى الله عن طريق النظر فى آياته وكونه وقدرته ، فذكرهم بأطوار خلقهم ، وما فى الكون من سبع سماوات طباق ، وشمس ، ونجــوم ، وأفلاك ، وما يسره لهم المولى من أرض مبسوطة ، مذللة لهم ، فلم يلق ذلك منهم آذانا صاغيه ، ولا قلوبا واجفة ، فأصروا على كفــرهم وعــنادهم ، حيث قال تعالى على لسان رسوله : ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَــرْجُونَ لِلَّــهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَــمَاوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا وَاللَّهُ أَنبَــتَكُم مِّنَ الارْضِ نَبَاتًا ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الارْضَ بِسَاطًا لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ (٢).

يأس نوح من إيمان قومه

استمر نوح – عليه السلام – في دعوة قومه للإيمان برسالته قرونا عديــدة ، حتى أصابه اليأس من قبولهم لدعوته ، فرفع أكف الضراعة إلى الله ، مشتكيا له من كفر قومه به ، وهو الذى بذل فى سبيل دعوته كــل طاقته وجهده ، فدعاهم باالليل والنهار ، فلم يزدهم دعائه إلا مزيدا من الفرار منه ومن دعوته ، بل وامتنعوا عن سماعه ، أو النظر إليه ، أو لقائــه فرادى ، أو جماعات ، سرا ، أو علانية ، ليلا ، أو نهارا ، حيث قال الله تعالى على لسان نوح : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَــارًا فَلَــمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلا فِرَارًا وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ

(١) الآيات ١٠ – ١٢ سورة نوح .

(٢) الآيات ١٣ – ٢٠ سورة نوح .

جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾[1].

ويقول ابن عباس مبينا صبر نوح على قومه : لقد رجا نوح – عليه السلام – الأبناء بعد الآباء ، فيأتي بهم الولد بعد الوالد ، حتى بلغوا سبع قرون ، فدعا عليهم بعد اليأس منهم [2]. ولقد تمادى قوم نوح في تكذيبه ، والكفر به ، وانتظر نبى الله الجيل بعد الجيل ، فلا يأتى قرن إلا كان أخبث من الذى قبله ، حتى كان آخرهم ليقول : كان هذا مع آبائنا وأجدادنا هكذا مجنونا ، لا يقبلون منه شيئا ، فشكا نوح أمره إلى الله تعالى قائلا : (ربى إني دعوت...) [3].

ومما لاقاه نوح من قومه : أنهم كانوا يدخلون عليه فيخنقونه حتى يترك وقيذا ، ويضربونه فى المجالس ، ويطرد ، فلا يدعو على من صنع به ذلك ، بل يدعو لهم قائلا : **(ربى اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون)** ، فكان لا يزيدهم ذلك إلا فرارا منه ، حتى إنه ليكلم الرجل منهم فيلف رأسه بثوبه ، ويجعل إصبعيه فى أذنيه ، لكيلا يسمع شيئا من كلامه ، لذلك قال عليه السلام : **﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ ... ﴾** [4].

ويروى ابن عباس مشهدا آخر من معاناة نوح من قومه ، فيقول : إن نوحا كان يضرب ، ثم يلف فى لبد ، فيلقى فى بيته ، يرون أنه قد

---

(١) الآيات ٥- ٩ سورة نوح .

(٢) القرطبي : الجامع ١٨ / ٣٠٦ .

(٣) البغوي : معالم التنزيل ٤ / ١٧٣ .

(٤) القرطبي : الجامع ٩ / ٤٣ .

مـــات ، ثم يخرج إليهم ، فيدعوهم ، حتى إذا يئس من إيمان قومه جاء رجل معه ابنه وهو يتوكأ على عصا ، فقال:يا بنى انظر هذا الشيخ ، لا يغـــرنك ، قال : يا أبت أمكنى من العصا ، فأمكنه ، فمشى إلى نوح ، فضـــربه ، فشجه شجه فى رأسه ، وسالت الدماء ، فقال نوح : ربى قد تـــرى ما يفعل بى عبادك ، فإن يك لك فى عبادك خيرية فاهدهم ، وإن يـــك غير ذلك فصبرنى إلى أن تحكم وأنت خير الحاكمين ، فأوحى الله إليه وأيئسه من إيمان قومه ، وأخبره أنه لم يبق فى أصلاب الرجال ، ولا فى أرحام النساء مؤمن [1].

أدرك نـــوح أنـــه لا فائدة ترتجى من مواصلة دعوة قومه ، بعد أن انقطع الأمل فى إيمانهم ، فبدأ بمقارعتهم بالحقيقة ، وأنهم وإن كانوا قد نـــالوا مـــنه فإنه لا يخشاهم ، ليس هذا فحسب ، بل ولن يستطيعوا أن يصـــلوا إلـــيه ، لأنه واثق من نصر الله له ، وغير خائف من كيدهم ، لأنهم وآلهتهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، وهـــذا من دلائل نبوته – عليه السلام – [2]. حيث قال تعالى على لسانه : **﴿ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَـيْكُم مَّقَامِـي وَتَذْكِـيرِي بِآيَاتِ اللّهِ فَعَلَى اللّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ ﴾** [3].

استشاط قوم نوحا غضبا لاستمرار نوح فى دعوته ، وإظهار ثقته في نصر الله له ، فطالبوه متهكمين أن ينزل عليهم ما وعدهم به من العذاب ، إن كـــان صادقا فى دعواه ، ففوض نوح أمر العذاب لله تعالى ، وأكد لهم

---

(١) القرطبي : الجامع ٩ / ٤٣ ، البغوي ٤/ ١٧٣ ، ابن الأثير : الكامل ١/ ٦٩ .

(٢) القرطبي : الجامع ٨/ ٣٦٢ ، ٣٦٤ ، البغوي : معالم التنزيل ٤/ ١٤٣

(٣) من الآية ٧١ سورة يونس .

أنهــم غير متروكين ، ولا معجزين لله تعالى ، بعد أن أعجبوا بكثرتهم ، وأن دعوته لهم لم تعد تجدى ، بعد أن كتب الله عليهم الضلال ، ويوشك أن ينزل بهم الهلاك[١] ، حيث قال تعالى : ﴿ **قَالُواْ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَــنَا فَأْتِــنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللّهُ إِن شَاء وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾ [٢].

لم يطق قوم نوح صبرا على كلام نبى الله لهم ، فهددوه بالكف عن دعوتــه ، وسب آلهتهم ، وإلا سوف يقتلونه ، ويتخلصوا منه ، فطلب نــوح من ربه أن يحكم بينه وبين قومه المعاندين ، فأوحى الله إليه بأن يقطــع حبل الرجاء من إيمانهم ، لأن العذاب واقع بهم لا محالة ، فلا تأخذه بهم رأفة أو شفقة [٣] حيث قال تعالى : ﴿ **قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَــنَّ مِــنَ الْمَرْجُومِينَ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [٤] وقال سبحانه: ﴿ **وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ** ﴾ [٥].

فصــمت هذه الآية كل صلة بين نوح وقومه المعاندين ، فكف عن التماس الهداية لهم ، وشكا إلى الله عصيانهم ، وتمسكهم بآلهتهم ، التى

---

(١) القرطبي : الجامع ٩ / ٢٧ ، ٢٨ .

(٢) الآيات ٣٢ – ٣٤ سورة هود .

(٣) القرطبــي : الجــامع ١٣ / ١٢١ ، ٩/ ٢٩ ، ٣٠ ، الـبغوي : معالم التنزيل ٦ / ١٢١ ، ١٢٢ ، ٧ / ٧٢٨ .

(٤) الآيات ١١٦ – ١١٨ سورة الشعراء .

(٥) آية ٣٦ سورة هود .

لا تغنى ولا تسمن من جوع ، وضلال الأغنياء من قومه بثرواتهم ، ثم إضـــلالهم للفقراء ، وتلبيسهم عليهم بما هم فيه من نعمة المال والولد ، مما دفع نوح إلى الدعوة على الجميع بقطع دابرهم ، ونسلهم من الأرض ، حتى لا يبقى لهم أثر [١].

أخـــرج المولى كل مؤمن من أصلابهم ، وأرحام نسائهم ، ثم أعقم الأرحـــام ، وأيبس الأصلاب ، وذلك قبل الطوفان بأربعين سنة ، وأعلم المولى نوحا أنهم لا يؤمنون ، ولا يلدون مؤمنا ، فحينئذ دعا عليهم نوح ، فاستجاب الله دعائه ، وأهلكهم بالطوفان [٢]. حيث قال تعالى : ﴿ **قَالَ نُـــوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلا خَسَارًا وَمَكَـــرُوا مَكْرًا كُبَّارًا وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلا ضَلالا مِمَّـــا خَطِيـــئَاتِهِمْ أُغْـــرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلا فَاجِرًا كَفَّارًا** ﴾ [٣]. كما قال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ** ﴾ [٤]. وقال سبحانه على لسان نوح : ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِـــنَ الْمُؤْمِنِينَ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ثُمَّ أَغْرَقْنَا**

---

(١) القرطبي : الجامع ١٨ / ٣٠٦ ، ٣٠٧ .

(٢) البغوي : معالم التنزيل ٨ / ٢٣٤ .

(٣) الآيات ٢١ – ٢٧ سورة نوح .

(٤) الآيات ٧٥ – ٧٩ سورة الصافات .

بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴾ (١).

كمـــا دعا نوح – عليه السلام – لنفسه ، ولوالديه ، ولمن آمن معه بالغفـــران ، والـــنجاة من الهلاك ، وعلى الظالمين بالخسران فى الدنيا والآخـــرة ، فقـــال تعالى : **﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلا تَبَارًا ﴾** (٢). وبذلك تبدأ مرحلة جديدة فى حياة نبى الله نوح وهى :

الأمر بصناعة الفلك ووصفها

أمر المولى نوحا بصنع الفلك ، لتكون طوق نجاة له ، ولمن آمن به ، وبشره برعايته ، وحفظه ، ومتابعته أثناء صناعتها ، وتعلل نوح بأنه ليس بـــنجار ، ولم تكن صناعة السفن معروفة آنذاك ، فأوحى الله إليه أن يبدأ وعين المولى ترافقه ، فبدأ نوح بغرس شجر الفلك فى مائة عام ، ثم جمعه وهو من خشب الساج أو الصنوبر ، وبدا فى إعداد لوازم الفلك ، من ضرب الحديد ، وإعداد القار ، وغيره ، وقلم بتهيئة الخشب فى مائة عام أخرى(٣).

وبـــدأ نوح فى تشييد هذا البناء العجيب ، الذى لم يكن للناس عهد به ، وجعـــل الســـفينة رأسها كرأس الديك ، وجؤجأها كجؤجؤ الطير ، وذنَبها كذَنب الديك ، وجعلها ثلاثة طوابق ، وطلى ظاهرها وباطنها بالقار ، وبلغ طولها ثلاثمائة ذراع ، وعرضها خمسون ذراعا ، وسمكها ثلاثون ، وكان بابها فى عرضها ، ولها غطاء من فوقها مطبق عليها ، وكان نوح يعمل فى صـــناعتها بنفسه هو ومن آمن معه من أتباعه ، وكانت يده لا تخطئ فى

---

(١) الآيات ١١٧ – ١٢٠ سورة الشعراء .

(٢) الآية ٢٨ سورة نوح .

(٣) ابن كثير : البداية ١/١١٣ ، ١١٤ .

الصـــناعة ، بل كانت أمهر ما تكون ، وأتم نوح صناعة الفلك فى أربعين عاما [١]. قال تعالى : ﴿ **فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا** ﴾ [٢].

لا مـــراء فى أن هذا العمل غير المسبوق قد أثار اهتمام قوم نوح ، وهم يرونه يعمل السنين الطوال فى هذا الفلك ، الذى لم يكن لهم عهد به ، فـــتهكموا وســـخروا منه ، وسألوه عنه ، فقال نوح : أبنى بيتا يمشى على الماء ، فقالوا له كيف وليس بقربنا ماء ، أصرت يا نوح بعد النبوة نجـــاراً؟ فمـــا زاده هذا القول إلا ثباتا ، ويقينا بنصر الله ، وانتقامه من الكافرين ، وأنه سوف يأتي اليوم الذى يسخر فيه هو والمؤمنون منهم ، وذلـــك عند نزول العذاب الأليم بهم [٣] ، فقال تعالى : ﴿ **وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَـــا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْـــخَرُ مِـــنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ** ﴾ [٤].

فـــرغ نوح – عليه السلام –من بناء السفينة ودفعته شفقته ورحمته بقومه إلى دعوتهم للإيمان به ، والركوب معه ، بعد أن أخبرهم أن الله – عـــز وجل – سوف يغرق الأرض بالطوفان ، حتى يطهرها من أهل

---

(١) ابن كثير : البداية ١ / ١١٣ ، ١١٤ ، القرطبي : الجامع ٩/ ٣٠ ، ٣١ ، ٤٣ ، الـــبغوي : معـــالم التنزيل ٤/ ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، الطبري : تاريخ الرسل ١/ ١٨١ ، ١٨٣ .

(٢) من الآية ٢٧ سورة المؤمنون .

(٣) الطـــبري : تاريخ الرسل ١ / ١٨٣ ، القرطبي : الجامع ٩ / ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، البغوي : معالم التنزيل ٤ / ١٧٥ .

(٤) الآيتان ٣٨ ، ٣٩ سورة هـــود .

المعاصى والذنوب ، ولكنهم أصموا آذانهم عن هذه الدعوة الكريمة ، كما أصموها طيلة تسعمائة وخمسين عاما ، وأصبح نوح – عليه السلام – يترقب وقوع الطوفان بين لحظة وأخرى (١).

بدء الطوفان وحمل نوح مَنْ أمر الله بحمله

بعد أن أتمّ نوح – عليه السلام – صنع الفلك ، أوحى الله إليه أن يتأهب لركوبها ، إذا ما وقع أمر الله ، هو ومن آمن به من أهل بيته وغيرهم ، وكانوا ثمانين فردا ، ثلاثة من بنيه : سام ، وحام ، ويافث ، وثلاثة كنائن له ، كما أمره المولى أن يحمل معه من كل زوجين اثنين من سائر المخلوقات وطعامها وطعامه ، حتى لا تندثر الحياة من على الكوكب الأرضى بالطوفان ، وألزم المولى نوحا– عليه السلام– ألا يحمل معه إلا من كان مؤمنا بالله ، ومن ثم حُرِمَتْ واعلة زوجة نوح ، وابنه كنعان من ركوب الفلك ، كما حذر المولى نوحا– عليه السلام– من أن يراجعه فيمن كفر إذا ما نزل العذاب بهم(٢) ، حيث قال تعالى : **﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾** (٣).

وكانت علامة بدء الطوفان ، وركوب السفينة هى : فوران الماء من التنور ، الذى كانت تخبز فيه زوجته وكان هذا التنور لأمنا حواء ، ثم صار لنوح – عليه السلام – ، و لا مراء فى أن خروج الماء من قلب

---

(١) اليعقوبي : تاريخه ١/ ١٤ .

(٢) ابن كثير : البداية ١/ ١١٤ ، القرطبي : الجامع ٩ / ٣٤ ، ٣٥ ، البغوي : معالم التنزيل ٤ / ١٧٧ .

(٣) آية ٤٠ سورة هود .

التــنور الذى هو موضع النار ، واشتعالها ، كان علامة مميزة لنوح – علــيه الســلام- ، لا تخطؤ ها العين ، وقيل : إن المراد بالتنور وجه الأرض ، وخــروج المــاء مــن سائر أرجائها ، حتى إنها خرجت من التنانير التى هى موضع النار ، وإن كان الطبرى رجح الرأى الأول ، لأن ذلــك هــو المعروف من كلام العرب ، وكلام الله لا يوجه إلا إلى الأغلب الأشهر من معانية عند العرب ، إلا أن تكون هناك حجة بخلاف ذلك [١]. قال تعالى : ﴿ **فَإِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ** ﴾ [٢].

وقع أمر الله ، وفار التنور ، فسارع نوح – عليه السلام- بحمل من أمــر الله بحملــه معــه ، من بنيه ، والمؤمنين به ، وسائر الطيور ، والحــيوانات ، ومــا يحــتاجه مــن طعام ، وشراب للجميع ، فوضع الحيوانات فى الطابق الأسفل من السفينة ، والطعام والشراب فى الأوسط ، وركــب هو ومن معه فى الطابق الأعلى ، وحمل معه جسد جده آدم وحــواء ، وأنــزل المولى من السماء ماءً لم تعهده الأرض من قبل ، اســتمر أربعيــن يوما ، وأُمرت الأرض فنبع الماء من جميع أنحائها ، وسائر أرجائها ، وأظلمت الدنيا ، وذهب ضوء الشمس والقمر ، لينزل أمر الله المقدور بإغراق المكذبين برسالة نوح – عليه السلام- ، ونجاة المؤمنيــن [٣]. حيث قال تعالى : ﴿ **فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ**

---

(١) ابن كثير : البداية ١/١١٢ ، القرطبي : الجامع ٩/٣٣ ، البغوي : معالم التنزيل ٤/ ١٧٦ .

(٢) من الآية ٢٧ سورة المؤمنون .

(٣) الطبري : تاريخ الرسل ١/١٨٣ ، القرطبي ٩/٣٢ ، ابن كثير : البداية ١/ ١١٥ ، البغوي : معالم التنزيل ٧/ ٤٢٨ ، اليعقوبي : تاريخه ١/١٤.

وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ [١] ،

دخل نوح – عليه السلام – ومن معه الفلك ، بعد أن غطاه من أعلى ، وبعـد أربعين يوما من بدء الطوفان ارتفعت الفلك بهم ، وبدأت تشق طريقها فى موج كالجبال ، وذلك فى العاشر من رجب ، وبدأ المجرمون من قوم نوح يذوقون الحسرة والندامة ، قبل أن تدهمهم الأمواج ، جراء عصيانهم ، وتهكمهم على نبى الله نوح ، الذى دفعته عاطفة الأبوة إلى مناداة ابنه كنعان بسرعة الركوب معه ، قبل أن تدهمه الأمواج ، ولكن هـذا الابن كان من الأشقياء ، إذ أضمر الكفر ، وامتنع عن الاستجابة لطلب أبيه ، واغتر بأنه سيأوي إلى قمة جبل ، حتى ينجو من الطوفان ، ولكن نوحا – عليه السلام – حذره من ذلك ، لأنه لا نجاة إلا بالركوب معه ، والإيمان بالله ، ولكنه أبى واستكبر ، فدهمه الموج ، فكان من المغرقين ، وهلك مع من هلك ، بينما نجى المولى المؤمنين بنوح ، وإن كانوا من غير نسبه وصلبه[٢] ، حيث قال تعالى : **﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُـن مَّعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لاَ عَاصِـمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾** [٣].

---

(١) الآيات ١١ – ١٣ سورة القمـر .

(٢) الطـبري : تـاريخ الرسـل ١/ ١٨٤ ، ابن كثير : البداية ١/ ١١٦ ، القرطبي : الجامع ٩/ ٣٨ ، ٣٩ .

(٣) الآيتان ٤٢ ، ٤٣ سورة هـود .

نفـذ أمر الله ، وعم الطوفان جميع الأرض ،طولها وعرضها ، ولم يـبق على وجه الأرض من الأحياء عين تطرف ، لا سيما قوم نوح ، الذين كانوا قد ملئوا السهل والجبل ، وارتفع الماء عن أعلى جبل على سـطح الأرض بخمسة عشر ذراعا ، ولو رحم الله أحداً من قوم نوح ، لرحم أم الصبى ، إذ كانت تحبه حبا شديدا ، فلما وقع الطوفان خرجت بـه إلـى الجـبل ، حتى بلغت ثلثه ، فلما بلغها الماء خرجت به حتى استوت على الجبل ، فلما بلغ الماء رقبتها ، رفعته بيديها فغرق ، فلو رحم الله منهم أحدا ، لرحم أم هذا الصبى[1].

وهـذا الأمر يطرح سؤالا وهو ما ذنب هؤلاء الأطفال **الصغار** يموتون بالطوفان ، وهم **ليسوا** فى سن التكليف ؟

أجـاب القرطبى عن هذا بأن الغرق لم يكن عقوبة للأطفال الذين ظلوا على قيد الحياة حتى الطوفان ، بل ماتوا بآجالهم [2].

* عموم الطوفان للأرض

ومما هو مرتبط بقضية طوفان نوح سؤال يطرح نفسه هل كان هذا الطوفـان عاما فى جميع أنحاء الأرض ؟ أم كان مقصورا على منطقة قوم نوح دون غيرهم ؟

بعض المفسرين يـرى أنه كان عاما للكوكب الأرضى على مقتضى ظاهر الكتاب والسنة ، ويؤيد هذا الرأى أن علماء الجيولوجيا وجدوا فى قمـم الجـبال بقايـا لأحياء لا تعيش إلا فى الماء ، مما يرجح وصول الطوفان لهذه القمم ، ويستأنس هؤلاء بقوله تعالى : ﴿ **وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ**

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل ١/ ١٨٤ ، ابن كثير : البداية ١/ ١١٦ ، ١١٧

(٢) القرطبي : الجامع ٩ / ٤١ .

الْبَاقِينَ ﴾ [١] أى لم ينج من الطوفان إلا من كان مع نوح فى الفلك [٢].

ويـرى آخـرون أن الطوفان لم يكن عاما ، بل طغى على الجهة التى كـان يسكنها نوح – عليه السلام – وقومه ، وأما بقية بقاع الأرض فلم يعمها الطوفان ، ولذلك قال الصينيون : إن الطوفان لم يصلهم ، كما أن الهنود يزعمون أن عمران بلادهم يمتد فى الماضى إلى تاريخ أبعد من تاريخ طوفان نوح ، وأن عمران بلادهم متصل من أعمق أجيال التاريخ إلى اليوم ، أى لم ينقطع بمثل هذا الطوفان [٣].

وقد نسلم أن الطوفان لم يعم الأرض ، ولكنه عم البشر ، لأنهم كانوا منحصرين فى هذه البلاد التى أصابها الطوفان ، ولئن كانت أدلة عموم الطوفـان غـير قطعية ، فإن أدلة الذين أنكروه غير قوية ، فلا نترك ظواهر الكتاب والسنة لأجلها [٤].

سفينة نوح منذ الطوفان وحتى رسوها

ركـب نوح – عليه السلام – الفلك فى العاشر من رجب ، وظلت السفينة تمخر عباب الموج ، الذى كان كالجبال من شدة هوله ، وطافت الفلـك بالبيـت الحـرام سبعا ، إذ إن الله قد رفعه فلم ينله غرق ، ثم واصـلت الفلك تجوالها حتى أتمت خمسة شهور ، فأذن لها المولى أن

---

(١) الآية ٧٧ سورة الصافات .

(٢) ابـن عاشـور : الـتحرير ١٢ / ١٢٥ ، عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء ص ٣٦ .

(٣) ابـن عاشور : التحرير ٣/ ٨٨ ، عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء ص٣٦ .

(٤) ابن عاشور : التحرير ١٢ / ١٢٥ .

ترسو على جبل الجودى ، بالقرب من الموصل [١].

ظلـت سفينة نوح على هذا الجبل شهرا كاملا ، حيث أمر المولى سمائه أن تمسك الماء ، وأرضه أن تبلع ما عليها ، وانحسر الطوفان ، بعد أن قُضىَ أمر الله بهلاك قوم نوح ، ونجاته هو ومن معه فى الفلك[٢] حيـث قـال تعـالى : ﴿ **وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِـيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾ [٣].

أراد نـوح - علـيه السـلام - أن يستكشف أمر الطوفان ، ومدى انحساره عن الأرض ، فأرسل الغراب ليأتيه بالخبر ، فوقع على جيفة ، ولم يرجع ، فأرسل(نوحٌ)الحمامة ، فجاءت بورقة زيتون فى منقارها ، ولطخـت رجلـيها بالطين ، فعلم أن الماء قد انحسر ، فدعا نوح على الغراب بالخوف ، فلذلك لا يألف البيوت ، وطوق الحمامة بالخضرة فى عنقها ، ودعا لها بالأمان ، ومن ثم فهى تأمن البيوت وتألفها [٤].

هبوط نوح من السفينة وبدء عمران الأرض

بعـد شهر كامل فوق جبل الجودي ، وبعد انحسار الطوفان ، خرج نوح - عليه السلام - ومن معه من الفلك في العاشر من المحرم ، وهو يوم جمعة ، فصامه نوح ، وأمر من معه بصومه شكرا لله تعالى ، الذي أنجـاهم وأهلك المعاندين ، ولما رأى نوح عظام الناس تلوح له ، غمه

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل ١/ ١٨٥ ، القرطبي : الجامع ٩ / ٣٦ .

(٢) القرطبي : الجامع ٩ / ٤٠ ، ٤١ .

(٣) الآية ٤٤ سورة هـود .

(٤) ابن كثير : البداية ١ / ١٢٠ ، القرطبي : الجامع ٩ / ٤٤ .

ذلـــك ، وأحزنه ، فأوحى الله إليه أنى لن أرسل الطوفان على الأرض مرة أخرى ، وأقفل نوح السفينة ، ودفع مفتاحها إلى ولده سام ، ونزل نـــوح بمنطقة قردى من أرض الجزيرة ، وابتنى قرية سميت ثمانين ، لأن كـل واحـد ممـن كان معه ابتنى لنفسه بيتا ، وكانت تسمى بعد ذلك بســوق ثمانيــن[١] ، قال تعالى : ﴿ **قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [٢].

ولقد عاش نوح بعد الطوفان ستين سنة ، هلك فيها من كان معه فى الفلـك ، ولـم يبق إلا أولاده الثلاثة : حام وسام ويافث ، وزوجاتهم ، ومــنهم خرجــت جميع البشرية بعد ذلك ، فسام أبو العرب ، وحام أبو الحـبش ، ويافـث أبو الروم ، حيث قال تعالى : ﴿ **وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ** ﴾ [٣].

وأبقى المولى – عز وجل – سفينة نوح على جبل الجودى حينا من الزمـــن ، لـــتكون آية ماثلة لجميع الأمم ، الذين جاءتهم الرسل بعد نوح ، وتكـون حجة للمؤمنين ، وموعظة للمكذبين ، وقد ظلت هذه السفينة باقية حتى أوائل الدولة العباسية ، ثم غمرتها الثلوج ، فيروى عن قتادة أنه قال : (**بقيت بقايا السفينة على الجودى حتى نظرتها أوائل هذه الأمة**) [٤] ،

---

(١) الطـبري : تـاريخ الرسل ١/ ١٨٩ ، اليعقوبي : تاريخه ١/ ١٥ ، ابن الأثير : الكامل ١ / ٧٣ ، القرطبي : الجامع ٩ / ٤١ ، ٤٩ .

(٢) آية ٤٨ سورة هــود .

(٣) آية ٧٧ سورة الصافات ، الطبري : تاريخ الرسل ١/ ١٩١ ، ١٩٢ .

(٤) أخــرجه ابن أبي حاتم في تفسيره سورة هود قوله : الجودي : حديث رقم ١٠٥٢ ، القرطبي : الجامع ٩ / ٤١ ، ابن عاشور : التحرير ١٠ / ٤٧٢ .

وقال تعالى عن السفينة : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [(١)].

ما انفرد به نوح دون غيره من الأنبياء

اختص المولى – عز وجل – نوحا بالعديد من الخصائص التى لم يشاركه فيها أحد من اللاحقين له من الأنبياء والرسل ومن أهمها ما يلى:

١ – أنه الأب الثانى للبشر مثل آدم حيث إن جميع الخلائق على ظهر الأرض من نسله لقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ [(٢)].

٢– أنه أول رسول للكوكب الأرضى فمن سبقه كان من الأنبياء بدليل حديث الشفاعة المروى عن أبى هريرة (**يا نوح أنت أول الرسل إلى الأرض**) [(٣)] ، كما أنه أول أولى العزم من الرسل ، وأول نبى من أنبياء الشريعة حيث نسخت بعثته شريعة آدم التى تحل تزوج الخالات والعمات .

٣– أنه أول نذير على الشرك ، وأول من عذبت أمته لرفضها دعوته ، وأهلك الله أهل الأرض المعاندين بدعائه

٤ – جعلت معجزته فى نفسه ، حيث كان أطول الأنبياء عمرا ، فعمر ما يزيد على ألف سنة ، ولم تسقط له سن ، أو تشب له شعرة ، ولم تنتقص له قوة ، ولم يصبر نبى على أذى قومه مثلما صبر نوح [(٤)].

---

(١) آية ١٥ سورة العنكبوت .

(٢) آية ٧ سورة الصافات .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قوله تعالى : إنا أرسلنا نوحاً ، حديث رقم ٣٠٩٢ .

(٤) ابن كثير : البداية ١/ ١٠٩ ، البغوي : معالم التنزيل ٢/ ٣١٠ ، ٣١١ ، القرطبي : الجامع ٤/ ٦٤ ، ٧ / ٢٣٣ ، القرماني : أخبار الدول ١/ ٦٠ ، ابن عاشور : التحرير ٣ / ٨٨ .

رسالة نوح وبعض صفاته ووفاته

مــن المسلم به أن نوحا هو أول الرسل للأرض ، وقد جاء بشريعة جديــدة ، نســخت شريعة آدم ، تلك التى سار على منوالها شيث ، ثم إدريــس – عليهما السلام – ويبدو أن الجانب الأكبر لشريعة نوح كان يقوم على الدعوة لتوحيد الله ، ونبذ الشرك ، وعبادة الأصنام ، بدليل أنه لبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم لذلك ، فلم يستجب له إلا القليل ، وبالرغم من قيام شريعته على التوحيد إلا أنه لم تخل شريعة إلهــية مــن تحــريم الفواحش ، ما ظهر منها وما بطن ، كما كان من شريعته أيضا تحريم البنات ، والأخوات ، والعمات ،وسائر القرابات[١].

ومن صفات نوح – عليه السلام – أنه كان عبدا شكورا ، يحمد الله على طعامه ، وشرابه ، ولباسه ، وشأنه كله ، حيث قال تعالى عنــه : ﴿ **إِنَّــهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا** ﴾ [٢]. كما صح عن رسول الله ﷺ أنه قال : (**صــام نــوح الدهر إلا يوم عيد الفطر ويوم الأضحى**) [٣]، كما حج – عليه السلام – ومر بوادى عسفان ، حيث قال الرسول ﷺ : (**لقد مر بهذا الوادى نوح وهود وإبراهيم**) [٤].

ولما حضرت الوفاة نوحا قيل له : كيف رأيت الدنيا ؟ ، قال : كبيت لــه بابان ، دخلت من أحدهما، وخرجت من الآخر ، وأوصى نوح إلى

---

(١) القرطبي : الجامع ٤/ ٦٢ ، ابن عاشور : التحرير ١٥/ ٣٢٨ .

(٢) من الآية ٣ سورة الإسراء .

(٣) أخرجه أبو داود في سننه ، كتاب الصيام ، باب ما جاء في صيام نوح ، حديث رقم ١٧٠٤ .

(٤) ابن كثير : البداية ١/ ١٢١ ، ١٢٢ .

ابنه سام ، الذى كان أكبر أولاده ، وفارق نوح الدنيا بعد أن مكث فيها يدعــو إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاما ، وقضى قبل البعثة أربعين سنة ، وبعد الطوفان ستين عاما ، فمات عن ألف وخمسين سنة ودفن فى المسجد الحرام ، فرحمة الله عليك يا نبى الله نوح رحمة واسعة [١].

الشبهتان المنسوبتان لنوح عليه السلام

ذكر العلماء أن عصمة نوح– عليه السلام– مطعون فيها بشبهتين :

الأولى : وهـــى نداء نوح لربه لربه بشأن ابنه كنعان ، الذى رفض ركــوب الفلك مع أبيه ، كما ذكرنا آنفا ، حيث التمس نوح من ربه أن ينجـيه مـــن الغرق ، لأنه من أهله الذين أمر الله نوحا بحملهم معه في السفينة ، حيث قال نوح : ﴿ **رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ** ﴾ [٢]. ولكن هذا الابن كان من الكافرين المغرقين ، حيث قال تعالى لنوح : ﴿ **إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْــأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ** ﴾ [٣]. ممـــا دفع نوح إلى سر-ة الاستغفار ، والإنابة عن هذا الطلب ، فقال : ﴿ **رَبِّ إِنِّـــي أَعُــوذُ بِــكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ [٤]. الأمر الذى يطرح هذا السؤال(كيف يجوز لنبى الله نوح وهو المعصوم أن يقترف مثل هذا الأمر، الذى نهاه

---

(١) القرطبي ٧/ ٢٣٣ ، ابن الأثير : الكامل ١/ ٧٣ ، ابن كثير : البداية ١ / ١٢٣ ، ابن عاشور : التحرير ٣ / ٨٩ .

(٢) من الآية ٤٥ سورة هــود .

(٣) من الآية ٤٦ سورة هــود .

(٤) من الآية ٤٧ سورة هــود .

الله عـــنه ، وزجره فيه ؟ ، وكيف يكون ابن النبى من الكافرين برسالة أبيه ؟ وهل هذا يتعارض مع عصمة نوح ؟)

أجاب العلماء عن هذا الأمر بالعديد من الردود التى تنفى عن نوح هذه الشبهة ، والتمسوا له مخرجا منها ، فإليك بيان ذلك :

١ – قـــيل إن هذا الابن كان منافقا يبطن الكفر ، ويظهر الإيمان ، ولم يكن نوح يعلم ذلك ، فلذلك جاز أن يناديه بالركوب معه فى السفينة ، أخـــذاً بظاهر قوله تعالى : ﴿ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ ﴾ [(1)] ، وغفل نوح عن شرط النجاة وهو الإيمان بالله ، وأن الأهلية الحقيقية تكون معدومة الثمرة مع الكفر ، ولم يعلم نوح حقيقة ابنه إلا بعد امتناعه عن ركوب الفلك معه ، ولذلك حذر المولى نوحا من سؤال هذا الأمر مرة أخرى [(2)] حيث قال سبحانه : ﴿ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [(3)].

٢ – قيل إن كنعان لم يكن ابن نوح لصلبه ، وإنما كان ابن زوجته واعلـــة مـــن رجـــل آخر ، وظن نوح أن وجوده فى حجره يدخله فى مجموع أهل الدين ، الذين وعد الله بنجاتهم من الطوفان

٣ – قيل إن كنعان لم يكن ولداً لنوح من صلبه ، بل ولد على فراش نوح ، إذ كانت زوجة نوح قد خانته فيه لقوله تعالى : ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾[(4)] ،

---

(١) من الآية ٣٣ سورة العنكبوت .

(٢) القرطبي : الجامع ٩ / ٤٥ ، عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء ص٣٨ .

(٣) من الآية ٤٦ سورة هـــود .

(٤) من الآية ١٠ سورة التحريم .

وقول المولى عنه : ﴿ **إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ** ﴾ (١) ، وقد رفض ابن عباس هذا الرأى الأخير ، نافيا له بقوله: (**ما بغت امرأة نبى قط**) ، وأكد أنه كان ابنه لصلبه(٢).

٤ – قيل إن سؤال نوح لربه كان على جهة الاستكشاف والاستعلام وليس الطلب (٣).

والراجح من هذه الآراء أنه كان ابنه لصلبه ، ولكنه كان مخالفا لأبيه فى النية ، والعمل ، والدين ، كما قال الطبرى ، والمراد بنفى الأهلية عنه فى قوله : ﴿ **إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ** ﴾ (٤) أى من الذين وعد الله بنجاتهم ، لأنه من الكافرين الجاحدين برسالة الله تعالى ، ودعوة أبيه نوح (٥).

وهناك من يبرئ نوح – عليه السلام – من هذه الشبهة بأن نداءه لربه كان بعد رسو سفينة نوح على جبل الجودى ، حيث أراد نوح جلب الغفران لابنه فى الآخرة ، بعد يأسه من نجاته فى الدنيا ، حيث غرق مع المغرقين ، ويستأنس أصحاب هذا الرأى بذكر آيات ابن نوح ، بعد آيات رسو سفينة نوح على الجودى (٦) ، حيث قال تعالى :

---

(١) من الآية ٤٦ سورة هود .

(٢) القرطبي : الجامع ٩ / ٤٥ ، ٤٦ ، عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء ص ٣٨ .

(٣) ابن كثير : البداية ١ / ١١٨ .

(٤) من الآية ٤٦ سورة هـود .

(٥) القرطبي : الجامع ٩ / ٤٦ ، ٤٧ ، البغوي : معالم التنزيل ٤/ ٨١ .

(٦) ابن عاشور : التحرير ٧ / ١٤٨ .

﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (١).

الشبهة الثانية :

وهى شبهة خيانة زوجة نوح التى وردت فى قوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾ (٢). فزوجة نوح المذكورة فى الآية تسمى واعلة ، وهى أم كنعان ، والمراد بالخيانة فى الآية الخيانة فى الدين لا فى العرض ، حيث إنها كانت تخبر الناس أنه مجنون ، إذ قالت له : أما ينصرك ربك ؟ ، فقال لها : نعم ، فقالت : متى ؟ ، قال : إذا فار التنور ، فخرجت تقول لقومها : يا قوم والله إنه لمجنون ، يزعم أنه لا ينصره الله إلا أن يفور هذا التنور ، فهذه خيانتها له ، وقيل إنها أظهرت الإيمان وأسرت الكفر (٣).

وبذلك نكون قد أمطنا اللثام عن الشبهتين المنسوبتين لنوح – عليه السلام – وأوضحنا بما لا يدع مجالا للشك براءته منهما ، وثبوت العصمة له ، وبذلك نختم الحديث عن أول رسل الله إلى الأرض ، وننتقل إلى الحديث عن خليل الرحمن إبراهيم وذلك في الفصل التالي .

---

(١) الآيات ٤٥ – ٤٧ سورة هود .

(٢) الآية ١٠ سورة التحريم .

(٣) القرطبي : الجامع ٩ / ٤٧ ، ابن عاشور : التحرير ٧ / ١٤٢ ، ١٠ / ١٤٢ .

الفصل الرابع

❁ إبراهيم عليه السلام ❁

- نسبه ونشأتـه .
- رسالة إبراهيـم .
- دعوة إبراهيـم لأبيه .
- دعوة إبراهيم لقومه .
- مناظرتـه لعباد الكواكب والنجـوم .
- محاورتـه لعباد الأصنام .
- تحطيم إبراهيم للأصنـام .
- محاكمة إبراهيـم .
- عناية المولى بخليله وإنجائه من النار .
- مناظرة إبراهيم للنمروذ .
- هجرة الخليل لبلاد الشـام .
- هجرة إبراهيم لمصـر .
- عودة الخليل لبلاد الشـام .
- زواج إبراهيم بهاجر ومولد إسماعيل .

- إبراهيم يحمل أهله إلى مكان البيت الحرام .
- تفجر بئر زمزم .
- الأمر بذبح إسماعيل .
- مولد إسحاق .
- نزول العذاب بقوم لوط .
- من الذبيح من ولدي إبراهيم .
- إبراهيم يزور ابنه إسماعيل .
- الأمر ببناء البيت .
- ابتلاء إبراهيم بالكلمات .
- ملة إبراهيم ورسالته .
- صحف إبراهيم .
- ما انفرد به إبراهيم دون غيره من الأنبياء .
- الشبهات المنسوبة لإبراهيم .
- أسرة إبراهيم ووفاته .

نسبه ونشأته

هــو إبراهيم بن تارخ ، بن ناحور ، بن ساروغ ، بن أرغوا ، بن فالغ ، بن عابر ، بن شالخ ، بن قينان ، بن أرفخشد ، بن سام ، بن نوح – علــيه الســلام – ، وأمــه بونا ، بنت كرنبا ، بن كرثى ، من بنى أرفخشد ، بن سام ، بن نوح .

ولفظة إبراهيم سريانية ، ترجمتها العربية أب رحيم ، لرحمته فى الجــنة بالأطفال الذين يموتون صغارا إلى يوم القيامة ، وقيل : أن الله ســماه إبراهــيم ليجعله أبا لجمهور من الأمم ، فعلى هذا فهو أب لأمم كثيرة ، وأما تارخ أبو إبراهيم فكان هذا اسما له ، ولقبه آزر ، كما ورد فى القرآن الكريم[1] ، حيث قال : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ ﴾ [2].

ولــد إبراهــيم فى بلدة أور من بلاد العراق ، وكان حاكمها فى ذلــك الوقــت يســمى نمروذ بن كوشى بن كنعان ، الذى أحاط ملكه بمشارق الأرض ومغاربها ، ويروى عن ابن عباس وغيره من أصحاب النــبى ﷺ قولهم : (إن أول ملك مَلَكَ فى الأرض ، شرقها وغربها ، نمروذ بن كنعان ، بن كوشى ، بن سام ، بن نوح ، والملوك الذين ملكوا الأرض كلهــا أربعــة نفر : مؤمنان ، وكافران فالكافران : النمروذ ، وبختنصــر ، والمؤمنان : سليمان بن داود ، وذو القرنين[3] ، مما يدل

---

(١) الطــبري : تــاريخ الرســل ١/ ٢٣٣ ، ابن كثير : البداية ١/ ١٤٤ ، القرطبي : الجامع ٢/ ٩٦ ، ٧ / ٢٢ ، ابن عاشور : التحرير ١/ ٤٦٥ .

(٢) من الآية ٧٤ سورة الأنعــام .

(٣) الطــبري : تــاريخ الرسل ١/ ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ابن قتيبة : المعارف ١/ ٣٢ ، المقدسي : البدء والتاريخ ٣ / ٤٦ ، ٥١ .

علـــى المكانـــة الكبيرة التى تمتع بها هذا النمروذ ، حتى عُد من كبار ملوك الأرض ، ومما يشير إلى عظم العبء الملقى على إبراهيم – عليه السلام –، الذى سيقارع هذا المتجبر العاتي بالحجة ، والمنطق والبرهان

وكان من الأنبياء بين نوح وإبراهيم – عليهما السلام – هود وصالح

ولمـــا أراد المولى – عز وجل – أن يبعث إبراهيم ، ويأذن بميلاده ، جاء أصحاب علم النجوم إلى النمروذ ، وحذروه من ميلاد هذا الصبى ، الذى سيولد فى ملكه ، وسيفارق دين قومه ، ويكسر أصنامهم ، وحددوا له زمن ميلاده ، ولما دخلت سنة ميلاد هذا الصبى ، أرسل النمروذ إلى كل امرأة حبلى ، فحبسها عنده حتى تضع وليدها ، فإن كان ذكرا ذبحه

وإن كان غير ذلك تركها ووليدها ، وشاءت إرادة المولى – عز وجل

أن تنجو أم إبراهيم من هذا الابتلاء العظيم ، إذ كانت جارية صغيرة الســـن ، فلـــم يعرف الناس بحملها ، حتى حانت لحظة الميلاد لإبراهيم عليه السلام [١].

وذكـــر الـــبغوى [٢] رواية أخرى فى شأن ميلاد إبراهيم مفادها أن الـــنمروذ بعد أن حذره الكهان من ميلاد هذا الصبى ، خرج من المدينة ومعـــه جمـــيع الرجال ، وأقام بهم فى معسكر خارجها ، للحيلولة دون التقاء أحد منهم بزوجته ، واحتاج لقضاء حاجة له فى المدينة ، فلم يأمن أحـــداً للقـــيام بذلـــك إلا أبا إبراهيم ، الذى كان موضع ثقة للنمروذ ، وأعطى تارخ النمروذ المواثيق على عدم الاقتراب من زوجته ، ولما نزل تارخ المدينة ورأى زوجته لم يتمالك نفسه – لمشيئة الله تعالى – ،

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل ١/٢٣٤ ، البغوي : معالم التنزيل ٣/ ١٥٩ .

(٢) معالم التنزيل ٣ / ١٦٠ .

فواقع زوجته ، وحملت بإبراهيم ، وأتمت حملها من غير أن يعرف أحد بذلك .

وكيفما كان الأمر فقد حانت لحظة الميلاد ، وشعرت أم إبراهيم بآلام المخـاض ، فخرجـت لـيلا من بيتها إلى مغارة قريبة لها ، فوضعت إبراهـيم ، وأصلحت من شأنه كما يفعل بالمواليد ، ثم أغلقت عليه باب المغارة ، ورجعت إلى بيتها من غير أن يشعر بها أحد ، وكانت تطالعه في المغارة بين الفينة والأخرى ، لتتفقده وتنظر أحواله . فتجده يمتص إبهامـه الذي جعل الله رزقه منه ، ولما سأل آزر زوجته عن حملها ، أخـبرته أنها وضعته ، وأنه قد فارق الحياة ، فصدقها ، وسكت عنها ، وكان ذلك من رحمة الله بإبراهيم ، حيث لم يعلم أحد بحياته إلا أمه[١].

رافقـت عناية المولى ورعايته هذا الوليد في مغارته ، حيث كانت أمـه تأتي إليه لترضعه ، وحلت البركة به ، فكان ينمو نموا سريعا ، فيكـبر في اليوم ما يكبره قرناؤه في شهر ، وفي الشهر ما يبلغه أمثاله فـي السـنة ، حتى فطمته أمه سريعا ، وبلغ المراهقة في خمسة عشر شهرا ، فطلب من أمه أن تخرجه من هذه المغارة ، فاستجابت له [٢].

عـاد إبراهـيم إلى بيته بعد خمسة عشر شهرا من ميلاده ، وكان الـنمروذ قد طالت عليه الفترة ، ولم يظهر هذا الغلام الذي حذر منه الكهـان ، فاتهمهم بالكذب ، ونسي هذا الأمر ، وفرح آزر بابنه فرحا

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل ١/ ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، البغوي : معالم التنزيل ٣/ ١٦٠ ، المقدسي : البدء والتاريخ ٣ / ٤٧ ، ٤٨ .

(٢) الطبري : تاريخ الرسل ١/٢٣٥ ، المقدسي : البدء والتاريخ ٣ / ٤٨ ، البغوي : معالم التنزيل ٣ / ١٦٠ .

شـــديدا ، إذ لم يصدق أن له ابنا فى ريعان الشباب . قد حدث له ما لا يتصوره عقل ، من بلوغه هذه السن فى هذه الفترة الوجيزة ، ولم يكن إبراهيم يدرك مسميات الأشياء ، فكان يسأل أباه وأمه عن كل ما يراه ، فيقولون : له هذه شاه ، وهذا بعير ، وهذه بقرة [١].

كان آزر يبلغ من العمر خمسة وسبعين عاما حينما ولد له إبراهيم ، الذى كان الأوسط بين ثلاثة أخوة ، أكبرهم ناحور ، وأصغرهم هاران ، ومات ناحور فى حياة أبيه ، وأما هاران فأنجب لوط – عليه السلام – ، وتـــزوج إبراهـــيم بســـارة ، التى يزعم البعض أنها ابنة أخيه هاران ، إستناداً إلى أن الزواج ببنت الأخ كان مشروعا آنذاك ، ولو سلمنا جدلا بصحة ذلك ، فإننا نؤكد بأن الأنبياء لا يقدمون على فعله ، لأن نفوسهم تأبـــاه ، والراجح أن سارة وإن كانت بنتا لرجل يسمى هاران ، فهو عم إبراهـــيم ، فهى ابنة عمه وليست ابنة أخيه كما رجح ذلك ابن كثير [٢] وكـــان إبراهيم يحب سارة حبا شديدا ، لدينها ، وقرابتها منه ، وحسنها الباهر ، وقد قيل : أنه لم تكن امرأة بعد حواء إلى زمانها أحسن منها ، رضى الله عنها وأرضاها [٣].

وكـــان أبو إبراهيم ممن يمتهن مهنة صناعة الأوثان ، والأصنام ، ويبيعها ، فكان يكلف إبراهيم وهو صغير وأخواه ببيعها فى الأسواق ، فكـــان إبراهيم ينادى عليها قائلا : من يشترى ما يضره ، ولا ينفعه ، فـــيرجع أخـــواه وقـــد باعوا أصنامهم ، وأما هو فلا يشترى منه أحد ،

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل ١ / ٢٣٥ ، ٢٣٧ .

(٢) ابن كثير : البداية ١/ ١٤٤ ، ١٥٤ ، ١٥٥ .

(٣) المصدر السابق ١ / ١٥٧ .

فيذهـــب بهـــا ويلقيها فى النهر ، استهزاء بها ، حتى فشا أمر ذلك بين الناس [١] ، وولد حنق آزر على إبراهيم ، الذى ترك هذه المهنة واختار مهـــنة الرعى للكسب الشريف ، تلك التى أتاحت له التأمل فى الكون ، وما فيه من آيات الله الباهرة ، فازداد قربا وإيمانا بالله تعالى [٢].

رسالة إبراهيم

نشـــأ إبراهيم على الفطرة ، وصانه المولى من مشاركة قومه فيما يقترفونه من عبـــادة الأوثان والأصنـــام ، حيث زكاه المولى بقولـــه : ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ** ﴾ [٣] ، وذلك فى صغره ، ثم ابتعثه الله رسولا لهداية قومه إلى الحق ، وعبادة الله الواحد القهـــار ، وإزالـــة ما تفاقم من الشرور والضلال ، والفساد ، ثم اتخذه المولـــى بعـــد ذلك خليلا [٤] ، حيث قال تعالى : ﴿ **وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا** ﴾ [٥] ، وقال سبحانه : ﴿ **وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً** ﴾[٦] ، كما حث المولى أنبياءه ورسله على الاقتداء بإبراهيم واتباعه ، وليس هناك من أمة إلا وهى تقول بدينه ، وتدعوا له[٧] ، فقال تعالى :

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل ١/ ٢٣٧ ، البغوي : معالم التنزيل ١/١٦٣ .

(٢) منير محمد غضبان : المسيرة الإسلامية للتاريخ ص ٧٣ ، دار التوزيع والنشر الإسلامية ، القاهرة د ط ت .

(٣) آية ٥١ سورة الأنبيـــــاء .

(٤) ابن كثير : البداية ١ / ١٤٥ .

(٥) آية ٤١ سورة مريـــــم .

(٦) من الآية ١٢٥ سورة النساء .

(٧) المقدسي : البدء والتاريخ ٣ / ٥٠ .

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[1] .

ويقال: إن إبراهيم لما بشره المولى أن يتخذه خليلا ، قال : وما علامة ذلك يا رب ، فأخبره المولى على لسان أمين الوحى جبريل ، أن علامة ذلك أن يكون مستجاب الدعوة ، ويحيى الله الموتى بسؤاله ، فحينئذ قال إبراهيم : **﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ... ﴾**[2] أنك اتخذتنى خليلا ، وأننى مستجاب الدعوة ، فقال له المولى – عز وجل – : **﴿ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾**[3] ، ولم يكن إبراهيم – كما يقول القرطبى – شاكا فى إحياء الموتى قط ، وإنما طلب المعاينة ، إذ أن النفوس دائما تكون مستشرفة لرؤية ما أخبرت به[4] .

مزق إبراهيم هذه الطيور إلى أشلاء بيده ، ونثرها على قمم الجبال ، وفرق أعضاءها على عينيه ، ولما دعاها أقبلت عليه ، واجتمعت إليه ، ثم تماسكت أجزاؤها ، واتصل ما تفرق منها ، وعادت إليها الحياة ، وما من أحد يرى ذلك ثم يساوره شك ، أو يتخالجه ريب ، فى قدرة الله

---

(١) الآيات ١٢٠ – ١٢٣ سورة النحل .

(٢) من الآية ٢٦٠ سورة البقرة .

(٣) من الآية ٢٦٠ سورة البقرة .

(٤) القرطبي : الجامع : ٣/ ٢٩٨، ٣٠٠ ، البغوي: معالم التنزيل ١/٣٢٣.

علـــى بعـــث الموتى من مرقدهم ، ونشرهم من قبورهم ، وهكذا رأى إبراهيم من قدرة الله ، وآياته الباهرة ما يثقل يقينه ، ويزيد إيمانه [١] ، وهذا ما أكده ابن كثير[٢] الذى قال : (**كان إبراهيم عليه السلام يعلم قدرة – الله تعالى – على إحياء الموتى علما يقينا لا يحتمل النقيض ، ولكـــن أحـــب أن يشاهد ذلك عيانا ، ويترقى من علم اليقين إلى عين اليقين ، فأجابه الله إلى سؤاله ، وأعطاه غاية مأموله**) ، حتى يكون راسخ القواعد كالجبال فى صلابتها واثقا من نصر الله له .

وكانـــت سارة أول من آمنت بزوجها إبراهيم ، واستجابت له ، هى وابـــن أخـــيه لوط ، الذى اجتباه المولى بعد ذلك بالنبوة ، فكانا له نعم المعيـــن ، وشدا من أزره ، هما ومن آمن بإبراهيم من قومه وكانوا قلة فـــى وســـط هذا المحيط الوثني ، الذى يعبد الأصنام والكواكب ، ويؤله البشر [٣].

دعوة إبراهيم لأبيه

وجد إبراهيم نفسه وحيدا بين قوم يعبدون الأصنام ، ويشركونها مع الله – عـــز وجل – فى العبادة ، ليس هذا فحسب ، بل ووجد أباه ممن يصنعون هذه الأصنام ، وينشرونها بين الناس ، لذلك بدأ إبراهيم دعوته بأقـــرب الناس إليه ، وهو أبوه ، حيث دعاه إلى الحق بألطف عبارة ،

---

(١) محمد أبو الفضل إبراهيم ، ومحمد جاد المولى ، وعلى محمد البجاوي ، والســـيد شـــحاته : قصـــص القرآن ص ٣٦ ، ٣٧ ، المكتبة التجارية ، القاهرة ، ط١١ ، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .

(٢) البداية والنهاية ١ / ١٧٢ .

(٣) منير غضبان : المسيرة الإسلامية للتاريخ ص ٧٤ .

وأحسن إشارة ، مبينا له ما هو عليه من عبادة الأوثان ، التى لا تسمع دعـــاء عابدها ، ولا تبصر مكانه ، فكيف تغنى عنه شيئا ، أو تفعل به خيراً من رزق أو نصر ، ونبه إبراهيم أباه إلى ما أوحى الله – تعالى – إليه من الهدى والعلم النافع ، وأنه يرغب فى هدايته ، لينال السعادة فى الدنـــيا ، والنعـــيم فى الآخرة ، وحذره من عذاب المولى له ، وموالاته للشـــيطان ، إلا أن آزر قد أصم أذنيه عن سماع دعوة ابنه ، ليس هذا فحسب ، بل وهدد ابنه بالمقاطعة والهجران إن استمر على دعوته له ، مما دفع إبراهيم إلى إنهاء الحوار معه فى أدب جم ، والدعاء له بالهداية والغفران[١] ،

قال تعالى : ﴿ **وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَـــا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا قَالَ أَرَاغِبٌ أَنـــتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا** ﴾[٢].

لـــم يقطـــع إبراهيم حبل الرجاء فى إسلام أبيه ، فوعده بالاستغفار والدعـــاء له ، بشرط أن يسلم ، وقيل بل وعد آزر إبراهيم أنه سيسلم ، فقال له إبراهيم: سأستغفر لك ربى ، والراجح أن الوعد كان من إبراهيم ، لقوله : ﴿ **قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا**

---

(١) ابن كثير : البداية ١ / ١٤٥ ، ١٤٦ .

(٢) الآيات ٤١ – ٤٧ سورة مريـــــم .

لقَوْمهمْ إنَّا بُرَاء منكمْ وَممَّا تَعْبُدُونَ من دُون اللَّه كَفَرْنَا بكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَدًا حَتَّى تُؤْمنُوا باللَّه وَحْدَهُ إلا قَوْلَ إبْرَاهيمَ لأبيه لأسْتَغْفرَنَّ لك ﴾ [١] ، حيث صرح المولى بأن إبراهيم ليس بقدوة فـي هذا الاستغفار ، إذ استغفر لأبيه وهو مشرك رجاء أن يسلم ، ولما تبيـن له كفره لموته على ذلك تبرأ منه[٢] ، حيث قال تعالى : **﴿ وَمَا كَانَ اسْتغْفَارُ إبْرَاهيمَ لأبيه إلاَّ عَن مَّوْعدَة وَعَدَهَا إيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للّه تَبَرَّأَ منْهُ إنَّ إبْرَاهيمَ لأوَّاهٌ حَليمٌ ﴾** [٣]، وقال سبحانه: **﴿ وَاغْفرْ لأبي إنَّهُ كَانَ منَ الضَّالّينَ ﴾** [٤].

وقيل : إن إبراهيم سيتبين له كفر أبيه فى الآخرة ، ومن ثم فلا وزر علـيه فى استغفاره له فى الدنيا ، ففى الحديث المروى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال : (**يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة ، فيقول إبراهيم : ألم أقل لك لا تعصنى ؟ فيقول له أبوه : فالـيوم لا أعصك ، فيقول إبراهيم : يا رب إنك وعدتنى أن لا تخزينى يوم يبعثون ، فأى خزى أخزى من أبى الأبعد ؟ ، فيقول الله تعالى : إنى حرمت الجنة على الكافرين ، ثم يقال يا إبراهيم ما تحت رجليك ؟ فينظر فإذا هو بذبح متلطخ ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى فى النار**) [٥].

---

(١) من الآية ٤ سورة الممتحنة .

(٢) القرطبي : الجامع ١٣ / ١١٤ ، ٨ / ٢٧٤ ، البغوي : معالم التنزيل ٤ / ١٠٤.

(٣) الآية ١١٤ سورة التوبـة .

(٤) الآية ٨٦ سورة الشعراء .

(٥) أخـرجه الـبخاري في صحيحه في كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قوله تعالى : واتخذا الله إبراهيم خليلا ، حديث رقم ٣١٠١. =

مما يرجح أن كفر آزر سوف يظهر لإبراهيم يوم العرض على الله ، ومن ثم فلا وزر على الخليل فى استغفاره لأبيه فى الدنيا .

دعوة إبراهيم لقومه

كان قوم إبراهيم من سلالة نوح – عليه السلام – ، الذين نجوا من الطوفان ، ونجح الشيطان بعد حين من الدهر أن يضلهم عن الحق مرة أخرى ، فارتدوا عن التوحيد ، وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وعبَّدوا أنفسهم لآلهة من نحت أيديهم ، ليس هذا فحسب بل وكان حكامهم من أمثال النمروذ وغيره ممن ادعوا الألوهية والربوبية ، لذلك نشأ إبراهيم فى بيئة قد خيم عليها ظلام الشرك ، وكان يمكن لهذه الظلمات أن تطوى حياة إبراهيم ، ولكن المولى – عز وجل – أعانه على هذا ، حينما رزقه فطرة موحدة ، تعرف خالقها ، وبارئها ، وتكفر بالشرك الذى يزاوله الناس فى كل حياتهم [1].

فها هو ذا إبراهيم – عليه السلام – ينكر على قومه أن يتخذوا أصناما آلهة ، ويصمهم بالضلال المبين ، وقد جرى بينه وبينهم من المحاورات والمجادلات ما كان يمكن أن يكون ذات أثر ولو باهت على نفس إبراهيم ، ولكن عناية المولى كانت ترافقه ، وتأخذ بيده ، وتوجهه إلى تأمل الآلهة المدعاة من دون الله ، تلك التى يعبدها قومه ، سواء

= ابن كثير : البداية ١/ ١٤٦ ، البغوي : معالم التنزيل ٤ / ١٠٢ ، القرطبي : الجمع ١١٣ ، ١١٤ .

(١) جمال عبد الهادي مسعود ووفاء محمد رفعت : أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ ، جزيرة العرب ، الجزء الثاني ص٢١ ، ٢٢ ، دار الوفاء ، المنصورة ، ط ١ ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦م .

أكانت كوكبا ، أم شمسا ، ليصل فى النهاية إلى قناعة تامة بفساد العقيدة التى عليها قومه ، ويكون من الموقنين بسلامة عقيدته ، ويشهد فى نهاية الـتأمل أن لا إله إلا الله ، وليبرأ من الشرك والمشركين ، ويعلنها على الملأ فى صراحة لا مواربة فيها ، أنه كافر بآلهتهم ، وأنه لا يخافها ، لأنه فى رعاية القوة الكبرى ، التى لا أمان إلا فى جوارها ، وهى قوة الله سبحانه وتعالى[1] وإليك نماذج من هذه المحاورات والمجادلات :

١ – مناظرته لعُبَّاد الكواكب والنجوم

جـارى إبراهـيم – علـيه السلام – قومه فى النظر إلى النجوم والكواكـب ، ليس إيمانا بها ، وإنما لتقرير الحجة على قومه ، فأظهر موافقته لهم فى اتخاذهم للكواكب آلهة ، مماكراً لهم ، فلم أفل أنكر أن يكـون هذا إلها ، ثم انتقل بهم من الكواكب إلى القمر الذى هو أضوء مـنها ، فلم أفل أنكر أن يكون إلها لهم ، ثم انتقل بهم إلى الشمس التى هى أشد الأجرام السماوية مشاهدة ، فلما أفلت أقام عليهم الحجة أن هذه الأجرام السماوية لا تصلح للألوهية ، ولا أن تعبد مع الله – عز وجل – ، لأنهـا مخلوقة ومسخرة ، تطلع تارة ، وتأفل أخرى ، فتغيب عن هذا العالم ، والرب لا يغيب عنه شئ ، ولا تخفى عليه خافية ، بل هو الدائم الـباقى بـلا زوال حيث قال تعالى : ﴿ **وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَـبًا قَـالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًـا قَـالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَـوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـذَا رَبِّي هَـذَآ أَكْبَرُ**

(١) جمال عبد الهادي : جزيرة العرب ٢ / ٢٢ ، ٢٣ .

فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [١].

ولمــا أقام إبراهيم عليهم الحجة البالغة جاهرهم بالخلاف ، وأعلن توجهــه بالتوحــيد الخالص لله تعالى الذى خلق السماوات والأرض ، فخوفــوه من آلهتهم ، وأنها ستصيبه بسوء من خبل وجنون لعيبه لها ، فأعلــنها إبراهيم صريحة لا موارية فيها أنه لا يخشى من تلك الآلهة ، التى لا تنفع ولا تضر ، بل وأنكر عليهم تخويفهم له ، فى الوقت الذى لا يخافون هم فيه من الإشراك بالله القادر على كل شئ ، فأى الفريقين أحــق بالأمن من عذاب الله تعالى ، الموحد أم المشرك؟ فأجابه المولى أن الأمن للمؤمنين ، الذين لم يخلطوا إيمانهم بشرك ، وهم المهتدون فى الدنــيا[٢]. حيــث قــال تعالى فى كتابه الكريم : **﴿ وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّــي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّــي شَــيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْــرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَــأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَــانَهُم بِظُلْــمٍ أُوْلَــئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾** [٣].

---

(١) الآيــات ٧٥ – ٧٩ ســورة الأنعــام ، ابــن كثير : البداية ١/ ١٤٧ ، القرطبــي : الجــامع ٧ / ٢٦ – ٣١ ، البغوي معالم التنزيل ٣ / ١٦٣ ، المقدسي : البدء والتاريخ ٣ / ٤٨ .

(٢) نفس المصادر السابقة ونفس الصفحات .

(٣) الآيات ٨٠ – ٨٣ سورة الأنعـــــام .

وكانـــت محاورة إبراهيم لعباد الكواكب إحدى الشبهات التى أثيرت حول خليل الرحمن ، إذ كيف يجارى قومه فيما يعبدون وهو المعصوم عن ذلك ؟ ، ولقد أجاب المفسرون عن ذلك بــتأويلات عدة تنفى عن إبراهيم هذه المجاراة ، ومن هذه التأويلات ما يلى :

أولا : أن إبراهيم – عليه السلام – أراد أن يستدرج قومه بهذا القول ، ويعــرفهم خطــئهم وجهلهــم فى تعظيم النجوم والكواكب وعبادتها ، فأراهم أنه معظم ما عظموه ، وملتمس الهدى من حيث التمسوه ، فلما أفلت جميعا أراهم النقص فى هذه الأجرام ، ليثبت خطأ ما يدعون .

ثانيا : أن إبراهيم قال مقالته على جهة الاستفهام ، أى أهذا ربى ؟ ، وموبخا لهم على هذا الفعل

ثالثا : أنـــه قـــال مقالتهم على جهة الاحتجاج عليهم ، أى هذا ربى بزعمكم ، فلما غاب قال : لو كان إلها لما غاب .

رابعا : أنه قال مقالته مسترشدا ، طالبا للتوحيد ، حتى وفقه الله لذلك وآتاه رشده ، فلم يضره ذلك في حال الاستدلال ، حيث كان قبل قيام الحجة عليه [١].

ونفـــى الإمـــام الـــبغوى مجاراة إبراهيم لقومه فى معتقداتهم بشأن الكواكـــب والنجوم قائلا : أنه لا يمكن للرسول أن يأتى عليه وقت من الأوقات إلا وهو موحد بالله ، وبرئ من كل معبود سواه ، وكيف يتوهم هذا على من عصمه الله وطهره ، وآتاه رشـــده من قبـــل ، حيث قال : ﴿ إِذْ جَـــاءَ رَبَّـــهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [٢]. وقال : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ

---

(١) البغوي : معالم التنزيل ٣ / ١٦١ ، ١٦٢ .

(٢) آية ٨٤ سورة الصافات .

مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾(١) ، أفتراه أراه الملكوت ليوقن ، فلما أيقن رأى كوكبا فقال هذا ربى معتقدا ؟ ، فهذا ما لا يكون أبدا (٢) .

وأشد إنكارا مما سبق ما يقال: من أن إبراهيم آمن بعض الوقت بهذه الأجرام السماوية ، لأنه كان فى موقف المتصدى لهداية قومه ، وبعد أن بين لهم أنها لا تصلح للعبادة ، لأنها تشرق وتغيب ، والإله لا ينبغى أن يغيب عن عباده ، أعلن لهم صراحة أنه وجه وجهه للذى فطر السماوات والأرض ، يخصه وحده بالعبادة ، وأنه لن يكون من المشركين به كما فعلوا (٣) .

وهذه المناظرة كانت بين إبراهيم وقوم حران الذين كانوا يعبدون هذه الأجرام السماوية ، وأما أهل ببابل فكانوا يعبدون الأصنام ، وهذا فى رأى من قال بأن إبراهيم ولد فى حران ، ثم انتقل منها إلى بابل بالعراق (٤) .

٢ – محاورته لعبّاد الأصنام

جاهر إبراهيم قومه بالدعوة إلى توحيد الله ، وأنكر عليه عبادتهم للأصنام ، وحقرها عندهم ، وأنها لا تنفع ولا تضر ، وهم يقرون بذلك ، فأجابوه بحجة واهية ، وهى أنهم ما يعبدونها إلا اقتداء بالآباء والأجداد ، الذين كانوا يقترفون هذا ، فحذرهم إبراهيم من المغبة

---

(١) آية ٧٥ سورة الأنعام .

(٢) البغوي : معالم التنزيل ٣ / ١٦١ .

(٣) السيد يونس : تاريخ الأنبياء ص ١١٠ ، ١١١ .

(٤) ابن كثير : البداية ١ / ١٤٤ ، ١٤٧ .

الوخيمة لهذا الأمر ، وماذا سيقولون لله حينما يقفون بين يديه ، ويسألهم عمـا أشـركوه معهـم فى العبادة ، واتخذوه أندادا من دونه؟، وحاول إبراهيم أن يضرب لهم مثلا ، ويجعل من نفسه قدوة لهم ، فتبرأ أمامهم مـن هذه المعبودات ، وجاهرهم بالعداء لها ، وأنها لو كانت تملك من أمـرها شـيئا لأصـابته بالضرر لتنقصه لها ، وهنا فزع القوم وسئلوا إبراهـيم هـل مـا يقوله عن آلهتهم حقا ، أم هو نوع من الممازحة ، فأخـبرهم أنـه جاد فى كل ما يقوله وما يخبرهم به ، وأن الإله الذى يدعـو إلـيه هو الذى فطر السماوات والأرض على غير مثال ، فهو المستحق للعبادة ، وحده دون سواه ، وأنه من الشاهدين المقرين بذلك(١)

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ إِذْ قَـالَ لِأَبِـيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ قَالُوا وَجَدْنَـا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ قَـالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاعِبِينَ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (٢) ، وقال جل شـأنه : ﴿ إِذْ قَـالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِيـنَ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَـا آبَاءنَـا كَذَلِـكَ يَفْعَلُونَ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣) ، وقـال جـل فى علاه : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ

---

(١) ابن كثير : البداية ١ / ١٤٨ ، ١٤٩ .

(٢) الآيات ٥١ – ٥٦ سورة الأنبياء .

(٣) الآيات ٧٠ – ٧٧ سورة الشعراء .

إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (١).

ثم شرع إبراهيم فى بيان صفات هذا الإله الذى يدعوهم إليه ، فهو الذى خلق الإنسان ، وهداه السبيل ، و الذى يطعم ويسقى ، و الشافى عند نزول السقم ، و مالك الروح ، ونازعها ، و الغفار للذنوب فى الدنيا والآخرة ، حيث قال تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾(٢).

لم يجد هذا الترغيب فى إقناع قوم إبراهيم للإيمان به ، فبدأ فى ترهيبهم من سوء عاقبة كفرهم وعنادهم ، وأنه سينزل بهم ما حاق بالأقوام المكذبين ، من الإغراق ، والزلزلة ، والصيحة ، علهم يؤبون لخالقهم ، الذى بدأ الخلق ، وهو وحده القادر على إعادتهم ، ولن يكونوا معجزين له فى ذلك ، حيث قال تعالى : ﴿ وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ قُلْ سِيرُوا فِي الارْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الاخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي

(١) الآيتان ١٦ ، ١٧ سورة العنكبوت .

(٢) الآيات ٧٨ – ٨٢ سورة الشعراء .

وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [١].

اســتمر قوم إبراهيم فى عنادهم ، وعدم استجابتهم لدعوته ، فأيقن إبراهــيم أنه لا فائدة ترتجى من هذا الحوار النظرى مع قومه ، وأقسم بــالله ليكيدن لهذه الأصنام ، ويحطمها ، حتى يبين لهم أنها لا تدفع عن نفسها سوءا ، ولا تملك من أمرها شيئا ، فقال تعالى : ﴿ وتاللَّه لأكيدَنَّ أَصنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴾ [٢] ، وأعلن أمام الله براءته من قومه ، ومما يعبدون من دون الله ، وجاهرهم بالعداوة والبغضاء ، حبا وودا لله تعالى ، وأنه لا مودة بينه وبينهم إلا بإيمانهم وتوحيدهم لله – عز وجل – ، حيث قال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ [٣].

تحطيم إبراهيم للأصنام

بعد أن أدى إبراهيم – عليه السلام – واجبه فى البلاغ لقومه ، بكل الوسائل المتاحة له ، من دون تحقيق نتيجة مثمرة ،شرع– عليه السلام– فــى تلقيــن أهلــه درسا لن ينسوه ، علهم يفيقون مما هم فيه من الغي والضلال ، وذلك بتحطيم أصنامهم ، وإثبات عجزها عن حماية نفسها ، ناهيك عن نفعها لغيرها ، ليقدم لقومه الدليل والبرهان على فساد عقولهم ، حينما عبدوا أصناما نحتوها بأيديهم [٤].

---

(١) الآيات ١٨ – ٢٣ سورة العنكبوت .

(٢) آية ٥٧ سورة الأنبيــــاء .

(٣) من الآية ٤ سورة الممتحنـــة .

(٤) جمال عبد الهادي : جزيرة العرب ٢ / ٢٤ .

كـــان للقوم عيدا يذهبون إليه فى خارج المدينة مرة فى كل عام ، فدعى آزر إبراهيم ليخرج معهم ، ويشاركهم عيدهم ، فامتنع إبراهيم ، وتعلـــل بسقمه ومرضه ، ليتخلف عن الخروج معهم ، حتى يتمكن من تحقيق ما أضمره فى نفسه من الكيد للأصنام ، وتحطيمها ، حيث أسرع إلـــى دار الآلهـــة ، التى كانت فى بهو عظيم ، يتقدمها الصنم والمعبود الأكبر ، وتحيط به صغار الأصنام ، ووجد إبراهيم بين يدى هذه الأوثان طعامـــا ، قـــد تركه قومه لتحل عليه البركة من آلهتهم ، فإذا ما عادوا أكلـــوه ، فخاطب إبراهيم الأصنام متهكما منها بقوله : ألا تأكلون !! ، فلمـــا لـــم تجبه ، قال لهم : ألا تنطقون!! ، ثم انهال عليها جميعا حتى حطمهـــا عن بكرة أبيها ، ولم يترك إلا الصنم الأكبر ، حيث علق فى رقبته فأس التكسير ، إشارة إلى أنه هو الذى فعل ذلك ، لغيرته من أن تعبد معه هذه الأصنام[1]، قال سبحانه : ﴿ **فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ مَا لَكُمْ لا تَنطِقُونَ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ** ﴾ [2]، وقال جل فى علاه : ﴿ **فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ** ﴾[3] .

عاد القوم من لهوهم وعيدهم ، فرأوا ما حل بآلهتهم من التحطيم ، فتعالت أصواتهم باستنكار ذلك والسؤال عمن يكون قد اقترف هذا الجرم

---

(١) القرطبـــي : الجامع ١٥ / ٩٢ – ٩٤ ، البغوي : معالم التنزيل ٧ / ٤٤ ، ٤٥ ، ٥ / ٣٢٣ – ٣٢٦ ، الطـــبري : تـــاريخ الرســـل ١ / ٢٣٨ ، المقدسي : البدء ٣ / ٥١ ،ابن كثير : البداية ١ / ١٤٩ .

(٢) الآيات ٨٨ – ٩٣ سورة الصافات .

(٣) آية ٥٨ سورة الأنبيـــاء .

العظـيم ، فقـال بعضهم : لقد سمعنا الفتى إبراهيم يذكر آلهتنا بسوء ، ويتوعدها بالكيد ، ويستهزئ بها ، فهو المظنون به أن يكون قد فعل هذا ، ووصل الخبر إلى النمروذ حاكمهم ، فأمر من فوره بإحضار إبراهيم أمام الملأ ، حتى يسألوه عن هذا الأمر ، ويشهد الناس مقالته ، ويسمعوا كلامـه ، ويعايـنون مـا يحل به من القصاص ، وكان هذا هو مقصد إبراهـيم الخليل أن يجتمع الناس كلهم ، فيقيم على جميع عُبَّاد الأصنام الحجة على بطلان ما هم عليه [1]. ، فقال تعالى : ﴿ **قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِـنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ** ﴾[2].

محاكمة إبراهيم

اجتمع قوم إبراهيم به وهم يمنون أنفسهم بالثأر منه ، انتقاما لما حل بآلهـتهم ، وبادروه بالسؤال هل أنت من فعل هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟ ، فأنكر ذلك ، ونسب الفعل إلى صنمهم الأكبر ، الذى غضب من أن تعْبد معـه هـذه الصغائر ، وهو أكبر منها ، وليؤكد لهم هذا طالبهم بسؤال الأصـنام المحطمة عمن فعل هذا بها ، وكان هدفه من ذلك أن يجيبوه بأنها جمادات ، لا تسمع ، ولا تنطق ، فتلاوموا برهة فيما بينهم لتركهم الآلهـة من غير حارس عليها ، ثم نكسوا رؤوسهم أمام حجة إبراهيم ، وأقـروا بما يريده منهم ، إذا أعلنوا أنها لا تسمع ، ولا تنطق ، فكيف تأمـرنا يا إبراهيم بسؤالها عمن حطمها ،وهنا ألزمهم إبراهيم الحجة ،

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل ١ / ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، المقدسي : البدء ٣/ ٥١ ، ابن كثير : البداية ١ / ١٤٩ ، ١٥٩ .

(٢) الآيات ٥٩ – ٦١ سورة الأنبياء .

وجعلهم ينطقون بها بألسنتهم ، وأنهم يعبدون ما لا ينفع ، ولا يدفع عن نفســه ضرا ، ثم أظهر إبراهيم ضجره وتأففه من هذه المعبودات التى ينحــتونها بأيديهم ، بينما الله هو الخالق لهم ، وأنه لا يجوز لمعبود أن يعبد مخلوقا مثله ، والعبادة لا تصح إلا للخالق وحده–جل فى علاه [١] –

قــال تعالى : ﴿ **قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَــهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَــالُوا إِنَّكُــمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَــؤُلاء يَــنطِقُونَ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُــرُوا آلِهَــتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ** ﴾ [٢] ، وقال سبحانه : ﴿ **فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ [٣] .

لــم يقتــنع قوم إبراهيم بتلك الأدلة الدامغة ، والحجة الساطعة التى ســاقهم إلــيها إبراهــيم – علــيه السلام – بل استمروا فى مجادلته ، ومناظرته فى الإله الذى يدعو إليه ، وادعوا أن آلهتهم خير مما يعبد ، واستمر إبراهيم فى ضرب الأمثال لهم ، وسوق العبر ، ليعلموا أن الله هو أحق بالعبادة ، وهو أولى أن يُخاف ويُعبد مما يعبدون من دونه [٤] ، فقــال تعالى : ﴿ **وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ**

---

(١) الطــبري : تــاريخ الرسل ١ / ٢٣٩ ، ابن كثير : البداية ١ / ١٥٠ ، البغوي : معالم التنزيل ٥ / ٣٢٣ – ٣٢٦ .

(٢) الآيات ٦٢ – ٦٧ سورة الأنبياء .

(٣) الآيات ٩٤ – ٩٦ سورة الصافات .

(٤) الطبري : تاريخ الرسل ١ / ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١).

أسقط فى أيدي قوم إبراهيم ، وتبين لهم فساد عقائدهم ، وأحسوا أن سلطانهم قد تزلزل على يد هذا الفتى اليافع إبراهيم ، ولم يعد لهم حجة فى مناظرته ، فعدلوا عنها إلى استعمال قوتهم ، لاسترداد سلطانهم المهزوم ، ولنصرة آلهتهم ، ولا يكون ذلك إلا بالخلاص من إبراهيم بقتله ، أو حرقه ، وكان الذى أشار بذلك رجلا يسمى هينون ، وهو من الكرد - أعراب الفرس - ، فخسف الله به الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة (٢). ، قال تعالى حكاية عن قوم إبراهيم ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ (٣). ، وقال سبحانه : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ... ﴾ (٤).

عناية المولى بخليله وإنجائه من النار

أجمع القوم على عقوبة التحريق لإبراهيم ، ليكون ذلك عبرة لغيره ، ممن تسول له نفسه الطعن في آلهتهم ، أو النيل منها ، فحبسوه فى أحد بيوتهم ، ثم شرعوا فى جمع الحطب من كل مكان استطاعوا ، ومكثوا فى

---

(١) الآيتان ٨٠ ، ٨١ سورة الأنعام .

(٢) الطبري : تاريخ الرسل ١/ ٢٤٠ابن كثير : البداية ١/ ١٥٠ ، جمال عبد الهادي : جزيرة العرب ٢ / ٢٥ .

(٣) آية ٦٨ سورة الأنبياء .

(٤) من الآية ٢٤ سورة العنكبوت .

ذلك مدة طويلة ، حتى أن المرأة منهم كانت إذا مرضت ، نذرت إن عوفيت لتحملن حطبا لحريق إبراهيم ، احتسابا لدينها ، ثم وضع القوم الحطب فى حفـرة عظـيمة ، أشعلوا فيها النار ، فاضطرمت ، والتهبت ، وتأججت ، وارتفع لها شرر لم ير مثله ، حتى كان الطير ليمر من فوقها فيحترق من شـدة وهجها وحرها ، كما نفرت الوحوش والدواب من حولها ، ثم وضع القوم إبراهيم فى كفة منجنيق ، بعد أن كتفوه وقيدوه ، وهو يقول : لا إله إلا أنت سبحانك ، لك الحمد ، ولك الملك ، لا شريك لك . [1].

أصبح إبراهيم قاب قوسين أو أدنى من الإلقاء فى النار ، فرفع رأسه إلى السماء قائلا : اللهم أنت الواحد فى السماء ، وأنا الواحد فى الأرض ، ليس فى الأرض أحد يعبدك غيرى ، فصاحت السماء والأرض ، وما فـيها من الخلق ، إلا الثقلين إلى الله عز وجل صيحة واحدة : أى ربنا إبراهيم ليس فى أرضك أحد يعبدك غيره ، يحرق بالنار فيك ، فأذن لنا فى نصرته ، فأجابهم الله قائلا : إن استغاث بشئ منكم أودعاه فلينصره ، فقـد أذنـت له فى ذلك ، فإن لم يدع غيرى ، فأنا وليه ، فخلوا بينى وبينه ، فأنا أمنعه [2] ، وكان عمر إبراهيم حينئذ ست عشرة سنة [1].

---

(١) الطـبري : تاريخ الرسل ١/ ٢٤١ ، ٢٤٢ الثعالبي (أبو إسحاق أحمد بـن محمد بن إبراهيم النيسابوري ت ٤٢٧هـ) : قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس ، تحقيق محمد سيد ، دار الفجر للتراث ، القاهرة ط١ ، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م ، ص ١١٠ ، ١١١ ، ابـن كثير : البداية ١/ ١٥٠ ، ١٥١ المقدسي : البدء ٣/ ٥٤ ، البغوي : معالم التنزيل ٥/ ٣٢٦ ، ٣٢٧

(٢) الطبري : تاريخ الرسل ١/ ٢٤١ ، ٢٤٢ ، البغوي : معالم التنزيل ٥/ ٣٢٦ ، ٣٢٧ .

جاء جبريل إلى إبراهيم – عليه السلام – وهو يوثق ليلقى فى النار ، فقـال : يـا إبراهيم ألك حاجة ؟ ، قال : أما إليك فلا ، وما إن هموا بإلقائه فى النار حتى قال إبراهيم– عليه السلام– كما يروى ابن عباس– : حسبى الله ونعم الوكيل ، وتأهب ملك المطر لينزل المطر إذ ما أمره الله تعالى ، وألقى إبراهيم فى النار بالمنجنيق ، فكان أمر الله أسـرع ، حيث قال تعالى : ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ [٢]. ، ولولا أن قيدها الله بالسلامة لمات إبراهيم من بردها ، ولم ينتفع أهل الأرض يومئذ بنار ، لظنها أن الأمر لها ، ولم تحرق النار من إبراهيم إلا قيوده [٣].

مكـث إبراهيم – عليه السلام – فى قلب النار أربعين أو خمسين يوما ، كانـت من أطيب أيام حياته ولياليه ، إذ جلس فى روضة خضراء ، والناس ينظرونه ، ولا يقدرون على الوصول إليه ، وهو لا يخرج إليهم ، ولما رأى آزر ذلـك قال : نعم الرب ربك يا إبراهيم ، وقيل:إن أم إبراهيم دخلت إليه ، بعـد أن دعا لها ألا تصيبها النار بمكروه ،وكانت جميع دواب الأرض تعمل علـى إطفـاء النار عن إبراهيم ، إلا الوزغ ، فإنها كانت تنفخ فيها ، لتزداد اشتعالا ، لذلك أمرنا الرسول ﷺ بقتلها [٤].

---

(١) القرماني : أخبار الدول ١/ ٨٠ .

(٢) آية ٦٩ سورة الأنبياء .

(٣) الطـبري : تـاريخ الرسـل ١/ ٢٤٣ ، ابن كثير : البداية ١/ ١٥١ ، البغوي ، معالم التنزيل ٥ / ٣٢٦ – ٣٢٩ .

(٤) الطبري : تاريخ الرسل ١/ ٢٤٣ ، ابن كثير : البداية ١/ ١٥١، ١٥٢، البغوي : معالم التنزيل ٥ / ٣٢٦ .

خمــدت النيران بعد طول اشتعالها ، وفوجئ القوم بخروج إبراهيم منها دون أن يصاب بمكروه ، فلم تحرق له النار إلا القيد الذى قيد به ، وأسرع بعض من قوم إبراهيم إلى الإيمان به ، ومنهم : أخواه هاران ، ونــاحور ، وآمــن به آخرون ، ولكن كتموا أمرهم خوفا من النمروذ وشيعته ، وانقلبت الآية على قوم إبراهيم ، فهم أرادوا قتله فنجاه الله من الــنار ، وأرادوا أن يغلــبوه فغلبوا ، فبأوا بالخسران فى الدنيا ، ونار الحــريق فــى الآخــرة ، [1]. حيــث قال تعالى : ﴿ **وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الاخْسَرِينَ** ﴾ [2] ، وقال سبحانه : ﴿ **فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ [3] ، وقال جل في علاه : ﴿ **فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الاسْفَلِينَ** ﴾ [4].

مناظرة إبراهيم للنمروذ

اخــتلف المفسرون و المؤرخون حول زمان هذه المناظرة ، فقيل : أنهــا كانت بعد أن حطم إبراهيم أصنام قومه ، وجاءوا به للمحاكمة ، حيــث قــال لهم إبراهيم : أتعبدون ما تنحتون ، فقالوا له : فمن تعبد ، فقــال : ﴿ **رَبِّــيَ الَّذِي يُحْيِــي وَيُمِيتُ** ﴾ [5] ، وقيل : أنها دارت بعد خروج إبراهيم من النار ، حيث أُدْخِل على النمروذ ، ولم يكن رآه قبل ذلــك ، فقــال له النمروذ : من ربك ؟ ، فقال إبراهيم : ﴿ **رَبِّيَ الَّذِي**

(١) الطبري : تاريخ الرسل ١/ ٢٤٢ – ٢٤٤ ، ابن كثير : البداية١/١٥١.
(٢) آية ٧٠ سورة الأنبياء .
(٣) من الآية ٢٤ سورة العنكبوت .
(٤) آية ٩٨ سورة الصافــــات .
(٥) من الاية ٢٥٨ سورة البقرة .

يُحْيِــي وَيُمِيتُ ﴾ [١]. ، وهذا هو الراجح فيما أرى ، إذ لم تكن حادثة تحطيم الأصنام على يد إبراهيم ، والشروع فى محاكمته ، بالتى تسمح لمثل هذه المناظرة ، التى تحتاج إلى هدوء وسكينة فى الحوار والمناقشة ، بينما كان السواد الأعظم ينتظر سرعة البت فى المحاكمة ، ومعاقبة هــذا المتجنى على معبوداتهم ، كما أن ابن كثير أيد أن المناظرة كانت بعد خروج إبراهيم من النار [٢].

وهذا النمروذ كان حاكما لبلاد العراق ، وكان أحد ملوك الدنيا الأربعة الذين حكموها ، فالمؤمنان : ذو القرنين ، وسليمان ، والكافران : النمروذ ، وبختنصر ، والنمروذ هو أول من لبس التاج ، وصنع أمر النجوم ، ونظر فــيه ، وعمل به ، وهو أول من سن سنن السوء ، وحكم النمروذ أربعمائة ســنة ، فطالــت أيامــه ، مما دفعه للتجبر ، والطغيان ، والعتو فسادا فى الأرض ، وإيثار الحياة الدنيا على الآخرة ، ليس هذا فحسب ، بل وادعى الألوهية ، والربوبية ، كما فعل اللاحقون له ، من أمثال فرعون ، الذى قال: **(أنا ربكم الأعلى)** [٣] ، ولما دعا إبراهيم – عليه السلام – النمروذ إلى عبادة الله وحده ، حمله الجهل والضلال ، وطول الآمال ، على إنكار الله ، ولــم يكتف بالإعراض عن دعوة التوحيد ، بل تمارى فى غيه وضلاله ، وادعى الربوبية ، وحاج إبراهيم فى أمرها[٤].

---

(١) القرطبي : الجامع ٣ / ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، البغوي : معالم التنزيل ١/ ٣١٥ ، ٣١٦ .

(٢) ابن كثير : البداية ١/ ١٥٣ .

(٣) من الآية ٢٤ سورة النازعات .

(٤) ابن كثير : البداية ١ / ١٥٢ .

بدأ إبراهيم مناظرته للنمروذ بإثبات صفة الإحياء والإماتة لله – عز وجل – ، فهو المالك للنفوس ، والمحيي والمميت لها ، فما كان من هذا السفيه إلا أن احتج على إبراهيم بأنه إذا كان ربك يحيي ويميت ، فأنا أفعل ذلك ، فجاء برجلين قد حكم عليهما بالموت ، فقتل أحدهما ، وأطلق سراح الآخر، وظن أنه بذلك أمات وأحيا ، وقال : ﴿ **أنا أحيي وأميت** ﴾ [1]. ، فلم يناقشه إبراهيم فيما ادعاه ، بل ألقمه شاهدا آخر على قدرة الله – عز وجل – وعجز النمروذ عن الإتيان بمثله ، حيث أخبر إبراهيم النمروذ بأن الله يأتي بالشمس من المشرق ، فإن كان ما يدعيه النمروذ من الربوبية حقا ، فليأت بها من المغرب ، فإن الذى يحيي ويميت حقيقة ، هو القادر على تحويل طلوع الشمس من المشرق إلى المغرب ، وبذلك أفحم إبراهيم النمروذ ، وبين أنه لا يستطيع أن يخلق ولو بعوضة ، وبين ضلاله ، وجهله ، وكذبه فيما ادعاه ، وبطلان ما سلكه ، وتبجح به عند جهلة قومه ، ولم يبق له كلام يجيب به الخليل ، بل امتنع وسكت عن مواصلة الحوار[2]. ، قال تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾ [3].

أوجس النمروذ خيفة من إبراهيم وديانته ، وخاف أن يكتسح الخليل

---

(١) من الآية ٢٥٨ سورة البقرة .

(٢) ابن كثير : البداية ١ / ١٥٢ ، ١٥٣ .

(٣) آية ٢٥٨ سورة البقرة .

ملكــه ، ويقوض عرشه إن أعلن النمروذ العداء له ، أو كشف له عن البغضاء ، لذلك أبقى النمروذ على إبراهيم ، وهو يتربص به الدوائر ، وينتظر أن تحين له فرصة للانتقام منه ، ثم بعث النمروذ عيونه ليحذروا الناس اتباعه ، ويبعدوهم عن حظيرته ، فكان إبراهيم يرى من التضييق علــيه مــا يراه المصلحون فى كل أمة ، فضاقت نفسه بالمقام بينهم ، وارتأى الهجرة عنهم ، وتأهب للفرار بدينه من تلك الأرض الجرداء ، التى لم يزهر بها نبته ، ولم يثمر فيها غرسه ، إلى أرض قد تنمــو فيها دعوته ، وترك وطنه وقومه بعد أن حقت عليهم كلمة العذاب [١] ، حيث قال تعالى على لسان إبراهيم : ﴿ **وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلا أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيًّا** ﴾ [٢].

ولقــد أمهل المولى – عز وجل – هذا النمروذ فسحة من الوقت ، علــه يتوب ويؤمن بالله ، وأرسل المولى إليه ملكا يدعوه للإيمان ثلاث مرات متتالية ، فأبى وأصر على كفره ، وقال للملك : اجمع جموعك ، وأجمع جموعى ، وجاهر الله تعالى بالعداء ، فأرسل المولى عليه جيشا مــن الــبعوض ، حجب ضوء الشمس ، وسُلط عليهم ، فأكلوا لحومهم ودمائهم ، وتركوهم عظاما بالية ، ودخلت واحدة منها فى دماغ النمروذ ، فاستقرت فيه وعذب بها ، فلا ينام إلا بعد أن يضرب بالمقارع ، وكان أعز الناس عنده بعد ذلك من يضرب دماغه بمطرقة عتيدة ، وظل هكذا حتى أهلكه المولى عز وجل بعد أربعين سنة [٣] ، ليكون عبرة لكل من

---

(١) محمد أبو الفضل إبراهيم : قصص القرآن ص ٤٩ ، ٥٠ .

(٢) آية ٤٨ سورة مريــم .

(٣) الثعالبي : عرائس المجالس ص ١٣٧ ، ابن كثير : البداية ١/ ١٥٤، =

تسول له نفسه ادعاء الألوهية ، ومنازعة المولى في صفاته .

ومما هو مرتبط بمناظرة إبراهيم للنمروز قوله تعالى : ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِـي الْمَوْتَى ...** ﴾ [(١)] ، إذ يقول المفسرون: أن النمروذ لما قال لإبراهيم : أنا أحي وأميت ، وقتل أحد الرجلين ، وأطلق سراح الآخر ، قال له إبراهيم : إن الله يقصد الجسد الميت فيحيه ، فقال النمروذ : أأنت عاينت ذلك؟، فلم يستطع إبراهيم أن يقول نعم ، لذلك سأل إبراهيم ربه أن يريه إحياء الموتى ، ليعاين ذلك بنفسه وليطمئن قلبه [(٢)].

وجد إبراهيم بعد مناظرته للنمروذ أنه لا فائدة ترتجى من قومه ، أو من يحكمونهم ، لا سيما وأنه لم يؤمن به إلا القليل النادر منهم ، لذلك عقد العزم على مفارقة أهله ووطنه ، والهجرة إلى حيث يتمكن من عبادة الله ، وهو واثق من هداية الله له ، ورافقه في هذه الهجرة زوجه سارة ، وابن أخيه لوط ، وأخواه ، وأبوه المشرك آزر ، حيث قال تعالى: ﴿ **وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الارْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ** ﴾ [(٣)]. ، والمراد بها بلاد الشام ، وقال على لسان خليله : ﴿ **وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَـى رَبِّي سَيَهْدِينِ** ﴾ [(٤)]. ، وقال مقاتل:وهو أول من هاجر من الخلق

= القرطبـي : الجامع ٣/ ٢٨٤ ، البغوي : معالم التنزيل ٣٢٩/٥ ، ابن قتيبة : المعارف ٣١/١ .

(١) من الآية ٢٦٠ سورة البقرة .

(٢) القرطبي : الجامع ٣/ ٣٠٠ ، البغوي : معالم التنزيل ١/ ٣٢٢ .

(٣) آية ٧١ سورة الأنبيـاء .

(٤) آية ٩٩ سورة الصافات .

مع لوط وسارة إلى الأرض المقدسة [١] .

وإذ كان إبراهيم بهجرته هذه قد ترك وطنا ، وعشيرة ، وقوما ، فإن الله عوضه ببيت المقدس وطناً خيرا من وطنه ، وعوضه بابنيه إسماعيل وإسحاق ، وأحفادا منهم يعقوب أهلا وعشيرة ، خير من أهله ، وعوضه عن قومه أمة مسلمة عظيمة العدد ، وهى خير أمة أخرجت للناس ، وجعل من نسله أئمة ، وأنبياء ، ورسلا يهدون بأمر الله ، وأوحى الله تعالى إليهم فعل الخيرات ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، فكانوا نعم العوض ، ونعم الجزاء [٢].

وأما قوم إبراهيم الذين كذبوه ، وتآمروا على إحراقه ، فكانت عاقبتهم وخيمة ، حيث قال الله تعالى عنهم : ﴿ **فَجَعَلْنَاهُمُ الاخْسَرِين** ﴾ [٣] ، وقال سبحانه : ﴿ **فَجَعَلْنَاهُمُ الاسْفَلِين** ﴾ [٤] ، وشاءت إرادة الله – سبحانه – أن تكشف لنا الدراسات التاريخية الحديثة عن طبيعة الخسران الذى حاق بأهل الرافدين ، نتيجة كفرهم بالله – عز وجل – ، ومحاولة قتل إبراهيم الخليل – عليه السلام – ، حيث تعرضت (أور) مسقط رأس إبراهيم – عليه السلام – لهزتين عنيفتين ، فقد هاجمها شَعْبان : هما شعب العلاميين وشعب الأموريين ، وسيطرا على أور ، واقتسما مجدها ، فدمرت البلاد ، وسفكت الدماء ، وفزع الناس ، وامتلأت الطرق بجثث القتلى ، والذين كتب لهم النجاة من هذه المذابح ذلوا وجاعوا حتى فر

---

(١) ابن كثير : البداية ١/ ١٥٤ ، القرطبي : الجامع ١٥/ ٩٧ .

(٢) جمال عبد الهادي : جزيرة العرب ٢/ ٢٨ .

(٣) من الآية ٧٠ سورة الأنبياء .

(٤) من الآية ٩٨ سورة الصافات .

المرء من أبيه ، وأمه وأخيه ، وصاحبته وبنيه ، بحثا عن النجاة ، وذلك قبل أربعة آلاف سنة من الآن ،أى فى الوقت الذى رحل فيه إبراهيم ولوط وسارة إلى بيت المقدس ، [١] وصدق الله العظيم إذ يقول:﴿ **وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا** ﴾ [٢].

وبذلك تبدأ مرحلة جديدة فى حياة خليل الرحمن إبراهيم،حيث انتقل ومن آمن معه إلى أرض جديدة،وأقوام آخرين،علهم يتقبلون دعوته، ويهتدون بهديه،ولينشر إبراهيم رسالة التوحيد فى بقاع أخرى غير تلك التى أعرضت عنه وعن دعوته.

هجرة إبراهيم إلى بلاد الشام

فارق إبراهيم وزوجه سارة وابن أخيه لوط العراق صوب بلاد الشام ، حيث نزلوا فى حران ، فى تلك البلاد التى بارك الله له فيها ، حيث قال تعالى : ﴿ **وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ** ﴾ [٣] ، وألقى إبراهيم فيها عصاه ، فارا بدينه ، عله يجد فيها آذانا مصغية ، وعقولا ناضجة ، ونفوسا طاهرة ، ونزل بين ظهرانى أهل هذه البلاد ، وسرعان ما تبين له ضلالهم ، إذ وجدهم يعبدون الكواكب من دون الله ، فأراد أن ينبئهم على خطئهم ، ويرشدهم إلى فساد اعتقادهم ، فاختار لذلك سبيل العقل ، وطريق الحجة ، بيد أنهم ظلوا على كفرهم وعنادهم ، فبقى بين ظهرانيهم ما شاء الله له ، ثم غادر بلاد الشام بعد أن حل

---

(١) جمال عبد الهادي : جزيرة العرب ٢ / ٢٥ – ٢٧ .

(٢) الآيات ٨ – ١٠ سورة الطلاق .

(٣) آية ٧١ سورة الأنبياء .

القحط والجدب بها ، واتجه بزوجه سارة إلى مصر ، وكان أبوه آزر قد توفى فى حران بعد نزوله إليها [١].

هجرة إبراهيم إلى مصر

أقـبل إبراهـيم من حيث يقيم فى فلسطين على مصر ، يطلب فيها الشـبع ، والري ، من بلاد ضربها القحط الشديد والجفاف ، حيث كان الناس فى بلاد الشام قد تسامعوا بما كان فى مصر من الرخاء ، ورغد العيش ، ولين المقام ، وما كان يسودها من الدعة ، والأمن ، والسلام ، وذلك فى عهد الأسرة الثانية عشر من ملوك الدولة الوسطى وهو عصر الهكسوس وقبل عشرين قرنا من ميلاد المسيح – عليه السلام – [٢].

وبالإضافة إلى ما سبق من أسباب الهجرة ، فإن الله – عز وجل – شـاءت إرادته أن ترزق سارة زوج إبراهيم بجارية من هذه الرحلة ، ويـتزوجها إبراهـيم بعد ذلك ، لينجب منها ولده إسماعيل ، جد النبى محمد ﷺ [٣].

ومعلوماتـنا عن رحلة إبراهيم وزوجه سارة فى مصر مستمدة من حديث رواه أبو هريرة عن الرسول ﷺ [٤]. ويمكن عرضه فيما يلى :

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل ٢٤٤/١ ، ابن كثير : البداية ١/ ١٤٧ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، محمد أبو الفضل إبراهيم : قصص القرآن ص ٥٠ .

(٢) أحمـد عبد الحميد يوسف : مصر في القرآن والسنة ص ٩ ، ١٦ دار المعارف ، القاهرة ، ط٣ ، بدون تاريخ .

(٣) جمال عبد الهادي : جزيرة العرب ٢ / ٣٠ .

(٤) أخـرجه البخاري في صحيحه في كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قوله : واتخذ الله إبراهيم خليلاً ، حديث رقم ٣١٠٨ .

ترامت الأنباء لفرعون مصر بنزول رجل يسمى إبراهيم وزوجه لبلاده ، وأفاضت عيون الفرعون فى وصف جمال هذه المرأة ، فأرسل ملك مصر فى طلب إبراهيم ، وسأله عن سارة ، فقال له إبراهيم : إنها أخته ، إذ خشى أن قال زوجته أن يقتله ، وينتزعها منه ، ولما عاد إبراهيم لسارة أخبرها بما كان منه تجاه الفرعون ، والقول أنها أخته ، وأخبر سارة أنه صادق فيما قال ، إذ هما أخوان فى الإسلام ، وليس فى مصر مؤمنان غيرهما ، وطالبها ألا تكذبه إذ ما سألها الفرعون عن نفسها ، إذ إنه طلب رؤيتها (١).

تهيأت سارة لمقابلة فرعون مصر ، وذهبت إليه ، بينما وقف إبراهيم يصلى ، ويسأل المولى أن يدفع عن أهله السوء ، وأن يرد بأس هذا الملك ، الذى يتربص بزوجته ، كذلك فعلت سارة حينما دخلت على الفرعون ، إذا قامت إلى وضوئها وصلاتها ، ودعت الله قائلة : اللهم إن كنت تعلم أنى آمنت بك ، وبرسولك ، وأحصنت فرجى إلا على زوجى ، فلا تسلط على الكافر(٢).

استجاب المولى لدعاء خليله وزوجته ، فما إن همَّ الفرعون بسارة حتى شلت يده ثلاث مرات ، ولم تعد فى كل مرة إلا بعد أن قال لها : ادعى الله لى أن يرد الحركة ليدى ولا أضرك ، وفى المرة الثالثة زاد على ذلك قوله: فوالله لا أريبك ولأحسنن إليك ، ثم أمر خدامه بإبعادها عنه قائلا لهم: إنكم لم تأتونى بإنسان ، ولكن بشيطان ، فأخرجوها من عنده ، بعد أن وهبها

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل ٢٤٤/١ ، ٢٤٥ ، ابن كثير : البداية ١ /١٥٥.

(٢) الطبري : تاريخ الرسل ٢٤٥/١ ، ابن كثير : البداية ١/ ١٥٦ .

هاجر خادمة لها ، قائلا : إن هذه لا تخدم نفسها [١].

عـادت سارة لزوجها إبراهيم ، الذى كان ما زال فى صلاته ، فلما شـعر بها أنهى صلاته ، وسألها عما حدث لها ، فقالت : كفي الله كيد الظالم ، وأخدمنى هاجر ، وكان أبو هريرة إذا حدث بهذا الحديث يقول : (**فـتلك أمكـم يا نبى ماء السماء**) [٢] ، وهكذا أنجى المولى نبيه إبراهـيم وزوجـه سارة من هذا الابتلاء العظيم ، وحفظ له عرضه ، ورزقه جارية ، صارت بعد ذلك زوجة له ، وأمّا لنا .

وجاء فى بعض الآثار أن الله – عز وجل – كشف الحجاب فيما بين إبراهـيم وزوجـه سارة ، فلم يزل إبراهيم يراها منذ خرجت من عنده حـتى وصـلت إليه ، وكان مشاهدا لها وهى عند الملك ، ورأى كيف عصمها الله منه ، ليكون ذلك أطيب لقلبه ، وأقر لعينه ، إذ كان – عليه السلام – يحبها حبا شديدا ، لدينها وقرابتها منه [٣].

وروى أبو هريرة أنه سمع النبى ﷺ يقول : (لم يقل إبراهيم شيئا قط لم يكن إلا ثلاثا ، قوله : (إنى سقيم) ، ولم يكن به سقم ، وقوله : (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ) ، وقوله لفرعون حين سأله عن سارة فقال : من هذه المرأة التي معك ؟ قال : أختي ، قال : فما قال إبراهيم – عليه السلام – شيئا قط لم يكن إلا ذلك) [٤].

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل ١/٢٤٥ ، ابن كثير : البداية ١ /١٥٥.

(٢) أخـرجه الـبخاري في صحيحه في كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قوله تعالى : واتخذ الله إبراهيم خليلا ، حديث رقم ٣١٠٨ ، ابن كثير : البداية ١/١٥٥ .

(٣) ابن كثير : البداية ١ / ١٥٧ .

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الفضائل ، باب من فضائل إبراهيم ؛

وقــد عــاش إبراهيم وزوجه فى مصر ما شاء الله لهما أن يعيشا ، وكان إبراهيم – عليه السلام – وادع النفس ، دمث الخلق ، لين الجانب ، طويــل الأناة ، حريصا على العمل ، لذا كثر ماله ، ونمت أنعامه ، وارتفع ذكره ، كما بذل الخليل جهده فى الدعوة إلى الله أينما حل ، وأنى ارتحــل ، حــتى أصاب الوجوم الشرك أمام حجة عقيدة إبراهيم ، كما حسده القوم على مكانته ، ونقموا عليه سعة نعمته ، وسولت لهم نفوسهم أن تمــتد إليه أيديهم بالأذى ، وأحس إبراهيم منهم بالجفوة ، فعزم على مغادرة مصر ، والعودة إلى فلسطين ، ومأوى الأفئدة بيت المقدس [١].

عودة إبراهيم إلى بلاد الشام

عاد إبراهيم – عليه السلام – إلى فلسطين ، واستقر بها ، وبارك الله له فيها ، فكثرت أمواله ، وغلمانه ، وماشيته ، ونعمه ، التى جاء بها من مصر ، ومنح إبراهيم ابن أخيه لوطا بعض هذه الأموال ، وأرسله للدعوة إلى الله فــى مدينة سدوم ، فى أرض الغور بالأردن كما أمر المولى خليله أن يمد بصــره ودعوته فيما حوله من البلاد ، وبشره أن هذه الأرض ستكون له ولذريــته من بعده ، وأن نسله سوف ينتشر فيها ، حتى يكون عدده كعدد تــراب الأرض – وهى البشرى بسيادة دين الإسلام – بيد أن لوطا تسلط علــيه ثلــة من الجبارين ، فأسروه ، واستلبوا أمواله ، وأغنامه ، مما دفع الخليل إلى المسير إليهم فى ثلاثمائة وثمانية عشر رجلا ، حيث حاربهم ، وقــتل من أعدائه عددا كبيرا ، واستنقذ لوطا – عليه السلام – ، واسترجع

= الخليل ، حديث رقم ٤٣٧١ ، الطبري : تاريخ الرسل ١/ ٢٤٦ .

(١) محمــد أبــو الفضل إبراهيم : قصص القرآن ص٥٥ ، منير غضبان : المسيرة الإسلامية للتاريخ ص٧٥ .

أموالـــه ، وتعقب إبراهيم هؤلاء المعتدين حتى وصل إلى شرقى دمشق ، فعسـكر بظاهـرها حينا ، ثم رجع منصورا لفلسطين ، فتلقاه ملوك بيت المقدس معظمين له وخاضعين (١).

زواج إبراهيم بهاجر ومولد إسماعيل

كـان إبراهيم - عليه السلام - قد دعا ربه عند مفارقته لقومه فى العراق قائلا : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٢) ، وارتحل إلى الشام ، ثـم مـنها إلـى مصر ، ثم عاد واستقر فى فلسطين ، وأخّر المولى الاستجابة لدعوته حتى دق عظمه ، وبلغ من الكبر عتيا ، وعقمت سارة عن الإنجاب ، وكانت ترى فى عينيه حينئذ حنينا لولد يشد من أزره فى الكبر ، ويحمل دعوته من بعده . ولكنها لم تكن تملك من الأمر شيئا (٣).

حاولـت السيدة سارة أن تحقق لإبراهيم رغبته فى الولد ، فأشارت علـيه بالزواج من جاريتها هاجر المصرية ، فقد كانت امرأة وضيئه ، وفـية ، كريمة ، مطيعة ، أمينة ، علها تنجب ولدا تشرق به حياتهما ، ويسـرى عنهما بعض ما يجدان من لوعة الوحدة ، ومرارة الوحشة ، فانصاع إبراهيم لرأيها ، وبنى بهاجر ، التى سرعان ما حملت ، فجأتها الملائكـة مبشرة ، أنها ستلد غلاما يسمى إسماعيل ، وستكون يده على الكل ، ويملك جميع بلاد أخوته ، فشكرت الله على ذلك ، وهذه البشارة انطبقت على ولده محمد ﷺ ، فهو الذى سادت به العرب ، وملكت جميع

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل ١/٣٠٩ ، ابن كثير : البداية ١/ ١٥٧ .

(٢) آية ١٠٠ سورة الصافات .

(٣) اليعقوبي : تاريخه ١/٢٥ ، الطبري : تاريخ الرسل ١/٢٤٧ المقدسي : البدء والتاريخ ٣/ ٥٣ ، ابن كثير : البداية ١/ ١٥٨ .

البلاد شرقها وغربها [١].

اكـتمل حمـل هاجـر ، ووضعت وليدها ، وإبراهيم فى السادسة والثمانيـن مـن عمـره ، فطار به فرحا ، واغتبط به اغتباطا شديدا ، وشاركت سارة إبراهيم فرحته ، وأظهرت من الحنو على هاجر ووليدها ما قر به فؤاد إبراهيم ، وأدرك أن الحياة عادت لها نضارتها ، وهو بين زوجتين متحابتين ، ووليد طال انتظاره ، ولكن السيدة سارة ما لبثت أن بدأت تدب نار الغيرة فى نفسها من هاجر ووليدها ، وهى ترى إبراهيم يـزداد اهتمامه بهما يوما بعد آخر ، واستفحل الأمر فأصبحت لا تطيق أن ترى هاجر ووليدها ، وطلبت من إبراهيم أن يبعدهما عن أنظارها ، ليس هذا فحسب ، بل وأقسمت لتقطعن من هاجر ثلاثة أعضاء ، فأمرها إبراهـيم أن تثقب أذنيها ، وأن تخفضها برا بقسمها ، فكانت أمنا هاجر أول من ثُقبت أذنيها ، وأول من ختنت [٢].

إبراهيم يحمل أهله إلى مكان البيت الحرام

أدرك إبراهيم - عليه السلام - أنه أصبح فى موقف لا يحسد عليه ، فبعد أن رزقه الله بإسماعيل على الكبر ها هى ذى سارة تطلب منه إبعاده هـو وأمه هاجر عن أنظارها ، فأوحى الله - تعالى - إليه أن يستجيب لرغـبة سـارة ، وأن يحمل هاجر وابنها إلى مكة ، ولم يكن يومئذ بها بيت ، وخرج مع إبراهيم جبريل ليرشده إلى مكانها ، فلا يمران بقرية إلا ويقول له إبراهيم : أبهذا أمرت يا جبريل ؟ ، فيقول جبريل أمضى ، حتى قدم مكة ، والبيت يومئذ ربوة حمراء مدرة ، فقال إبراهيم لجبريل:

(١) ابن كثير : البداية ١/ ١٥٨ .

(٢) ابن كثير : البداية ١٥٨/١ ، ١٥٩ ، الثعالبي : عرائس : المجالس ص ١١٦

أها هنا أمرت أن أضعهما؟ قال نعم ، فعمد بهما إلى موضع الحجر ، وأنــزلهما فيه ، وبذلك تبدأ مرحلة جديدة من تاريخ إبراهيم والبشرية ، ألا وهــي اســتقرار إســماعيل وأمه بجوار البيت ، وبدء عمران هذه المــنطقة ، توطــئه لبــناء البيــت ، وإعــادة إعماره على يد إبراهيم وإسماعيل[1].

وضع إبراهيم هاجر وإسماعيل عند دوحة فوق زمزم أعلى المسجد ، ولم يكن بها أنيس أو جليس ، وترك لهما جرابا فيه تمر ، وسقاء فيه مــاء ، ثــم فارقهما إبراهيم منصرفا ، فتعلقت به هاجر ، وقالت : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه أنيس ولا جليس ؟ ، وقالت له ذلك مرارا ، وهو لا يلتفت إليها ، حتى وهنت قوتها ، فقالت له : الله أمرك بهذا ؟ ، قال : نعم ، قالت:إذا لا يضيعنا ، ثم رجعت إلى حيث وليدها ، وانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية ، وبعد عن أنظار هاجر ، استقبل بوجهه البيت ، ثم رفع يديه ، ودعا ربه قائلا : ﴿ **رَّبَّنَا إِنــي أَسْــكَنت مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِــيمُواْ الصَّــلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ** ﴾ [2].

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل ١/ ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ابن كثير : البداية ١/ ١٥٩ ، البغوي : معالم التنزيل ٤/ ٣٥٥ ، ٣٥٦ .

(٢) آيــة ٣٧ ، سورة إبراهيم ، الطبري : تاريخ الرسل ١/ ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ابــن كثــير : البداية ١/ ١٥٩ ، ابن قتيبة : المعارف ١ / ٣٤ ، البغوى معالم التنزيل ٤ / ٣٥٥ ، ٣٥٦ .

تفجر بئر زمزم

استسلمت السيدة هاجر لأمر الله وقدره ، وأخذت ترضع ابنها ، وتشرب وتأكل مما معها ، حتى نفذ ماؤها ، وجف ضرعها ، وعطش وليدها ، واشتد بكاؤه ، فهُرِعَت إلى جبل الصفا تنظر من فوقه علها تجد من يغيثها ، فلم تر أحدا ، فهبطت منه ، وصعدت على جبل المروة ، ونظرت إلى أسفل الوادى علها تجد من ينقذها ووليدها ، فلم تجد شيئا ، وفعلت ذلك الأمر بين الصفا والمروة سبع مرات ، فلما استقرت فى المرة الأخيرة على جبل المروة ، سمعت صوتا ، فقالت لنفسها : صه ، ثم تسمعت ، فسمعت ، فقالت : إن كان عندك غوث فأغثني ، فإذا هى بالملك عند موضع زمزم ، يضرب بجناحه أسفل إسماعيل ، حتى ظهر الماء ، فهرعت لتسقى وليدها ، وتشرب هى ، ثم لتغرف من الماء فى سقائها ، وهى تفور بعد ما تغرف ، وروى ابن عباس أن النبى ﷺ قال: **(رحم الله أم إسماعيل، لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينا معينا)** (١).

هدأ الملك من روع السيدة هاجر ، وطمأنها على نفسها ووليدها ، وبشرها أن هذا الغلام وأباه سوف يبنيان لله بيتا فى هذا المكان ، وأن هذا الماء سوف يشرب منه ضيوف الرحمن ، وأن الله لن يضيع أهل هذا البيت (٢).

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه فى كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قوله : واتخذ الله إبراهيم خليلاً حديث رقم ٣١١٣ ، الطبرى : تاريخ الرسل ١ / ٢٥٢ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ابن كثير : البداية ١/ ١٥٩، ١٦٠، البغوى : معالم التنزيل ٤ / ٣٥٦.

(٢) الطبري : تاريخ الرسل ١/ ٢٥٦ ، ابن كثير : البداية ١/ ١٦٠ .

استقرت هاجر وإسماعيل حول ماء زمزم بعد أن منّ الله عليهما بالماء ، حتى مر بالقرب منها جماعة من قبيلة جرهم وهم فى طريقهم إلى الشام ، فرأوا الطيور على الجبل ، فقالوا أنها لا ترد هذا المكان إلا إذا كان فيه ماء وحياة ، وهم يعلمون أن لا ماء فيه ، فأرسلوا واردهم حتى عاد لهم بالبشرى بوجود الماء فى هذه المنطقة ، فصعدوا إلى هاجر ، واستأذنوها فى المقام معها حول الماء ، فأذنت لهم ، بشرط ألا يكون لهم حق فى الماء ، ولهم أن ينتفعوا به ، ثم أرسل الجراهمة إلى باقى أهلهم ، فلحقوا بهم ، ودب العمران والحياة حول ماء زمزم ، ونشأ إسماعيل بين أظهرهم ، وتعلم العربية منهم ، وامتاز بالدماثة ، وحسن الخلق ، [1]. وأنست هاجر بهم . واطمأنت إلى جوارهم ، وشكرت الله أن جعل أفئدة من الناس تهوى إليهم [2].

الأمر بذبح إسماعيل

لم ينس إبراهيم ابنه وحيده ، وأمه هاجر ، بل كان يفد إليه لماما ، ويزوره قليلا ، ليطمئن على حاله ، ويقر عينه بمرآه ، إذ كان فى أمس الحاجة إليه ، والشعور بكنفه ، ولم تكن سارة بالتى تسمح للخليل بطول مكثه عندهما ، لذلك طوى الله الأرض لخليله ، حتى يسرع برؤيتهما ، ويعود إلى حيث مستقره في الشام ، وقيل سخر له المولى البراق ليفد إليهما ، ويعود من يومه ، ولما شب إسماعيل ، وأطاق السعى والعمل ، وصار يسعى فى مصالحه كأبيه ، رأى إبراهيم فى نومه أنه يؤمر بذبحه

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل ١/ ٢٥٦ ، الثعالبي : عرائس المجالس ص[illegible] ، ابن قتيبة : المعارف ١/ ٣٤ ، البغوي : معالم التنزيل ٤ / ٣٥٦

(٢) محمد أبو الفضل إبراهيم : [illegible] ص [illegible]

، ورؤيا الأنبياء حق – كما قال ابن عباس – ، وأحلامهم صدق [١].

فتـنة إثـر فتنة ، ومحنة تتلوها محنة ، شيخ هرم كإبراهيم ، جالد الأيام ، وعرك الدهر ، واحنته السنون ، كان طول حياته يأمل الولد ، حـتى إذا بلـغ من الكبر عتيا رزقه الله بغلام وحيد ، قرت به عينه ، وأشرقت له نفسه ، ثم أُمِر أن يسكنه بواد غير ذى زرع ، ويتركه وأمه فـى مكان قفر ، لا جليس به ولا أنيس ، فامتثل لأمر الله أولا ، وجعل الله لهمـا من عسرهما يسرا ، ومن ضيقهما فرجا ومخرجا من حيث لا يحتسـبان ، ثم ها هو ذا يؤمر بذبح ابنه وحيده ، الذى ليس له غيره ، إنها لمحنة تنوء بها الجبال الراسيات ، ولكن العظائم لها العظماء ، فعلى قـدر إبراهـيم ، وعلو منزلته ، وكمال إيمانه ، يكون ابتلاؤه ، فامتثل إبراهيم لأمر ربه ، وارتحل حتى لقى ابنه ، واستعد ليلقى بين يديه بتلك الرغبة التى تدك الجبال الراسيات، وهو واثق من أمر الله ، وفى الله[٢].

عـرض إبراهـيم الأمر على ولده قائلا : ﴿ **يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَـنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى** ﴾ [٣] ، ليكون ذلك أطيب لقلبه ، وأهون عليه من أن يأخذه قسرا ، ويذبحه قهرا ، فبادر الغلام الحليم إلى إجابة والده بالطاعة من دون نظر ولا رويـة ولا تردد ، بل قـال له :

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل ١ / ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، القرطبي: الجامع١٥/١٠٢ ، ابـن كثـير : الـبداية ١/ ١٦١ ، ١٦٢ ، محمد أبو الفضل إبراهيم : قصص القرآن ص ٦٠ .

(٢) ابن كثير : البداية ١/ ١٦٢ ، محمد أبو الفضل : قصص القرآن ص٦٠ ، ٦١ .

(٣) من الآية ١٠٢ سورة الصافات .

﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ [١] ، بر عظيم ، وتوفيق من الله أكبر ، وإيمان وثيق ، ونفس راضية بما أراد الله وقدر [٢].

ثـم أراد الولد أن يخفف عن أبيه لوعة الثكل ، ويرشده إلى أقرب السـبل إلى قصده ، فقال : يا أبت اشدد وثاقى ، وأحكم رباطى حتى لا اضـطرب ، واكشف عنى ثيابى حتى لا ينتضح عليها شئ من دمى ، فيـنقص أجرى ، وتراه أمى فيشتد حزنها ، وتفيض دموعها ، واشحذ شفرتك ، وأسرع إمرارها على حلقى ، ليكون أهون على ، فإن الموت شـديد ، ووقعـه ألـيم ، واقرأ على أمي السلام ، وإن أردت أن ترد قميصـي علـيها فـافعل ، فإن ذلك فيه تسرية لهمها ، وسلوة لها فى مصـابها ، وهو ذكرى لوليدها ، تشم منه عبيره ، وتتنسم فيه أريجه ، وتعود إليه حين تبحث حولها فلا تجدنى ، وتفتش عنى فلا ترانى ، فقال له إبراهيم : نعم العون أنت يا بنى على أمر الله ، ثم ضمه إلى صدره يقبله ، وتباكيا وانتحبا [٣].

وقال عبد الله بن عباس : إن إبراهيم لما أمر بالمناسك ، عرض له الشـيطان عـند المسعى ، فسابقه ، فسبقه إبراهيم ، ثم ذهب به جبريل – عليه السلام – إلى جمرة العقبة ، فعرض له الشيطان ، فرماه إبراهيم

---

(١) من الآية ١٠٢ سورة الصافات .

(٢) الـبغوي : معالم التنزيل ٤٨/٧، ٤٩ ، القرطبي : الجامع ١٥/ ١٠٤، ابن كثير : البداية ١/ ٦٢ ، محمد ابو الفضل إبراهيم : قصص القرآن ٦١

(٣) الطبري : تاريخ الرسل ١/ ٢٧٥ ، البغوي : معالم التنزيل ٤٨/٧، ٤٩ محمد أبو الفضل إبراهيم : قصص القرآن ص ٦١ ، ٦٢ .

بسبع حصيات ، حتى ذهب ، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى ، فرماه إبراهيم بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم تله للجبين ، وعلى إسماعيل قميص أبيض ، فقال له : يا أبت إنه ليس لى ثوب تكفنى فيه غير هذا ، فاخلعه عنى ، فاكفنى فيه ، فالتفت إبراهيم – عليه السلام – فإذا هو بكبش أعين ، أبيض ، أقرن ، فذبحه ، فقال ابن عباس : لقد رأيتنا نتبع هذا الضرب من الكباش [1].

وروى ابن إسحاق [2] رواية تبين أن الشيطان قد حاول أن يثنى إبراهيم عن أمر ربه بذبح ولده ، ولما فشل فى ذلك ،حاول أن يخوف إسماعيل مما سوف يفعله به أبوه ، ولما خاب معه اتجه لهاجر ليخوفها مما سيحل بولدها من أبيه ، فأعلنت إن كان ذلك أمر الله ، فلا مرد له ، حيث قال ابن إسحاق : إن إبراهيم حينما أُمر بذبح ابنه قال له : يا بنى خذ الحبل والمدية ، ثم انطلق بنا إلى هذا الشعب ليحطب أهلك منه ، قبل أن يذكر له شيئا مما أُمر به ، فلما توجه إلى الشعب اعترضه عدو الله إبليس ، ليصده عن أمر الله فى صورة رجل ، فقال أين تريد أيها الشيخ؟ ، قال:أريد هذا الشعب لحاجة لى فيه ، فقال : والله إنى لأرى الشيطان قد جاءك فى منامك ، فأمرك بذبح بنيك هذا ، فأنت تريد ذبحه ، فعرفه إبراهيم ، فقال له : إليك عنى ، أى عدو الله ، فوالله لأمضين إلى أمر ربى .

فلما يئس عدو الله إبليس من إبراهيم ، اعترض إسماعيل وهو وراء إبراهيم يحمل الحبل والشفرة ، فقال له : يا غلام هل تدرى أين

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل ١ / ٢٧٦ .

(٢) الطبري : تاريخ الرسل ١ / ٢٧٤ ، ٢٧٥ .

يذهـــب بك أبوك ؟ ، قال يحطب أهلنا من هذا الشعب ، قال : والله ما يـــريد إلا أن يذبحك ، قال : لِمَ ، قال يزعم أن ربه أمره بذلك ، قال : فليفعل ما أمره به ربه ، فسمعا وطاعة ، فلما امتنع منه الغلام ، ذهب إلى هاجر أم إسماعيل ، وهى فى منزلها ، فقال لها : يا أم إسماعيل هل تدرين أين ذهب إبراهيم بإسماعيل ؟ ، قالت : ذهب به يحطبنا من هذا الشعب ، قال : ما ذهب به إلا ليذبحه ، قالت : كلا هو أرحم به ، وأشد حـــبا له من ذلك ، قال : إنه يزعم أن الله أمره بذلك ، قالت : إن كان ربه أمره بذلك فتسليما لأمر الله ، فرجع عدو الله بغيظه ، لم يصب من آل إبراهيم شيئا مما أراد ، وقد امتنع منه إبراهيم ، وآل إبراهيم بعون الله ، وأجمعوا لأمر الله بالسمع والطاعة ، ولما خلا إبراهيم بابنه قال له : يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك ، قال : يا أبت افعل ما تؤمر ، ستجدنى إن شاء الله من الصابرين [(١)].

أســـلم الوالـــد وولده أمرهما لله تعالى ،حيث رضى الغلام بالذبح ، ورضى الوالد أن يذبحه ، ووضع إبراهيم إسماعيل على شقة ، وأوثقه بكتافه ، وأمسك السكين ، وأخذ يصوب النظر إليه ، وتدفقت عبراته ، وتتابعـــت زفراته رحمة به ، وإشفاقا عليه ، وأخيرا وضع السكين على حلقه ، ولكنها لم تقطع ، لأن قدرة الله قد ثلمت حدها ، فنظر إسماعيل لأبيه قائلا : يا أبت لا تذبحنى وأنت تنظر إلى وجهى ، بل ضعه على الأرض ، فضـــجعه كما تذبح الذبائح ، وسمى إبراهيم ، وكبر ، وتشهد الولد للموت ، وأمرَّ إبراهيم السكين على حلقه ،فلم تقطع شيئا ، إذ حيل

---

(١) الطـــبري: تـــاريخ الرسل١/ ٢٧٤ ، ٢٧٥، الثعالبي : عرائس المجالس ص ١٣٤ ، ٢٧٥، البغوي : معالم التنزيل٤٩/٧ .

بيـــنها وبيـــن رقبة إسماعيل بحاجز ، وحاول إبراهيم مرارا أن يفعل ، وأدركته الحيرة ، وشق ذلك على نفسه ، فتوجه لله الذى جعل له مخرجا ، ورحم ضعفه ، واستجاب لدعائه ، وكشف غمته[1] ، حيث قال:﴿ **فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ** ﴾[2].

استبشـــر إبراهيم بخطاب الله له ، الذى بين صدق الخليل ، وتحمله للـــبلاء والاختبار ، وحسن طاعته لله ، وسرعة مبادرته بتنفيذ ما طلب منه من التضحية بولده ، كما ضحى آنفا بنفسه فى النار ، فنجاه الله منها ، فكذلك نجى ولده ، حيث قال تعالى : ﴿ **وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ** ﴾[3] ، قـــال ابـــن عباس : أنه كبش رعى فى الجنة أربعين سنة ، وقيل : هو الكبش الذى قربه هابيل بن آدم قربانا فتقبل منه ، فهوى إبراهيم بسكينه التى كانت كليلة عليه فصُرِعَ لوقته ، وخضب الأرض بدمه ، فكان فداء لابنه ، وحقنا لدمه ، وسنة لمن بعده [4].

وأما عن السبب الذى من أجله ابتُلى إبراهيم بذبح ابنه فيقال :

أن إبراهيم لما فارق قومه هاربا بدينه ، متوجها إلى الشام من العراق ، دعا الله أن يهب له ولدا ذكرا صالحا ، **فقال:(رب هب لى من الصالحين)**[5]

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل ١/ ٢٧٦ – ٢٧٨ ، ابن كثير : البداية ١/ ١٦٢

(٢) الآيات ١٠٣– ١٠٥ سورة الصافات .

(٣) آية ١٠٧سورة الصافات .

(٤) الطـــبري : تاريخ الرسل ٢٧٧/١ ، الثعالبي : عرائس المجالس ص١٣٣، ابن كثير : البداية ٦٣/١ ، محمد ابو الفضل : قصص القرآن ص٦٢، ٦٣

(٥) آية١٠٠ سورة الصافات .

، ولمـــا جاءته الملائكة الذين أرسلهم الله لهلاك قوم لوط بشروه بغلام حلـــيم ، فقـــال إبراهيم : هو إذا ذبيح الله ، ولما ولد الغلام ، وبلغ معه السعى ، قيل لإبراهيم أوف بنذرك الذى نذرت لله [١].

وقـــال آخرون: إن إبراهيم أمر بذبح ابنه فى المنام ابتلاء من الله ، واختبارا له ، ليعلم الخلق حسن طاعته لربه ، وانقياده لأمره، واستحقاقه شـــرف المنزلة ، وعلو الرتبة ، وليقتدوا به فى طلب الوسيلة ، وابتغاء القربة والزلقة [٢].

مولد إسحاق عليه السلام

لما ولد لإبراهيم إسماعيل من هاجر ، تمنت سارة أن يكون لها ولد بعـــد أن عقمت ، وبلغت من الكبر عتيا ، فاستجاب لها المولى وبشرها بإسحاق ، على أيدي الملائكة الذين أرسلهم الله للقضاء على مدائن قوم لـــوط ، ولقـــد تعجبـــت سارة من أن تحمل وتلد ، وقد أصابها الكبر ، فقالت: (**عجوز عقيم**) [٣] ، كما تعجبت أن يتحقق لها هذا الأمر ، وقد أتـــم إبراهـــيم المائة من عمره ، وتجاوزت هى التسعين من عمرها ، فقالـــت : ﴿ **يَـــا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَـــذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَـــذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ** ﴾ [٤] ، ولكن الملائكة أكدت لها البشرى بغلام عليم ، قال تعالى : ﴿ **وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ** ﴾ [٥] ، وأكدت الملائكة أن هذا هو أمر

---

(١) الطبري: تاريخ الرسل ١/ ٢٧٢ ، الثعالبي: عرائس المجالس ص١٣٢.

(٢) المقدسي : البدء والتاريخ ٣ / ٦٤ .

(٣) من الآية ٢٩ سورة الذاريـــات .

(٤) من الآية ٧٢ سورة هـــود .

(٥) من الآية ٢٨ سورة الذاريـــات .

الله ، ورحمته وبركاته على إبراهيم ، وآل بيته ، حيث قال تعالى : ﴿ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ (١) ، ولم تقف البشرى عند ميلاد إسحاق وحسب ، بل وبشرت الملائكة إبراهيم و سارة بجعل إسحاق نبيا هو وابنه يعقوب ، وبارك المولى في نسلهما ، فكان منه كل الأنبياء حتى عيسى – عليه السلام – (٢). ، حيث قال تعالى : ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ ﴾ (٣) ، وقال سبحانه :﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴾ (٤) ، وقال جل في علاه : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٥) .

وهكذا شاءت إرادة المولى سبحانه وتعالى أن يرزق إبراهيم وزوجه سارة بإسحاق على الكبر ، بعد أن وهب له إسماعيل من زوجه هاجر ، فكان إسماعيل وإسحاق أعظم هبة من الله لخليله إبراهيم ، الذى تلقاها بالشكر والثناء ، فقال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ (٦) ، وقد جعل الله – جل

---

(١) الآية ٧٣ سورة هود .

(٢) ابن كثير : البداية ١/١٦٥ ، ١٦٦ ، القرطبي : الجامع ٩/ ٧٠ ، البغوي : معالم التنزيل ٧/ ٥١ .

(٣) من الآية ٧١ سورة هود .

(٤) آية ٧٢ سورة الأنبياء .

(٥) آية ٢٧ سورة العنكبوت .

(٦) آية ٣٩ سورة إبراهيم .

فى علاه – فى ذرية إسماعيل وإسحاق النبوة ، فكان من ذرية إسماعيل محمد ﷺ ، ومن ذرية إسحاق جميع ذرية بنى إسرائيل [١].

ولما ولدت سارة إسحاق قال الناس : ألا تعجبون لهذا الشيخ ، وهذه العجـوز ، وجدا غلاما لقيطا فتبنياه !! ، فصور الله تعالى إسحاق على صورة أبيه إبراهيم ، ولم يكن بينهما فارق ، فوسم الله إبراهيم بالشيب ، ليفرق الناس بين إبراهيم وولده [٢].

وكانت الملائكة التى بشرت إبراهيم وسارة بإسحاق قد جاءت لأمر آخر ألا وهو إنزال العذاب بقوم لوط .

نزول العذاب بقوم لوط

كان قوم لوط يأتون الذكران من العالمين ، فنهاهم لوط ، فلم ينتهوا وجـاروا فى الأحكام ، حتى ضُرب بهم المثل فى الجور ، ولما تكاثر عمـل قوم لوط وجورهم ، بعث الله إليهم الملائكة لهلاكهم ، فنزلوا بدار إبراهيم – عليه السلام – ، وكان يضيف الأضياف ، فقرب إليهم عجلا مشـويا ، فلما رآهم لا يأكلون ، أوجس منهم خيفة ، فعرفوه بأنفسهم ، وأنهم جاءوا لإهلاك قرى قوم لوط ، فقال لهم إبراهيم : إن لوطا وأهله فيها ، فأجابوه نحن أعلم بمن فيها ، لننجيه وأهله إلا امرأته ، وبشروا إبراهيم وسارة بميلاد إسحاق ، ومن بعده يعقوب ، ثم اتجهوا إلى بيت لوط ، حيث وشت زوجته بهم إلى قومها ، فهرعوا إليه يطلبون هؤلاء الذيـن دخلوا عليه فى صورة غلمان حسان ، وحاول لوطا عبثا نهيهم عن فضحه وفضح ضيوفه ، ولكنهم لم يمتثلوا لذلك ، فطلب جبريل أن

---

(١) ابن كثير : البداية ١/ ١٥٨ ، ١٧١ .

(٢) اليعقوبي : تاريخ ١/٢٦ ، القرماني : أخبار الدول ١/ ٧٧ .

يــتركهم يدخلــوا علــيهم ، فضربهم بجناحيه ، فأعماهم ، ثم خرجت الملائكة عند السحر من دار لوط ، وقلب جبريل على قوم لوط قراهم ، ولم ينج منهم أحد سوى لوط ومن آمن به [(١)].

قــال الله تعــالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنكَرُونَ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَــفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَــتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِــيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ [(٢)].

من الذبيح من ولدى إبراهيم

وقع خلاف بين المسلمين وأهل الكتاب حول هذه القضية ، فالسواد الأعظــم مــن المسلمين يقول : إن الذبيح هو إسماعيل ، وفى هذا من الشرف والرفعة للمسلمين على غيرهم ، إذ إسماعيل – جد النبى محمد ﷺ – هو الذى ابتُلى إبراهيم بذبحه ، ثم فداه بذبح عظيم ،وصار الأمر من يومئذ سنة للمسلمين إلى يوم القيامة ، وشرف لإسماعيل وبنيه على

---

(١) اليعقوبــي : تاريخه ١/ ٢٥ ، ٢٦ ، الطبري : تاريخ الرسل ١/٢٤٨، ٢٤٩ .

(٢) الآيات ٢٤ – ٣٧ سورة الذاريــات .

غيرهم من أهل الكتاب من يهود ونصارى (١).

أمـــا أهـــل الكـــتاب فيقولون : إن الذبيح هو إسحاق – وهو جدهم الأعلـــى – ، حيث ورد فى التوراة المزعومة بين أيديهم ، (اذبح ابنك وحـــيدك إســـحاق) ، ويســـتندون إلى أن البشرى بإسحاق فى صورة الصافات (٢). قد جاءت فى سياق قصة الذبح ، مما يدل على أن المبشر به والمذبوح هو إسحاق (٣).

ولا مراء فى أن أهل الكتاب – اليهود والنصارى – ينتسبون إلى يعقوب ابن إسحاق ، والمسمى أيضا بإسرائيل فى القرآن الكريم ، حيث قال: **﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾** (٤) ومن ثم فهـــم يحـــاولون أن يسلبوا هذا الشرف إليهم ،ويزعمون أن الذبيح هو إسحاق ، وان الله فداه بذبح عظيم ، لما له ولذريته من مكانـــة كبيرة لديه ، ويحاول أهل الكتاب التعالى على المسلمين بذلك ، **﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْـــرُجُ مِـــنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلا كَذِبًا ﴾** (٥) ، **ومما زاد من شقة الخلاف بين المسلمين وأهل الكتاب حول هذه القضية أمران** :

الأول :

اخـــتلاف علمـــاء المســـلمين حول مَنْ الذبيح من ولدي إبراهيم ؟ وظهور آراء متباينة حول هذه القضية منذ عصر الصحابة والتابعين ،

---

(١) ابن كثير : البداية ١/ ١٦٣ – ١٦٥ .

(٢) الآيات ١٠٠ – ١١٣ .

(٣) ابن كثير : البداية ١/ ١٦٣ – ١٦٥ .

(٤) من الآية ٩٣ سورة آل عمران .

(٥) من الآية ٥ سورة الكهف ، ابن كثير : البداية ١٦٣/١ – ١٦٥ .

واجـتهادهم فيها ، فمن قائل : إنه إسماعيل ، ومن قائل : إنه إسحاق ، واستناد كلا الفريقين بأدلة وأسانيد تؤيد وجهة نظره ، واقتفاء اللاحقين أثر السابقين فى الاجتهاد فى هذا الأمر

الأمر الثانى :

أن المولى – عز وجل – لم يسم صراحة اسم الذبيح فى القرآن الكريم ، مما ترك الباب مفتوحا للاجتهاد بين الطرفين ، القائلون بأنه إسماعيل ، والقائلون بأنه إسحاق ، واهتبال أهل الكتاب هذا الأمر ، لتحقيق هدفهم فى القول بأن إسحاق .

ولا يمكننا أن نفصل فى هذه القضية إلا بعد أن نتناول الأمرين السابق ذكرهما : وهما الأقوال المتعارضة فى تحديد هذا الذبيح ، ثم بيان الحكمة فى أن الله لم يسم الذبيح صراحة فى كتابه الكريم

أولا : القائلون بأن الذبيح إسماعيل وأدلتهم :

قال بهذا الرأى مجموعة من الصحابة منهم : أبو هريرة ، وابن عمرو ، وابن عباس ، ومجموعة من التابعين ومنهم سعيد بن المسيب ، والشعبى ، ومجاهد ، والكلبى ، وعلقمة ، [١]. واستدلوا على رأيهم بما يلى :

١- أن الله وصف إسماعيل بالصبر دون غيره فى قوله:﴿ **وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [٢]. ، وهو صبره على الذبح .

٢- أن الله وصف إسماعيل بصدق الوعد ، حيث قال : ﴿ **إِنَّهُ كَانَ**

---

(١) القرطبى : الجامع ١٥ / ١٠٠ ، الطبري : تاريخ الرسل ١/ ٣٦٣ – ٣٦٧ .

(٢) آية ٨٥ سورة الأنبياء .

صَادِقَ الْوَعْدِ ﴾ [(١)]. ، لأنه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح ، فوفى به ، ولم يوصف بذلك إسحاق [(٢)].

٣- أن الله- تعـالى – قص فى سورة الصافات [(٣)]. قصة دعاء إبراهيم لربه أن يهبه غلاما صالحا ، ثم تبشير إبراهيم بالغلام الحليم ، ثـم ذكـر المولى قصة الذبح والفداء ، ثم تبشير إبراهيم وسارة بمولد إسـحاق ويعقـوب ، ونبوتهما ، فهل يليق أن تأتى البشارة بالميلاد بعد قصة الذبح والفداء ، أم أن الميشر به وهو إسحاق ، غير الذى سبق فى قصة الذبح والفداء ، وهو إسماعيل [(٤)].

٤- أن الله – تعـالى – بشر إبراهيم بإسحاق فقال : **﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾** [(٥)]. ، فلو كان الذبيح إسحاق كيف يؤمر إبراهيم بذبحه ، وقد وعده الله أن يكون نبيا ، كما أن الله تعالى قـال : **﴿ فَبَشَّـرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ ﴾** [(٦)] ، فكيف يؤمر بذبـح إسحاق قبل إنجاز الوعد فى يعقوب ، فهذا يتعارض مع البشارة المتقدمة

٥- ورد فـى الأخبار تعليق قرن الكبش المفتدى به فى الكعبة ، وظـل فيها حتى احترق عند حريق البيت على عهد الحجاج ، فدل هذا

---

(١) من الآية ٥٤ سورة مريم .

(٢) البغوي : معالم التنزيل ٤٧/٧ ، القرطبي : الجامع ١٥ /١٠١ .

(٣) آيات ١٠٠ – ١١٣ .

(٤) ابن كثير : البداية ١/ ١٦٣ .

(٥) آية ١١٢ سورة الصافات .

(٦) من الآية ٧١ سورة هـود .

علـــى أن الذبـــح كـــان فى مكة ، ووقع لإسماعيل ، أما لو كان الذبيح إسحاق لوقع ذلك فى بيت المقدس ، كما أن إسحاق لم يقدم إلى مكة فى حال صغره أبدا [١].

٦- أن الله لما ابتلى إبراهيم بذبح ولده ، كان الظاهر أن الابتلاء وقـــع حيـــن لم يكن لإبراهيم ابن غير إسماعيل ، لأنه الأكبر ، إذ ذلك أكمل فى الابتلاء .

٧ - قول الأعرابي للرسول ﷺ : (**يا ابن الذبيحين**) [٢]،. وتبسم النبى (ﷺ) وليس فى آبائه ذبيح غير إسماعيل وعبد الله .

٨- مـــا ورد فى التوراة المزعومة من قول لإبراهيم : (خذ ابنك وحيدك الذى تحبه إسحاق ، واذهب إلى أرض المريا ، واصعده هنالك محـــرقة على أحد الجبال) ، فلم يكن إسحاق ابنا وحيدا لإبراهيم ، لأن إســـماعيل ولـــد قبله بثلاث عشرة سنة ، ولم يزل إبراهيم و إسماعيل متواصـــلين ، وإقحام اسم إسحاق بعد قوله : ابنك وحيدك هو من زيادة كاتب التوراة [٣].

٩ - قـــال ابـــن كثير : إن طائفة كبيرة من السلف وغيرهم ، ممن

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل ١/ ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، الثعالبي : عرائس المجالس ص١٣٢ ، القرطبي : الجامع ١٥/ ١٠١ ، البغوي : معالم التنزيل ٤٧/٧ ، ابن كثير : البداية ١/ ١٦٣ ، ١٦٤ .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ، كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء ، باب ذكر إسماعيل بن إبراهيم حديث رقم ٣٩٩٥، الثعالبي : عرائس المجالس ص ١٣١ .

(٣) ابن عاشور : التحرير ١٢/ ١٤٦ ، ١٤٧ .

قالوا بأن الذبيح إسحاق ، أخذوا ذلك من كعب الأحبار ، أو من صحف أهل الكتاب ، وليس فى ذلك حديث صحيح عن المعصوم حتى نترك لأجله ظاهر الكتاب العزيز ، ولا يفهم هذا من القرآن ، بل المفهوم والمنطوق والنص عند التأمل يدل على أنه إسماعيل [١].

رد القائلين بأنه إسحاق على ما سبق من أدلة :

١- فيما يتعلق باعتراضهم عن كيفية الأمر بذبح إسحاق وقد وعِدَ أن يكون نبيا ، فيحتمل أن يكون المعنى وبشرناه بنبوته ، بعد أن كان من أمره ما كان ، ولعل إبراهيم قد أمر بذبح إسحاق بعد أن ولد له يعقوب ، كما لم يرد فى القرآن أن يعقوب يولد من إسحاق .

٢- أما القول بأنه لو كان الذبيح إسحاق لوقع ذلك فى بيت المقدس لا مكة ، فيرد عليه بقول سعيد بن جبير ، وهو : أن إبراهيم حمل إسحاق من بيت المقدس إلى مكة ، ولما فداه الله عاد به [٢].

وهكذا نرى أن القائلين بأن الذبيح إسحاق لم يتمكنوا من الرد على جميع الأدلة التى ساقها القائلون بأن الذبيح إسماعيل ، مما يدل على ضعف حججهم ، وإن كان هذا لا يمنع من عرض وجهة نظرهم وأدلتهم التى استندوا عليها فى أن الذبيح هو إسحاق .

ثانيا : القائلون بأن الذبيح إسحاق وأدلتهم :

قال بهذا الرأى أيضا مجموعة من الصحابة منهم : العباس ، وابنه ، وعبد الله بن مسعود ، ومن التابعين : علقمة ، والشعبى ، ومجاهد ،

---

(١) ابن كثير : البداية ١ / ١٦٤ .

(٢) الطبري : تاريخ الرسل ١/ ٢٧١ ، القرطبي : الجامع ١٥/١٠١ .

وسعيد بن جبير [١]. واستدلوا على رأيهم بما يلى :

١ - مـــا ورد فى القرآن الكريم من الإخبار عن دعاء إبراهيم حين فارق قومه مهاجرا إلى ربه إلـــى الشام مع زوجه سارة ، حيث قال : ﴿ إِنِّـــي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [٢]. ، وذلـــك قبل أن يعرف هاجر ، وقبل أن يولد له إسماعيل ، ثم اتبع ذلك ربنا الخبر عن إجابة دعاءه ، وتبشيره إياه بغلام حليـــم ، حيث قـــال : ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ [٣]، وبعد ذلك أخبر المولى عن رؤيا إبراهيم أنـــه يذبح ذلك الغلام حين بلغ معه السعى ، ولا يعلم فى كتاب الله ذكر لتبشـــير إبراهيم بولد ذكر إلا إسحاق ، حيث قال تعالى : ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ ﴾ [٤]. ، وقال سبحانه : ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ ﴾[٥] ، وجرى ذلك فـــى كـــل موضع من القرآن ذكر فيه تبشير إبراهيم بغلام ، حيث ذكر تبشـــير الله إياه بالغلام من زوجته سارة ، فالواجب أن يكون المبشر به فـــى قولـــه: ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ [٦]. ، نظير ما فى سائر سور القـــرآن من تبشيره إياه به من زوجته سارة [٧]. فيكون المبشر به هو

---

(١) القرطبي : الجامع ١٥/ ٩٩ ، ١٠٠ .

(٢) الآيتان ٩٩ ، ١٠٠ سورة الصافات .

(٣) آية ١٠١ سورة الصافات .

(٤) من الآية ٧١ سورة هود .

(٥) من الآية ١١٢ سورة الصافات .

(٦) آية ١٠١ سورة الصافات .

(٧) الطبري : تاريخ الرسل ١/٢٧٠ ، ٢٧١ ، الثعالبي : عرائس المجالس ص ١٣٢ ، القرطبي : الجامع ١٥/ ١٠١ ، البغوي : معالم التنزيل ٧/ ٤٦ .

إسحاق فى كل الآيات وهو الذبيح .

٢ – قال سعيد بن جبير : (أُرى إبراهيم ذبح ابنه إسحاق فى المنام ، فسار به مسيرة شهر فى غداة واحدة ، حتى أتى به المنحر من منى ، فلمـا صرف الله عنه الذبح ، وأمره أن يذبح الكبش ، فذبحه ،وسار به مسـيرة شهر فى روحة واحدة ، فطويت له الأودية والجبال) [١]. مما يشير إلى أن الذبيح إسحاق .

٣ – أن الله تعالى قال عن الغلام الذبيح : ﴿ **فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ** ﴾ [٢] ، وإسـماعيل لم يكن عند أبيه فى بلاد الشام ، وإنما كان وهو صغير مع أمه بجوار مكة ، ورد على ذلك القائلون بأن الذبيح إسماعيل بأنه روى أن الخليـل كـان يذهب فى كثير من الأوقات راكبا البراق إلى مكة ، ليطلع على زوجه وابنه ، ثم يعود فى نفس اليوم [٣].

٤ – أنـه افتخر رجل عند ابن مسعود فقال أنا فلان ابن فلان ابن الأشياخ الكرام ، فقال عبد الله : ذاك يوسف بن يعقوب بن إسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم [٤].

٥ – مـا يروى من أن موسى – عليه السلام – قال يا رب : يقولون : ياإلـه إبراهيم وإسحاق ويعقوب فلم قالوا ذلك ؟ ، فقال المولى : إن إبراهيم لم يعدل بى شيئا قط إلا اختارني عـليه ، وإن إسحاق جاد لى بالذبح فهو بغير

---

(١) القرطبي : الجامع ١٥/١٠٠ ، البغوي : معالم التنزيل ٧/ ٤٦ .

(٢) من الآية ١٠٢ سورة الصافات .

(٣) ابن كثير : البداية ١ / ١٦٤ .

(٤) الطبري : تاريخ الرسل ١ / ٢٦٤ .

ذلك أجود،وإن يعقوب كلما زدته بلاء زادنى حسن ظن [١].

الرأى الراجح فى هذه القضية

لا مـــراء فى أن أدلة القائلين بأن الذبيح هو إسماعيل ، ترجح أدلة القائليـــن بأنـــه إســـحاق ، لكثرتها ، واعتمادها على ما جاء فى القرآن والسنة ، والسبب الذى من أجله قال أهل الكتاب أن الذبيح هو إسحاق ، هـــو حســـدهم للمسلمين والعرب ، إذ إسماعيل هو أبو العرب ، الذين يســـكنون الحجاز ، والذين منهم رسول الله ﷺ . وأما إسحاق فهو والد يعقوب ، وهو إسرائيل ، الذى ينتسبون إليه،فأراد اليهود أن يحولوا هذا الشرف إليهم ، فحرفوا التوراة المزعومة ، وزادوا فيها لفظة إسحاق ، إذ هـــم قوم بهت ، يفترون على الله الكذب [٢] ، ويدعون أنهم شعب الله المختار ،ولا يريدون أن يقروا بأن الفضل لله يؤتيه من يشاء من عباده ، فهـــم قتلة الأنبياء ، وعبدة الطاغوت والعجل ، وأنهم أحفاد القردة الخنازير ، وأنهم باءوا بغضب من الله إلى يوم القيامة .

ومـــن الأدلة على جحود اليهود وكرههم للمسلمين ، ما ذكره محمد بـــن كعب القرظـى ، من أن عمر بن عبد العزيز أرسل إلى رجل من علمـــاء الـــيهود بالشـــام ، كان أسلم ، وحسن إسلامه ، وسأله أى ابنى إبراهـــيم أُمـــر بذبحه ؟ ، فقال : إسماعيل والله يا أمير المؤمنين ، وإن اليهود لتعلم ذلك ، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الـــذى كان من أمر الله فيه ، والفضل الذى ذكره الله منه ، لصبره لما

---

(١) الثعالبي : عرائس المجالس ص ١٢٩ .

(٢) ابن كثير : البداية ١ / ١٦٣ ، ١٦٤ .

أمر به ، فهم يجحدون ذلك ، ويزعمون أنه إسحاق ، لأنه أبوهم [١].

وهـنا يتبادر إلى ذهن القارئ سؤال مهم طرحته عند بدء مناقشة هذه القضية وهو لماذا لم يسم القرآن الكريم اسم الذبيح ؟ ، ويكفينا مؤنة البحث ، والتنقيب ، والاستدلال ، ثم الاستنتاج .

نقــول : أبهــم القــرآن اسم الذبيح من ولدى إبراهيم لئلا يثير ذلك خلافــا بين المسلمين وأهل الكتاب عند بدء الرسالة المحمدية ، إذ كان المقصــد فى بداية البعثة تأليف قلوب أهل الكتاب ، لإقامة الحجة عليهم فــى الاعــتراف برسالة محمد ﷺ ، وتصديق القرآن ، ولم يكن ثمة مقصــد مهم يتعلق بتعيين اسم الذبيح ، ولا فى تخطئة أهل الكتاب فى تعيينه .

والدليل على ذلك أن القرآن سمى إسماعيل فى مواضع غير قصة الذبــح ، وسمى إسحاق فى مواضع ، ومنها : بشارة أمه ﵂ على لسان الملائكة الذين أرسلوا إلى قوم لوط ، وذكر اسم إسماعيل وإسحاق أنهما وهبا لإبراهيم على الكبر ، ولم يسم أحد فى قصة الذبح قصدا للإبهام مع عدم فوات المقصود من الفضل ، لأن المقصود من القصة التنوية بشأن إبراهــيم ، فأي ولديه كان الذبيح كان فى ابتلائه بذبحه ، وما ظهر فى ذلك من المعجزة تنويه عظيم بشأن إبراهيم [٢].

وبذلك نكون قد انتهينا من عرض قضية مَنْ الذبيح من ولدى إبراهيم؟ وتوصــلنا بالأدلــة والبراهيــن وبما لا يدع مجالا للشك أن الذبيح هو

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل ١/ ٢٧٠ ، الثعالبي : عرائس المجالس ص١٣٠ ، ابن كثير : البداية ١/ ١٦٤ ، ١٦٥ ، البغوي : معالم التنزيل ٧/ ٤٧ .

(٢) ابن عاشور : التحرير ١٢ / ١٤٥ .

إســـماعيل جد النبى محمد (ﷺ) ، وهو الذى نال هذا الشرف ، وهو الذى فداه الله بالذبح العظيم ، وننوه إلى ما ذكرناه فى الفصل الأول من هذا المُؤَلَّفَ من أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، وليس الأمر عصبية أو عنصرية من جانبنا نحو إسحاق،الذى نؤمن به،ونجله كرسول،ولكن الحق أحق أن يتبع .

إبراهيم يزور ابنه إسماعيل

استجاب الله لدعاء خليله إبراهيم بشأن ذريته التى أودعها بواد غير ذى زرع ، فجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ، حيث نزلت قبيلة جرهم بجـوار مـاء زمـزم ، بعد أن أذنت لهم السيدة هاجر بذلك ، وأحست بالأنس لوجودهم معها ، ونشأ إسماعيل مع أترابه من الجراهمة ، فتعلم عادتهم ، ولغتهم العربية ، وكان أبوه يزوره بين الفينة والأخرى ليطمئن علـيه هـو وأمه ، وإن لم يطل مقامه عندهما ، إذ كانت السيدة سارة تشـترط عليه عدم النزول والمبيت عندهما ، فطوى الله له المسافات ، حتى كان يزورهما ، ثم يرجع ويبيت فى الشام ، وقيل : أن الله سخر له البراق ليحمله ذهابا وإيابا [١].

وشب إسماعيل ، واستقام عوده ، وذاع صيته ، وطار ذكره بعد فدائه بالذبح العظيم ، وتزوج بامرأة جرهمية ، فتوثقت صلته بهم ، وقر عينا باكتمال نموه ، وامتلأ سرورا باجتماع أسباب السعادة له ، ولكن الدهر تقلب له ، فها هي ذى المنية تخطف أمه ، فعز عليه فقدها ، فقد تعهدته فى مهده ، ورعته فى طفولته ، وأظلته بجناحها فى شبابه ، وكانت له

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل ١/ ٢٥٦ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ابن الأثير : الكامل ١/ ١٠٤ ، ابن كثير : البداية ١/ ١٦٠ .

دائمـــا عضدا فى الملمات ، ولم يكن إبراهيم لينسى وديعته ، لذلك كان يـــتردد علـــى هذا المكان الذى ترك فيه أهله وولده ، ليتفقد حال ابنه ، ويطمئن عليه (١).

وفـــى إحدى هذه الزيارات لم يجد إبراهيم ابنه إسماعيل فى داره ، وإنمـــا وجـــد زوجه وكانت فظة غليظة ، فسألها إبراهيم عن إسماعيل فقالـــت : خرج ليتصيد ، فسألها إبراهيم هل عندك ضيافة : قالت ليس عـــندي شئ ، فسألها عن حالهم ومعاشهم ، فاشتكت إليه ما هم فيه من الضـــيق والشـــدة ، فقال لها إبراهيم : إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام ، وقولى له فليغير عتبة بابه ، ولما عاد إسماعيل آنس شيئا ، فسأل زوجه هل زاركم اليوم أحد ؟ ، فقالت : نعم ، جاءنا شيخ كبير ، وهى مستخفة بشـــأنه ، وإنـــه يقـــرئك السلام ، ويقول لك : فلتغير عتبة بابك ، قال إســـماعيل : هذا أبى ، ويأمرنى أن أفارقك ، فألحقي بأهلك ، فطلقها ، وتزوج أخرى (٢).

غاب إبراهيم عن ابنه ما شاء الله له ، ثم عاود زيارته مرة أخرى ، ولم يجده أيضا ، وإنما وجد زوجة أخرى ، فسألها عن إسماعيل ، فقالت : خرج ليتصيد ، وهو يجئ الآن ، فانزل يرحمك الله ، فقال لها : فعندك ضيافة ؟ ، قالت : نعم ، قال : فهل عندك خبز ، أو بر ، أو شعير ، أو تمـــر ؟ ، فجاءت باللبن واللحم ، فدعا لهما بالبركة ، ولو جاءت يومئذ

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل ١ / ٢٥٦ ، محمد أبو الفضل إبراهيم : قصص الأنبياء ص ٦٣ ، ٦٤ .

(٢) الطبري : تاريخ الرسل ١/ ٢٥٦ ، ابن الأثير : الكامل ١/ ١٠٤ ، ابن كثير : البداية ١/ ١٦٠ .

بخــبز ، أو تمر ، أو بر ، أو شعير ، لكانت أكثر أرض الله فى ذلك ، فقالت : انزل حتى أغسل لك رأسك ، فلم ينزل ، فجاءته بالمقام والإناء ، فوضــعته عــند شــقه الأيمن ، فوضع قدمه فيه ، فغسلت شق رأسه الأيمــن ، ثــم حولــت المقام إلى شقه الأيسر ، ففعلت به كذلك ، فقال إبراهــيم لها : إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام ، وقولى له : قد استقامت عتبة بابك [(١)].

ولما جاء إسماعيل وجد ريح أبيه ، فقال لامرأته : هل جاءك أحد ؟ قالــت : نعــم شيخ أحسن الناس وجها ،وأطيبهم ريحا ، فقال لى : كذا وكــذا ، وقلت له : كذا وكذا ، وغسلت رأسه وهذا موضع قدمه ، وهو يقرئك السلام ، ويقول لك : قد استقامت عتبة بابك ، قال إسماعيل :ذاك أبى ، وأمرنى ألا أفارقك ، فلازمها طيلة حياته ، وكانت أم أبنائه[(٢)].

الأمر ببناء البيت

بعــد أن حُرِمَ آدم - عليه السلام - من الجنة ونعيمها ، ومن البيت المعمور فى السماء العلى ، ونزل إلى الأرض ، أوحى الله إليه أن يبنى لــه بيتا على الأرض ، ليطوف به ، ويتعبد فيه هو وذريته من بعده ، كمــا تطوف الملائكة وتحج إلى البيت المعمور فى السماء ، هذا البيت الذى يدخله فى كل يوم سبعون ألف ملك ، يطوفون به ،ثم لا يعودون إليه أبدا إلى يوم القيامة ، وهذا البيت المعمور يقابله على الأرض بيت

---

(١) الطــبري : تــاريخ الرسل ١/ ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ابن الأثير : الكامل ١/ ١٠٤ ، ابن كثير : البداية ١/ ١٦٠ .

(٢) الطبري : تاريخ الرسل ١/ ٢٥٩ ، ابن الأثير : الكامل ١/ ١٠٤، ١٠٥ ، ابن كثير : البداية ١/ ١٦٠.

الله الحــرام ، وظل آدم وبنوه يحجون إلى البيت ،ويطوفون به ، حتى وقع طوفان نوح ، فرفع البيت إلى السماء ، وبقيت قواعده حتى عصر إبراهيم - عليه السلام - [(١)].

وكان إبراهيم قد حمل زوجته هاجر وابنه إسماعيل إلى واد غير ذى زرع عــند بيــت الله المحرم ، الذي كان مكانه كالربوة العالية ، تأتيه الســيول عــن يمينه وعن شماله ، ولا تتعرض له ، ولما فجر الله ماء زمزم لهاجر ووليدها ، بشر الملك جبريل هاجر بوجود بيت الله الحرام فــى هذا المكان ، وأن هذا الوليد وأباه سوف يرفعان قواعده وأركانه ، وأن الله لن يضيع أهل هذا البيت ، ولا ذرية إبراهيم [(٢)].

ثم أمر الله إبراهيم أن يبنى البيت ولم يعرف إبراهيم مكانه ، فبعث الله له ريــح السكينة وهى لينة الهبوب ولها رأس ، فسار معها إبراهيم حتى انتهى إلى موضع البيت ، فدارت الريح حوله محددة له مكانه ، ثم كنســت مــا حول الكعبة ، حتى كشفت عن أساس البيت الأول ، وأمر إبراهــيم بالبناء ، فبنى ، وقيل : قيض الله لإبراهيم غمامة لها رأس ، فكلمت إبراهيم ،وأمرته أن يبنى على قدر ظلها ، ولا يزيد ولا ينقص ، فبنى إبراهيم [(٣)].

وحينما وفد إبراهيم إلى مكة لبناء البيت ، وجد إسماعيل خلف ماء

---

(١) ابــن كثير : البداية ١/١٦٠ - ١٦٢ ، الثعالبي : عرائس المجالس ص ١٢٢ ، القرطبي : الجامع ٢ / ١٢ .

(٢) ابن كثير : البداية ١/ ١٦٠- ١٦٢ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ١/ ١٠٦ ، الثعالبي : عرائس المجالس ص١٢٤ ، ابن كثير : البداية ١/ ١٦٨ ، ١٧٠ .

زمزم يصلح نبلا له ، فتلاقيا ، وسلم الولد على أبيه ، الذى قال له : إن ربك قد أمرنى أن ابنى له بيتا ، فقال إسماعيل : فأطع ربك فيما أمرك ، فقال إبراهيم : قد أمرك أن تعيننى عليه ، قال : إذا أفعل ، وكان البيت مكانــه أكمة مرتفعة ، فبدأ إبراهيم وإسماعيل بالمعاول يحفران ، حتى كشــفا عــن أساس البيت، حيث قال تعالى:**﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لإبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْــتِ ﴾** (١) ، ثــم جاء إسماعيل بالأحجار ، وإبراهيم يبنى(٢) ، وهما يقولان : **(ربنا تقبل منا أنك أنت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لــك ومــن ذريتــنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم)** (٣).

ولما ظهر البناء على ظهر الأرض ، ووصل إبراهيم إلى الركن قال لإسماعيل : يا بنى ائتنى بالحجر الأسود – الذى أهبطه الله مع آدم من الجــنة ، وكان أبيض كالياقوتة، وأسود من خطايا الناس – فجاء إليه إسماعيل بحجر آخر ، ولكنه وجد الحجر الأسود عند الركن ، فقال : يا أبــت من جاءك بهذا ؟ ، قال : جاء به من هو أنشط منك ، ولما ارتفع البــناء طلــب إبراهيم من إسماعيل أن يأتيه بحجر يقف عليه ، ففعل ، وتركت قدمى إبراهيم فيه آثارهما ، وهو الذى قال الله فيه : **﴿ وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾** (٤)، وظلت قدمى آثار إبراهيم باقية على هذه

---

(١) من الآية ٢٦ سورة الحج .

(٢) الطبري : تاريخ الرسل ١/ ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ابن كثير : البداية ١/١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٩ ، ١٧٠ .

(٣) من الآية ١٢٧ ثم الآية ١٢٨ سورة البقرة .

(٤) من الآية ١٢٥ سورة البقــرة .

الصـــخرة ، حــتى ظهور الإسلام ، وقد بنى إبراهيم جدران البيت من خمسة جبال [١].

ولما فرغ إبراهيم من بناء البيت ، أمره المولى أن يؤذن فى الناس بالحج ، فقال إبراهيم : وما يبلغ صوتى ؟ ، قال له المولى : أذن وعلى البلاغ ، فنادى إبراهيم : أيها الناس إن الله كتب عليكم الحج إلى البيت العتـــيق ، فسمعه ما بين السماء والأرض ، وما فى أصلاب الرجال ، وأرحـــام النساء ، فأجابه من آمن ، ممن سبق فى علم الله أن يحج إلى يوم القيامة ، واستجاب له ما سمعه من حجر أو شجر أو تراب ، وقالوا لبـــيك اللهـــم لبيك [٢] ، قال تعالى : **﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾** [٣].

ثـــم خرج إبراهيم ومن معه يوم التروية ، فنزل منى ، وصلى بهم الظهـــر والعصر والمغرب والعشاء ، ثم بات بهم حتى أصبح ، فصلى بهـــم صلاة الفجر ، ثم غدا بهم إلى عرفة ، فَقَالَ بهم هنالك ، حتى إذا مالـــت الشمس جمع بين الصلاتين : الظهر والعصر ، ثم راح بهم إلى الموقف من عرفة ، فوقف بهم على الأراك ، وهو الموقف من عرفة ، الذى يقف عليه الإمام ، فلما غربت الشمس دفع إبراهيم بمن معه حتى أتوا المزدلفة ، فجمع فيها بين المغرب والعشاء ، ثم بات بها وبمن معه

---

(١) الثعالبي : عرائس المجالس ص ١٢٥ ، ابن كثير : البداية ١/ ١٦٨ – ١٧٠ .

(٢) الطبري : تاريخ الرسل ١/ ٢٦٠ ، ٢٦١ ، الثعالبي : عرائس المجالس ص ١٢٥ ، ابن الأثير : الكامل ١/ ١٠٧ .

(٣) آية ٢٧ سورة الحج .

، حــتى إذا طلــع الفجــر صلى بهم صلاة الغداة ، ثم وقف بهم على المــزدلفة ، وهو الموقف الذى يقف به الإمام ، حتى إذا أسفر دفع بمن معه حتى يريهم ويعلمهم ما يصنع ، حتى رمى الجمرة الكبرى ، وأراهم المنحر من منى ، ثم نحر وحلق ، ثم أفاض بهم من منى ، ليريهم كيفية الطواف ، ثم عاد إلى منى ليرمى الجمار ، ثم فرغ من أداء شعائر الحج ، ولقــد أوحــى الله إلى رسوله محمد ﷺ [١]. ﴿ **أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ [٢].

ولمــا فرغ إبراهيم من بناء البيت ، وأداء شعائره مع من آمن به ، وتأهــب للرحــيل إلى بلاد الشام ، أوصى ابنه إسماعيل أن يجاور ويقــيم عند البيت ، وأن يكون للناس إماما فى أداء الشعائر والمناسك ، وبشره أن الله مبارك له ، ومثمر له فى نسله ، وجاعل فى ولده الخير والبركة [٣].

وقد دعا إبراهيم للبيت أن يجعله الله حرما محرما وآمنا محتمًا ولمن حوله بالبركة ، وأن يرزقهم بالثمرات ، مع قلة المياه ،وندرة الشجار ، فقال تعالى : ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِــنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ** ﴾ [٤] ، فاستجاب الله لخليله ما طلب ، وحقق له ما تمنى ، فقال تعالى: ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا**

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل ١/ ٢٦١ ن ٢٦٢ ، الثعالبي : عرائس المجالس ص ١٢٥ ، ابن الأثير : الكامل ١/ ١٠٧ .

(٢) من الآية ١٢٣ سورة النحل .

(٣) اليعقوبي : تاريخه ١ / ٢٨ .

(٤) من الآية ١٢٦ سورة البقرة .

حَرَمًا آمنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ (١) ، وقال سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِن لَّدُنَّا ﴾ (٢).

وسال إبراهيم ربه أن يبعث فى هذا البيت وأهله رسولا منهم ، فقال تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٣) ، فاستجاب الله له ، وبعث لهم محمداً ﷺ رسولا من أنفسهم ، ختم به أنبياؤه ورسله ، وأكمل له من الدين ما لم يؤت أحد قبله ، وعم بدعوته أهل الأرض على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم إلى يوم القيامة (٤).

وبذلك تحققت لإبراهيم الدعوة التى تضرع بها إلى الله ، حينما ترك هاجر ووليدها إسماعيل فى واد غير ذى زرع عند موضع بيته المحرم ، فجعل أفئدة من الناس تهوى إليه إلى يوم القيامة ، ورزقهم من الثمرات التى لا تنقطع ، وجعل البيت معمورا منذ بنائه ، وحتى قيام الساعة ، ولا تزال أفئدة الملايين تهوى إليه ، ترتجى زيارته ، والمقام به ، والتنعم بما فيه .

ابتلاء إبراهيم بالكلمات

ابتلى المولى – عز وجل – خليله إبراهيم بالعديد من الابتلاءات منذ ميلاده ، فمنها : وضع أمه له فى المغارة ، ومحاولة إحراقه بالنار ، وما حدث من محاورته للنمروذ ، ثم الأمر بذبح ابنه وحيده قرة عينه ،

---

(١) من الآية ٦٧ سورة العنكبوت .

(٢) من الآية ٥٧ سورة القصص .

(٣) آية ١٢٩ سورة البقرة .

(٤) ابن كثير : البداية ١ / ١٦٩ .

الذى كان يترجاه من المولى ، ورزق به بعد أن بلغ من الكبر عتيا ، ثم كان ابتلاء إبراهيم بالكلمات ، تلك التى وردت فى قوله : ﴿ **وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ** ﴾ (١). ، وقد أختلف العلماء فى بيان هذه الكلمات إلى أقوال عدة :

قال عبد الله بن عباس : ما ابتلى أحد بهذا الدين فقام به كله غير إبراهـيم – عليه السلام – ، ابتلى بالإسلام فأتمه ، فكتب الله له البراءة من النار ، حيث قال : ﴿ **وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى** ﴾ (٢) ، وذكر عشرا فى سورة براءة ، وعشرا فى الأحزاب ، وعشرا فى المؤمنين ، وعشرا فى المعارج ، وقال ابن عباس : إن هذا الإسلام ثلاثون سهما (٣).

فأما التى فى سورة براءة فقوله : ﴿ **التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّـائِحُونَ الـرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ (٤).

وأما التى فى الأحزاب فقوله : ﴿ **إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ (٥) ،

---

(١) من الآية ١٢٤ سورة البقرة ، الطبري : تاريخ الرسل ١/ ٢٧٨ .

(٢) آية ٣٧ سورة النجـم .

(٣) الطبري : تاريخ الرسل ١ / ٢٧٩ .

(٤) الآية ١١٢ سورة التوبة .

(٥) الآية ٣٥ سورة الأحـزاب .

وأما التى فى المؤمنين فقوله : ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ** ﴾ (١).

وأما التى فى المعارج فقوله : ﴿ **الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لامَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ** ﴾ (٢).

وقال آخرون إن الله ابتلى إبراهيم بالطهارة ، خمس فى الرأس ، وخمس فى الجسد ، ففى الرأس : قص الشارب ، والمضمضة ، والاستنشاق ، والسواك ، وفرق الرأس ، وفى الجسد : تقليم الظافر ، وحلق العانة ، والختان ، ونتف الإبط ، والاستنجاء .

وقال ابن عباس أيضا : إن الله ابتلى إبراهيم بعشر ، ست فى الجسد ، وأربع فى المشاعر ، فالتى فى الإنسان : حلق العانة ، والختان ، ونتف الإبط ، وتقليم الأظافر ، وقص الشارب ، والغسل يوم الجمعة ،

---

(١) الآيات ١- ٩ سورة المؤمنون .

(٢) الآيات ٢٣ – ٣٤ سورة المعارج .

وأربـــع فى المشاعر : الطواف ، والسعى بين الصفا والمروة ، ورمى الجمار ، والإفاضة [١].

وقال مجاهد : إن الله قال لإبراهيم : إنى مبتليك بأمر فما هو ؟ قال إبراهــيم: تجعلنى للناس إماما ، قال المولى : نعم ، قال إبراهيم : ومن ذريـــتى ، قال المولى : لا ينال عهدى الظالمين ، قال إبراهيم : تجعل البيـــت مثابة للناس وأمنا قال المولى : نعم ، قال إبراهيم : وتجعل هذا البلد آمنا ، قال المولى : نعم ، قال إبراهيم : وتجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، قال الله : نعم ، قال إبراهيم : وترينا مناسكنا ، وتتوب علينا ، قال الله : نعم ، قال إبراهيم : وترزق أهله من الثمرات ، قال الله : نعم [٢].

وقـــال الحســـن : إن الله ابتلى إبراهيم فصبر ، ابتلاه بالكواكب ، والشـــمس ، والقمر ، فأحسن فى ذلك ، وعرف أن ربه دائم لا يزول ، فوجـــه وجهـــه للـــذى فطـــر السماوات والأرض حنيفا ، وما كان من المشـــركين ، وابـــتلاه بالنار فصبر ، ولم يستغث بأحد إلا الله ، وابتلاه بالهجرة من بين ظهرانى قومه ، ففارقهم ، واتجه صوب الشام ، وابتلاه بذبح ابنه ، فقدمه لله طواعية عن طيب نفس ، وابتلاه بالختان فى الكبر فاختتـــن هـــو وبنـــيه ، وصبر على ذلك [٣]. وقال الرسول (ﷺ) فى الكلمـــات التى ابتلى بها إبراهيم هى أربع ركعات فى النهار ، فقال الله

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل ١/ ٢٨١ ، ابن كثير : البداية ١/ ١٧٧ .

(٢) الطبري : تاريخ الرسل ١ / ٢٨٢ .

(٣) الطبري : تاريخ الرسل ١ / ٢٨٥ .

عنه : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ [١] .

وقال الرسول (ﷺ) فى خبر آخر : إن إبراهيم كان يقول كلما أصبح ، وكلمـــا أمسى ﴿ **فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ** ﴾ [٢]. لذلك سماه الله وفيا [٣].

وقال صاحب التحرير والتنوير [٤]. تعليقا على آية الابتلاء بالكلمات: إن الله كلف إبراهيم بأوامر ونواه ، إما من الفضائل ، أو من الآداب ، وإما من الأحكام التكليفية الخاصة به .

وقال الطبرى [٥]. تعليقا على ابتلاء إبراهيم بالكلمات ، وتوفيقه فى أتمامهن : **(لما عرف الله تعالى من إبراهيم الصبر على كل ما ابتلاه به ، والقيام بكل ما ألزمه من فرائضه ، وإيثاره طاعته على كل شئ سواها ، اتخذه خليلا ، وجعله لمن بعده من خلقه إماما ، واصطفاه إلى خلقـــه رســـولا ، وجعل فى ذريته النبوة والكتاب والرسالة ، وخصهم بالكتـــب المـــنزلة ، والحكم البالغة ، وجعل منهم الأعلام ، والقادة ، والرؤساء ، والسادة ، كلما مضى منهم نجيب خلفه سيد رفيع ، وأبقى لهـــم ذكـــرا فى الآخرين ، فالأمم كلها تتولاه ، وتثنى عليه ، وتقول بفضله إكراما من الله له بذلك فى الدنيا ، وما ادخره له فى الآخرة من الكرامة أجل وأعظم من أن يحيط به وصف واصف) .**

---

(١) آية ٣٧ سورة النجم .

(٢) آية ١٧ سورة الروم .

(٣) الطبري : تاريخ الرسل ١/ ٢٨٦ .

(٤) ابن عاشور ١/ ٤٦٥ .

(٥) تاريخ الرسل : ١ / ٢٨٦ ، ٢٨٧ .

ملة إبراهيم ورسالته

أثنى المولى على إبراهيم فى سرعة إسلامه إذ ﴿ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) ، ثم اصطفاه المولى لإمامة المسلمين ، حيث قال : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٢). ، ووصى إبراهيم بنيه بهذا الدين الحق ، وبهذه الملة فقال : ﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (٣) ، كما دعى إبراهيم لذريته باتباع هذا الدين الحق فقال : ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ﴾ (٤).

كما طلب إبراهيم من المولى أن يجنب ذريته الذلل ، والخضوع للشيطان فقال : ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ (٥)، ونفى عنه المولى ما يدعيه اليهود والنصارى من اتباعهم له فقال : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٦) ، وعاب عليهم عدم اتباعه فقال : ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي

---

(١) آية ١٣١ سورة البقرة .

(٢) الآيتان ١٢٠ ، ١٢١ سورة النمل .

(٣) الآية ١٣٢ سورة البقرة .

(٤) من الآية ١٢٨ سورة البقرة .

(٥) من الآية ٣٥ سورة إبراهيم .

(٦) آية ٦٧ سورة آل عمران .

الآخرة لمن الصالحين ﴾ (١)، وختم المولى القضية بشأن عقيدة إبراهيم بقوله : ﴿ قُلْ صَدَقَ اللّهُ فَاتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٢) ، ثم نوه بمنزلة إبراهيم عنده فقال : ﴿ وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾ (٣).

إذا فهـذه هى المنزلة التى تمتع بها إبراهيم - عليه السلام - لدى المولى- عز وجل - حيث كان رسولا لقومه، وخليلا للرحمن، وصاحب ملة حميدة ، وداعيا للإسلام ، وهو الدين الحق ، وأنزل المولى عليه من الشرائع ما ناسب عصره وزمانه

وكانت حياة إبراهيم كلها دعوة إلى الله ، فمن تشريف إلى تكليف ، إلى ابتلاء فى حب كبير ، وشوق عظيم ، فقد لبى أمر الله بحمل زوجه هاجـر وولده إسماعيل إلى الوادى غير ذى زرع ، توطئة لبناء البيت العتيق ، وليقوم إسماعيل بمهمة الدعوة إلى الله فى بلاد الحجاز ، بينما يعود إبراهيم إلى حبرون فى فلسطين ليواصل الدعوة إلى الله ، ثم يمد إبراهيم بصره إلى بلاد العراق مسقط رأسه ، فيربط بينها وبين فلسطين بأواصـر المصاهرة ، حيث زوج ابنه إسحاق بابنة عمه ناحور ، بينما واصـل إسماعيل نشر رسالة الإسلام فى بلاد اليمن ، لتصبح الجزيرة العربية كلها تمور بالإسلام ، الشام ، وفلسطين ، والعراق ، والحجاز ، ولتصـبح ذريـة إبراهيم حاملة لواء الدعوة بعده - عليه السلام - (٤). وكان مما أنزل على إبراهيم الصحف المنسوبة إليه .

---

(١) آية ١٣٠ سورة البقرة .

(٢) آية ٩٥ سورة آل عمران .

(٣) من الآية ١٢٥ سورة النساء .

(٤) منير غضبان : المسيرة الإسلامية للتاريخ ص ٨٢ ، ٨٣ .

صحف إبراهيم ـ عليه السلام ـ .

سـبق أن ذكرنا في الفصل الأول أن عدد الكتب التى أنزلها المولى على رسله مائة صحيفة وأربعة كتب ، وكان نصيب إبراهيم منها عشر صحائف .

فقـد روى أبـو ذر عـن النبى (ﷺ) أنه قال : (أنزل الله على إبراهـيم عشـر صحائف ، قال : قلت يا رسول الله فما كانت صحف إبراهيم ؟ قال : كانت أمثالا كلها) ، ومما ورد فيها قوله :

(ايها الملك المسلط المبتلى المغرور ، إنى لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضـها إلـى بعض ، ولكن بعثتك لترد عنى دعوة المظلوم ، فإنى لا أردها ، وإن كانت من كافر)

ومما ورد فـى صحف إبراهيم أيضا (على العاقل ما لم يكن مغلوبا على عقله أن يكون له ساعات ، ساعة يناجى فيها ربه ، وساعة يفكر فـيها فـى صنع الله عز وجل ، وساعة يحاسب فيها نفسه فيما قدمه وأخره ، وساعة يخلو فيها لحاجته من الحلال فى المطعم والمشرب ، وعلـى العـاقل ألا يكـون ظاعنا إلا فى ثلاث : تزود لمعاده ومرمة لمعاشه، ولذة فى غير محرم ، وعلى العاقل أن يكون بصيرا بزمانه ، مقـبلا علـى شأنه ، حافظا للسانه ، ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه) (١)

وهذه الصحف أشار إليها المولى فى قوله : ﴿ **إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ**

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل ١/ ٣١٢ ، ٣١٣ ، ابن الأثير : الكامل ١/١٢٤ أخـرجه ابـن حبان في كتاب البر والإحسان ، باب ما جاء في الطاعات حديث رقم٣٦٢ .

الأُولَـى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ [١]. وقدرت صحف إبراهيم بعشر صـحف ، أى مقدار عشر ورقات بالخط القديم ، وتشتمل الورقة على قرابة أربع آيات من آي القرآن الكريم ، بحيث يكون مجموع الصحف حوالى أربعين آية [٢].

ما انفرد به إبراهيم دون غيره من الأنبياء والرسل :

مما لا شك فيه أن الخليل - عليه السلام - نال مكانة مرموقة عند المولى - عز وجل - لم ينلها أحد من السابقين له،أو اللاحقين عليه إلا النبى محمد (ﷺ) ومن ذلك ما يلى :

١ - أنه أُوتى رشده من قبل بلوغه ، وهو إمام الموحدين ، وجعل له المولى لسان الحجة فى التوحيد ، فدعا الخلق بلسان الحجة من صغره إلى كبره ، قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ ﴾ [٣] ، وهو أول من أسماه الله حنيفا مسلما ، حيث قال عنه : ﴿ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا ﴾ [٤] ، وهو أول من أقام المناسك ، وذلك بدعوته لربه ، حيث قال : ﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِـكَنَا ﴾ [٥] ، فاستجيب له ، وهو أول من ضحى ، وهو الذى بوأ الله له مكان البيت بعد اندراسه ، فبناه إبراهيم، حيث قال تعالى: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ ﴾ [٦].

---

(١) الآيتان ١٨ ، ١٩ سورة الأعلى .
(٢) ابن عاشور : التحرير ١٤/ ١٩٤ .
(٣) من الآية ٨٣ سورة الأنعام .
(٤) من الآية ٦٧ سورة آل عمران .
(٥) من الآية ١٢٨ سورة البقــرة .
(٦) من الآية ٢٦ سورة الحج ، الثعالبي : عرائس المجالس ص١٣٩، ١٤٠

٢ – أن المولـــى اتخـــذه خلـــيلا ، كما قال تعالى : ﴿ وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾ [(١)].

٣ – جعله المولى إماما للناس ، يقتدون به ، ويأتمون بهديه ، حيث قـــال : ﴿ قُـــلْ صَـــدَقَ اللّـــهُ فَاتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [(٢)].

٤ – ابـــتلاء المولى له بالكلمات ، وتوفيقه حتى أتمهن ، حيث قال تعالى : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ [(٣)].

٥ – إنجاء المولى له من النار ومن كيد قومه به

٦ – جعله أبا للأنبياء ، فيروى أن الله أخرج من صلبه ألف نبى من زمانـــه ، وحـــتى خاتمهم محمد ﷺ ، ولم يمت إبراهيم حتى بعث الله إســـحاق إلـــى بلاد الشام ، ويعقوب إلى أرض كنعان ، وإسماعيل إلى جرهم ، ولوطا إلى سدوم ، كما أن كل كتاب سماوى نزل من بعده فعلى ذريته .

٧ – أنـــه أول من يكسى يوم الحشر عند خروج الناس من قبورهم حفاة عراة [(٤)].

٨ – أنـــه أول من ضاف الضيف ، وأثرد الثريد وأطعم المساكين ، وأول مـــن قص شاربه ، واستحد ، واختتن ، وقلم أظافره ، وأول من

---

(١) من الآية ١٢٥ سورة النساء .

(٢) آية ٩٥ سورة آل عمران .

(٣) من الآية ١٢٤ سورة البقرة .

(٤) المقدسي : البدء والتاريخ ٣/ ٦٦ ، ابن كثير : البداية ١/ ١٥٤ ، ١٧٠ – ١٧٦ ، القرطبي : الجامع ٤/ ٦٤ ، القرماني : أخبار الدول ١/ ٨١ .

استاك ، وفرق شعره ، وتمضمض ، واستنشر ، واستنجى بالماء ، ولبس السراويل ، وأول من شاب وهو ابن مائة وخمسين سنة ، وهو أول نبى أحيا الله له الموتى بسؤاله (١) حيث قال تعالى : ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِـي الْمَوْتَى ﴾ (٢).

الشبهات المنسوبة لإبراهيم ـ عليه السلام ـ والرد عليها :

لما كان من منهجنا فى تناول سيرة كل نبى أو رسول عرض الشبهات التى تطعن فى عصمته ، والرد عليها بما يدحضها ، ويثبت العصمة للنبى أو الرسول موضع الدراسة ، فإننا نعرض هاهنا الشبهات التى أثيرت حول خليل الرحمن إبراهيم ، وهى ثلاث شبهات فقد روى أبو هريرة – رضى الله عنه – أنه قال : قال رسول الله ﷺ : **(لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات : قوله حين دعى إلى آلهتهم فقال : (إنى سقيم) ، وقوله : (بل فعله كبيرهم هذا) ، وقوله فى سارة : إنها أختي)** (٣).

فهذا الحديث الصحيح وما تضمنه من الآيات توهم وقوع إبراهيم فى الكذب وهو ما يتنافى مع عصمة الأنبياء !!

وقد أجاب العلماء (٤) عن ذلك بأنه من قبيل المعاريض ، أى أنها

---

(١) ابن قتيبة : المعارف ١/ ٣٠ ، الثعالبي : عرائس المجالس ص١٣٨ – ١٤١ .

(٢) من الآية ٢٦٠ سورة البقرة .

(٣) أخرجه الترمذي في سننه في كتاب تفسير القرآن عن رسوله الله – باب سورة الأنبياء ، حديث رقم ٣٠٩٠ ، ابن كثير : البداية ١/ ١٥٦ .

(٤) ابن كثير : البداية ١/ ١٥٦ ، أحمد عبد الحميد يوسف : مصر في=

تعـــريض مـــن إبراهيم ، واستهزاء منه بغباوة القوم ، ففى قوله:(**إنى سـقيم)** معراض من الكلام ، أى سأسقم ، أو إني سقيم النفس لكفركم ، وفى قوله:(**بل فعله كبيرهم هذا**) فإن إبراهيم نسب الفعل إلى كبيرهم ، وقصد تقريره لنفسه ، وإثباته لها ، على أسلوب تعريضى تبكيتا لهم ، وإلـــزاما للحجـــة عليهم ، وقال العرب فى أمثالهم : إن فى المعاريض لمـــندوحة عن الكذب،وأما قول إبراهيم عن سارة : أنها أختـه ، فقد قال الزمخشـــرى:إن ذلـــك من باب الحيل الشرعية ، التى يتوصل بها إلى مصـــالح ومنافع دينية ، وأن إبراهيم كذب على فرعون ، لتسلم امرأته من يد الكافر ، وما الشرائع كلها إلا مصالح وطرق للتخلص من المفاسد

ومما يرجح ما نسوقه وبراءة إبراهيم من هذه الشبهات حديث آخر للنبى ﷺ ، يبين فيه أن إبراهيم ما كذب هذه الكذبات ، إلا ليجادل بها ، ويدافـــع الأعـــداء للوصـــول إلى الحق الذى يريده ، فعن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : **(فى كلمات إبراهيم الثلاث التى قـــال ما منها كلمة إلا ما حل بها – أي جاد بها – عن دين الله)** [(١)]. ممـــا يؤكـــد نفـــى هذه الشبهات عن إبراهيم الخليل ، والتماسه مخارج شرعية له منها ، كما ذكر العلماء ، وتأكيد العصمة له ، إذ هو من هو بين رسل الله .

= القرآن والسنة ص ١٩، ٢٠، عبد الحميد عبد الله : قضايا النبوة ص١٥١.

(١) أخرجه الترمذي في سننه في كتاب ما جاء في تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ ، بـــاب من سورة بني إسرائيل ، حديث رقم ٣٠٧٣ ، ابن كثير : البداية ١ / ١٥٦ .

أسرة إبراهيم ووفاته

كانـــت أولى زوجات إبراهيم السيدة سارة ، التى كانت ابنة عمه ، وكان إبراهيم يحبها حبا شديدا ، لقرابتها منه ، ولدينها ، كما كانت من أجمـــل النســـاء ، ولـــم تكن امرأة أجمل منها إلا أمنا حواء ، وبنى بها إبراهيم فى بلاد بابل ، وعاصرت محنة زوجها عندما أراد قومه حرقه ، ولمـــا نجاه الله هاجرت مع الخليل إلى بلاد الشام ، ومنها لمصر ، ثم عـــادت لـــبلاد الشام معه ، حيث استقرت بها ، وأنجبت له إسحاق بعد إنجـــاب هاجـــر لإسماعيل بثلاث عشرة سنة ، وظلت سارة ببلاد الشام تؤازر زوجها فى الدعوة إلى الله ، حتى وافتها المنية ، وهى فى السابعة والعشرين بعد المائة ، وحزن إبراهيم عليها حزنا شديدا ، ورثاها لشدة حبه لها ، ودفنها هو وابنها إسحاق فى مزرعة حبرون بالخليل [1].

وأمـــا ثاني زوجات إبراهيم فكانت السيدة هاجر ، التى أهداها ملك مصـــر لـــتكون جاريـــة لسارة ، ولما أحست سارة بحب إبراهيم للولد زوجـــته إياها ، فأنجبت له بكر أولاده إسماعيل ، ولما استحالت الحياة بين الزوجتين ، وطلبت سارة من إبراهيم أن يحمل هاجر ووليدها لمكان بعيد ، استجاب إبراهيم لذلك ، وحملهما بأمر المولى إلى موضع البيت الحـــرام قـــبل بنائه ، وكان ما كان من تفجر بئر زمزم ، ونزول قبيلة جـــرهم للإقامة بجوار هاجر ووليدها ، وظل إبراهيم يود زوجته وابنه حـــتى توفيت هاجر بعد حادثة الذبح لولدها إسماعيل ، وقبل بناء البيت

---

(١) ابن قتيبة : المعارف ١/ ٣٣ ، ٣٤ ، الطبري : تاريخ الرسل ١/ ٣٠٨ – ٣١١ ، الثعالبـــي : عـــرائس المجالس ص ١٧٣ ، المقدسي : البدء ٣/ ٥٣ ، ٦١ ، ابن الأثير : الكامل ١/ ١٢٣ ، ابن كثير : البداية ١/ ١٧٨ .

العتـيق ، فدفـنها إسماعيل ، ثم بعد بناء البيت نقل جثمانها ودفنه فى الحجـر ، وكانت وفاة هاجر قبل وفاة سارة ، إذ إنها توفيت قبل ميلاد إسحاق الذى ولد وسارة على رأس التسعين [١].

وبعد وفاة هاجر ثم سارة تزوج إبراهيم – عليه السلام – امرأة من الكنعانيين تسمى قنطورا بنت يقطان ، فأنجبت له ستة أولاد ، ثم توفيت ، فبـنى إبراهـيم بحجور بنت أرهير ، التى رزق منها بخمسة بنين ، فصار مجموع أولاد إبراهيم ثلاثة عشر ولدا ، أكبرهم إسماعيل [٢].

وعاش إبراهيم الخليل مائة وخمسا وسبعين سنة من الدعوة إلى الله ، والانتقال من ابتلاء إلى آخر ، حتى اقترب أجله ، فجمع بنيه وأحفاده وأوصـاهم قائلا : ﴿ **يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنـتُم مُّسْـلِمُونَ** ﴾ [٣]، ثم فاضت روحه إلى بارئها ، فجهزه ولداه إسماعيل وإسحاق ، ودفناه فى مزرعة حبرون بالخليل ، بجوار زوجه سارة ، فرحمة الله عليك يا خليل الرحمن رحمة واسعة [٤].

وأما إسماعيل – عليه السلام – فقد عاش مائة وسبعا وثلاثين سنة ، حتى أدركـته المنية ، فدفنه بنوه فى الحجر بجوار أمه هاجر ، بينما عاش إسحاق حتى بلغ مائة وثمانين سنة ، ولما وافته المنية دفنه بنوه فى مزرعة حبرون ،

---

(١) المصادر السابق الأجزاء والصفحات .

(٢) نفس المصادر السابقة الأجزاء والصفحات .

(٣) من الآية ١٣٢ سورة البقرة .

(٤) ابن كثير : البداية ١/ ١٧٩ .

بجوار أبيه وأمه ، فرحمة الله عليهما وعلى أبيهما رحمة واسعة [١].

وبذلك نكون قد انتهينا من عرض سيرة إبراهيم الخليل ، وهى من أطول تواريخ الأنبياء ، ونشرع فى الحديث عن آخر أنبياء بنى إسرائيل وهم : زكريا ، ويحي ، وعيسى ، وذلك فى الفصل التالى .

---

(١) ابـــن قتيـــبة : المعـــارف ١/ ٣٣ ، البغوي : معالم التنزيل ٤/ ٣٥٧ ، القرطبي : الجامع ٢/ ١٣٥ ، ٩ / ٣٧٥ .

الفصل الخامس

❁ زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام ❁

❁ أولاً : تاريخ زكريا ويحيى :

- زكريا وتبشيره بيحيى
- ميلاد يحيى
- نبوة يحيى
- مقتل يحيى
- مقتل زكريا

❁ ثانياً : تاريخ عيسى

- نسب السيدة مريم
- ميلاد مريم وكفالة زكريا لها
- البشرى بعيسى
- نفخ الروح بعيسى
- حمل مريم بعيسى
- مواجهة مريم لقومها
- كلام عيسى وصفاته
- هجرة مريم لمصر
- زمن ميلاد عيسى وأسمائه

- رسالة عيسى ودعوته لقومه
- معجزات عيسى
- حواريو عيسى
- الإنجيل كتاب عيسى ومصيره
- عيسى يبشر بمحمد ﷺ
- رفع عيسى .
- عقيدة النصارى في المسيح
- الرد على عقائد النصارى الباطلة بالقرآن والسنة

أولاً : تاريخ زكريا ويحيى :

زكريا وتبشيره بيحيى :

هــو زكريا ، بن برخيا ، من نسل داود بن سليمان - عليهما السلام- كانـ مــن علماء بني إسرائيل ، ونبأه الله في كبره ، وهو ثاني من اسمه زكــريا من أنبياء بني إسرائيل ، وليس له كتاب في أسفار التوراة ، وكان متزوجا من أشياع بنت فاقود خالة مريم وكان يعمل نجاراً (١).

وكــان زكريا وقت كفالته لمريم قد اشتعل رأسه شيبا ، وبلغ من الكبر عتــيا ، وعقمت زوجته عن الإنجاب ، ولما رأى ما عند مريم من الرزق في غير أوانه . وعلم منها أنه من عند الله ، وأنه من غير سبب ، أيقن أن الله قادر على إصلاح زوجته له ، وأن يهبه الله منها ولدا في غير حينه ، وهو شيخ فانٍ ، فطمع في الولد بعد أن أيس منه (٢).

قــام زكــريا بالليل في محرابه ، وناجى ربه سراً ومخلصاً ، حتى لا يطلــع عليه أحد إلا الله ، وقال القرطبي : لئلا يلام من قومه على سؤاله الولد على كبره ، إذ هو أمر دنيوي ، فإن أجيب نال مراده ، وإن لم يجب لــم يعرف أحد بذلك ، وأعلن زكريا بين يدي ربه أن الضعف قد استحوذ علــيه ظاهــراً وباطناً ، وأن المولى لم يكن ليخيب رجائه ودعوته إذ كان يستجيب له كلما دعاه ، ورجا زكريا من المولى أن ينعم عليه بنعمة الولد ، لما رآه من كرامة لمريم ، ووجود الرزق لها في غير أوانه (٣) ، حيث قال

---

(١) الطــبري : تاريخ الرسل ١ / ٥٨٥،ابن كثير : البداية ٢ / ٤٧ ، ابن كثير : البداية ٢ / ٤٧ ، عاشور : التحرير ٣ / ٩٢ ، ٨ / ٤٦٦ .

(٢) البغوي : معالم التنزيل ٢/ ٣٣ ، ابن كثير : البداية ٢/ ٤٨ .

(٣) البغوي : معالم التنزيل ٢/ ٣٣ ، ٥/ ٢١٨ ، القرطبي : الجامع: ١١/ ٧٦، ٧٧ =

تعالى : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيًّا قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ (١) وقال سبحانه : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَـذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ إنَّ اللّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاء ﴾ (٢).

ومما دفع زكريا أيضاً لسؤال الله الولد ، خوفه من مواليه من بني إسرائيل أن يضيعوا الدين من بعده ، وأن يتصرفوا فيه بما لا يوافق شرع الله وطاعته ، لذلك سأل الله ولياً يقوم بالدين من بعده ، ويرث العلم والنبوة ، التي اختص الله بها زكريا ، والتمس أن يكون هذا الولد براً تقياً مرضياً في أخلاقه وأفعاله (٣) ، فقال تعالى : ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ (٤)، وقال سبحانه : ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاء ﴾ (٥).

استجاب المولى لدعاء نبيه زكريا ، وبشره بغلام اسمه يحيى ، لم يسم

= ، ابن كثير : البداية ٢/ ٤٨ .

(١) الآيات ٢ – ٤ سورة مريم .

(٢) من الآية ٣٧ وآية ٣٨ سورة آل عمران .

(٣) البغوي : معالم التنزيل ٢/ ٣٥ ، ٥ / ٢١٩ ، القرطبي : الجامع ٤/ ٧٩ ، ١١ / ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٢ ، ابن كثير : البداية ٢ / ٤٨ .

(٤) الآيتان ٥ ، ٦ سورة مريم .

(٥) آية ٣٨ سورة آل عمران

أحد قبله بهذا الاسم ، ولم يكن له نظير في اسمه ، ويبدو أن زكريا تعجب من إجابة المولى له وهو شيخ كبير تجاوز المائة والعشرين ، وامرأته في الثامنة والتسعين وهي عاقر ، فأجابه الملك جبريل أن ذلك على الله يسير كما خُلقت يا زكريا من قبل ولم تكُ شيئاً مذكوراً ، وأنبأه المولى – عز وجل – أنه سيصلح له زوجته ، حتى تكون صالحة للإنجاب بعد أن يئست مـــن ذلك [1] ، فقال تعالى : ﴿ **قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا** ﴾ [2] وقال سبحانه : ﴿ **فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ** ﴾ [3].

طلـــب زكريا من ربه أن يجعل له علامة وآية على تحقيق البشارة ، وحمل امرأته بالولد ، فأنبأه المولى أن علامة ذلك صومه عن كلام الناس ثلاثـــة أيام ، مع كونه صحيحاً ، سليما ، معافا ، من غير بأس ولا خرس ولا مرض ، وأمره المولى بكثرة الذكر في هذه الحال بالقلب ، واستحضار ذلـــك بفؤاده بالعشي والإبكار ، فلما تحققت البشارة خرج مسروراً إلى قومـــه مـــن محرابه ، فأشار إليهم بتسبيح المولى – عز وجل – بالعشي والإبكار [4] ، حيث قال تعالى : ﴿ **قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ**

---

(١) القرطبي : الجامع ١١ / ٨٣ ، ٨٤ ، ابن كثير : البداية ٢/ ٤٩ .

(٢) الآيتان ٨ ، ٩ سورة مريـــم .

(٣) آية ٩٠ سورة الأنبيـــاء .

(٤) الـــبغوي : معالم التنزيل ٥/ ٢٢٠ ، ٢٢١ ، القرطبي : الجامع ١١/ ٨٤ ، ٨٥ ، ابن كثير : البداية ٢/ ٤٩ ، ٥٠ .

النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ (١).

ميلاد يحيى ـ عليه السلام ـ .

يحيى معرب للكلمة العبرانية يوحنا ، وسُمي بهذا الاسم لأن الله أحياه بالإيمان والنبوة ، أو لأنه أحيا الناس بالهدى ، وولد يحيى لزكريا قبل ميلاد عيسى ابن مريم بستة أشهر ، فهو أكبر منه ، ويُروى أن أم يحيى أشياع التقت بمريم وهما حاملتان ، فقالت الأولى للثانية : إن ما في بطني يسجد لما في بطنك ، أي يحيى يسجد لعيسى ، وهذا حق إذ كان يحيى مبشراً برسالة عيسى ، ومصدقا له (٢).

وبشر المولى نبيه زكريا بأن هذا الغلام المولود ستكون له صفات وكرامات لم يسبقه أحد إليها ، فيعلمه الله الكتاب والحكمة وهو صغير ، إذ كان الصبيان يقولون له : اذهب بنا لنلعب ، فيقول لهم : ما لهذا خلقت ، وأنه سيكون من المصدقين برسالة عيسى ، فكان أول المؤمنين به ، وأنه سيسود قومه في العلم والعبادة ، وأنه سيكون من الذين لا يقربون النساء مع قدرته على ذلك (٣) ، فقال تعالى : ﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ (٤)، وقال سبحانه : ﴿ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا

---

(١) الآيتان ١٠ ، ١١ سورة مريم .

(٢) البغوي : معالم التنزيل ٢/ ٣٤ ، القرطبي : الجامع ٤/ ٧٦ ، ابن عاشور : التحرير ٣/ ٩٥ .

(٣) البغوي : معالم التنزيل ٢/ ٣٤ ، القرطبي : الجامع ٤/ ٧٦ ، ٧٧ ، ابن كثير : البداية ٢ / ٥٠ .

(٤) آية ١٢ سورة مريم .

وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [١] ، وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : (**كل ابن آدم يلقى الله بذنب قد أذنبه ، يعذبه عليه إن شاء ، أو يرحمه ، إلا يحيى بن زكريا فإنه كان سيداً ، وحصوراً ، ونبيا من الصالحين**) [٢].

وقال ابن عمر: قال رسول الله ﷺ : (**كل ابن آدم يأتي يوم القيامة وله ذنب ، إلا ما كان من يحيى بن زكريا**) [٣].

وقال قتادة : (إن يحيى لم يعص الله قط بصغيرة ولا كبيرة ، ولا هم بامرأة) [٤].

وبالإضافة إلى هذه الصفات الدينية التي خص الله بها يحيى ، فقد منّ الله عليه بصفات الرحمة ، والشفقة ، وجعله مباركاً للناس ، يهديهم إلى الحق ، وكان مطيعاً لله لم يعمل خطيئة ، ولم يلم بها ، وكان طاهر الخلق ، معافا من النقائص ، تقيا ، ورعاً ، باراً بوالديه ، محسناً لهما ، خافضاً لهما جناح الذل من الرحمة [٥]، فقال تعالى مثنيا عليه :﴿ **وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا**

---

(١) من الآية ٣٩ سورة آل عمران .

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ، حديث رقم ١١٢٣ ، القرطبي : الجامع ٤/ ٧٩ .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ، كتاب التوبة والإنابة ، باب كل ابن آدم يأتي يوم القيامة وله ذنب ، حديث رقم ٧٧٢٦ .

(٤) القرطبى : الجامع ١١ / ٨٧ .

(٥) البغوى : معالم التنزيل ٥ / ٢٢٢ ، القرطبى : الجامع ١١ / ٨٧ ، ٨٨ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٢ / ٥٠ .

وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾ (١).

وكـان يحـيى بن زكريا من الزاهدين في الدنيا وزخرفها ، فوصف مجاهد هيئته قائلاً : كان طعام يحيى العشب ، وكان للدمع في خديه مجار ثابتة (٢) ، وكان عيسى بن مريم يلبس الصوف ، ويحيى يلبس الوبر ، ولم يكـن لواحد منهما دينار ولا درهم ، ولا عبد ولا أمة ، ولا مأوى يأويان إلـيه ، أيـن ما جنهما الليل أويا ، فلما أرادا أن يتفرقا قال يحيى لعيسى : أوصـني : قال : لا تغضب ، قال : لا أستطيع إلا أن أغضب ، قال : لا تقتن مالاً ، قال : أما هذه فعسى (٣).

وكان يحيى كثير الانفراد من الناس ، حيث كان يأنس البراري ، ويأكل مـن ورق الأشجار ، ويرد ماء الأنهار ، ويقول لنفسه : من أنعم منك يا يحيى ؟! ويروى أن أباه زكريا فقده ذات يوم ، فخرج يطلبه ، فوجده عند نهر الأردن ، فلما التقاه أبكاه بكاءً شديداً ، لما فيه من العبادة والخوف من الله – عز وجل – (٤).

وقال ابن المبارك عن وهيب بن الورد : فقد زكريا ابنه يحيى ثلاثة أيـام ، فخرج يلتمسه في البرية ، فإذا هو قد احتفر قبراً أقام فيه يبكي علـى نفسه ، فقال له زكريا : يا بني أنا أطلبك من ثلاثة أيام ، وأنت فـي قبر قد احتفرته قائم تبكي ؟! ، فقال : يا أبت ألست أنت أخبرتني أن بيـن الجـنة والنار مفازة لا تقطع إلا بدموع البكائين ؟ ، فقال له :

---

(١) الآيتان ١٣ ، ١٤ ، سورة مريم .
(٢) القرطبي : الجامع ١١ / ٨٧ .
(٣) ابن كثير : البداية ٢/ ٥١ ، ٥٢ .
(٤) ابن كثير : البداية ٢ / ٥٣ .

ابك يا بني، فبكيا [١].

ومـن الخصائص التي اختص بها المولى يحيى الأمن بالله في مواطن ثلاثة ، وهي : يوم ميلاده ، ويوم موته ، ويوم بعثه ، ففيها يكون الإنسان في غاية الضعف والحاجة ، وقلة الحيلة ، والفقر إلى الله - عز وجل - ، إذ ينـتقل في كل منها من عالم إلى آخر غير مألوف ، ولا معروف له ، لذلك سلم المولى على يحيى في كل موطن منها [٢]. فقال تعالى : ﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [٣].

نبوة يحيـى :

كان زكريا وولده يحيى من أنبياء بني إسرائيل ، الذين يعملون بالتوراة ، وقـد خـص المولـى يحيى بالعديد من الخصائص ، فأحكم الله عقله ، واسـتنبأه صبيا ، وعشق العبادة حتى أصبح منهوك الجسم ، نحيل الظل ، واشتهر بالعلم حتى أحصى مسائل التوراة ، واستجلى غوامضها ، وأحاط بأصولها ، وفروعها ، وأضحى فيصل أحكامها ، وقاضي معقولها ، وبشر بعيسى ، وكان من أول المؤمنين به [٤].

وقد روى قتادة أن الحسن قال: إن يحيى وعيسى التقيا ، فقال له عيسى: اسـتغفر لي أنت خير مني ، فقال يحيى له : استغفر لي فأنت خير مني ،

---

(١) ابن كثير : البداية ٢ / ٥٣ .

(٢) البغوي : معالم التنزيل ٥/ ٢٢٢ ، القرطبي : الجامع ٨٨/١١ ، ابن كثير: البداية ٥٠/٢ .

(٣) آية ١٥ سورة مريم .

(٤) البغوي : معالم التنزيل ٢/ ٣٤ ، القرطبي : الجامع : ٤/ ٧٦ ، ١١ / ٨٦ ، ٨٧ محمد أبو الفضل : قصص القرآن ص ٢٤٢ .

فقـــال عيسى له : أنت خير مني ، سلمت على نفسي ، وسلم الله عليك ، فعرف والله فضلهما [١].

ومما أوحى الله ليحيى ما روى عن النبي ﷺ [٢] أنه قال : إن الله أمر يحـــيى بن زكريا بخمس كلمات ، أن يعمل بهن ، وأن يأمر بني إسرائيل بالعمل بهن ، وكاد يحيى أن يبطئ ، فقال له عيسى – عليه السلام – : إنك قـــد أمرت بخمس كلمات ، أن تعمل بهن ، وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن ، فإما أن تبلغهن ، وإما أن أبلغهن ؟ ، فقال يحيى : يا أخي عيسى إني أخشــــى إن ســـبقتني أن أعـــذب ، أو يخسف بي ، قال : فجمع يحيى بني إسرائيل في بيت المقدس ، حتى امتلأ المسجد ، فقعد على الشرف ، فحمد الله ، وأثـــنى علـــيه ، ثم قال : إن الله عز وجل أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن ، وآمركم أن تعملوا بهن وهن:

١- أن تعـــبدوا الله ، ولا تشـــركوا بــه شيئاً ، فإن مثل ذلك مثل من اشترى عبداً من خالص ماله بورق أو ذهب ، فجعل يعمل ويؤدي غلته إلى غير سيده ، فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك ، وإن الله خلقكم ورزقكم ، فاعبدوه ، ولا تشركوا به شيئا .

٢- آمركم بالصلاة ، فإن الله ينصب وجهه قبل عبده ما لم يلتفت ، فإذا صليتم فلا تلتفتوا .

٣- آمـــركم بالصيام ، فإن مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك، فـــي عصابة كلهم يجد ريح المسك ، وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله

---

(١) ابن كثير : البداية ٢/ ٥٠ ، القرطبي : الجامع ١١ / ٢١٩ .

(٢) أخـــرجه الـــترمذي في سننه في كتاب الأمثال عن رسول الله ﷺ ، باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة ، حديث رقم ٢٧٩٠ .

من ريح المسك .

٤- آمركم بالصدقة ، فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو ، فشدوا يده إلى عنقه ، وقدموه ليضربوا عنقه ، فقال : هل لكم أن أفتدي نفسي منكم ؟ ، فجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير ، حتى فك نفسه .

٥- آمـــركم بذكر الله عز وجل كثيراً ، فإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعا في أثره ، فأتى حصناً حصيناً فتحصن فيه ، وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان ، إذا كان في ذكر الله عز وجل [١].

مقتل يحيى :

بلّغ يحيى قومه ما أمره الله ، وظل بين ظهرانيهم يأمرهم ، وينهاهم ، ويرشـــدهم إلى طريق الخير ، ويبشرهم بقرب ظهور عيسى بوحي جديد ورسالة جديدة وكتاب جديد ، وما إن بعث عيسى على رأس الثلاثين ، حتى كـــان يحيى قد أتم ما خلقه الله لأجله ، فقُتل يحيى قبل رفع عيسى بقليل ، أي ما بين الثلاثين والثالثة والثلاثين من عمره، حيث كان يحيى أكبر من عيسى بستة شهور ، ورفع عيسى للسماء وهو في الثالثة والثلاثين .

ويـروى في سبب قـتل يحيى أسباب من أشهرها : أن هيرودس كان حاكم دمشق من قبل الدولة الرومانية ، وأراد أن يتزوج بعض محارمه ، أو من لا يحـــل له تزوجها ، فنهاه يحيى - عليه السلام - عن ذلك ، فأوغر ذلك صدر المرأة وأمها على يحيى ، ولما خلت المرأة بالملك ، وأراد أن ينال منها ، تمنعت عنه ، واستوهبته دم يحيى ، فوهبه لها ، وبعث جنوده فقتلوه ، وجاءوا إليه برأس يحيى ، فوضعه بين يديها ، فهلكت من ساعتها [٢].

---

(١) ابن كثير : البداية ٢ / ٥٢ .

(٢) ابن كثير : البداية ٢/ ٥٤ ، القرطبي : الجامع ١٠ / ٢١٨ .

ويقـــال إن الرأس خاطب الملك قائلاً : لا تحل لك ، وأصبح دم يحيى يغلـــي ، فأمر الملك بتراب فوضع عليه ، فارتفع الدم فوق التراب ، وظل هكذا حتى دخل بختنصر البابلي بيت المقدس ، وقتل من اليهود سبعين ألفاً ، حتى سكن دم يحيى ، كما روى سعيد بن المسيب [١].

ويقول القرطبي : إن يحيى بن زكريا قتل على صخرة ببيت المقدس ، هـــذه الصخرة التي قتل عليها قبله سبعون نبياً على يد بني إسرائيل[٢]،ولا عجب في ذلك ، فهم قتلة الأنبيـــاء .

مقتل زكريـا :

وأما نبي الله زكريا فقد أورد الطبري وابن كثير رواية قتله ، واختلفا في ســـبب ذلك ، فقال الطبري[٣] والقرطبي [٤] : إن بني إسرائيل قتلوه ، بعد أن اتهموه بأنه واقع مريم ، وحملت منه ، وأما ابن كثير [٥] فيقول : إنه بعد مقتل يحـــيى ، وخسف الله بهير ودس وبيته وحشمه ، قالت بنو إسرائيل قد غضب إله زكريالزكريا ، فتعالوا نغضب لملكنا ، فنقتل زكريا

واتفق الطبري[٦] وابن كثير[٧] في تفاصيل قتله حيث خرج بنو إسرائيل لقـــتله ، وجاء النذير لزكريا ، فهرب منهم ، وإبليس أمامهم يدلهم عليه ،

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل ١/ ٥٨٦ ، ٥٨٧ ، ابن كثير : البداية ٢/ ٥٥.
(٢) القرطبي : الجامع ١٠ / ٢١٩ ، ابن كثير : البداية ٢/ ٥٥ .
(٣) تاريخ الرسل ١/ ٦٠٠ .
(٤) الجامع ١٠ / ٢١٩ .
(٥) البداية والنهاية ٢ / ٥٤ .
(٦) تاريخ الرسل ١ / ٦٠٠ .
(٧) البداية والنهاية ٢ / ٥٤ .

ولما خاف زكريا من الوقوع في أيديهم ، نادته شجرة بالدخول فيها ، بعد أن انصـدعت لـه نصـفين ، فدخل ، وانطبقت عليه ، وجاء إبليس فأخذ بطـرف ردائـه بعد أن التأمت الشجرة ، وقال لبني إسرائيل : هذا طرف ردائه ، دخلها بسحره ، فقالوا نحرق الشجرة ، فقال إبليس : شقوه بالمنشار شقا ، فشق زكريا معها ، ولم يجد ألما أو وجعا لذلك .

وقيل لما بلغ المنشار رأسه أراد زكريا أن يئن ، فأوحى الله إليه ، إما أن تكـف عن أنينك ، وإلا أسقطت اسمك من ديوان الأنبياء ، فصبر حتى شق نصفين [١].

ويلوح لي أن رواية ابن كثير أرجح من رواية الطبري في بيان سبب مقتل زكريا – عليه السلام – ، وأنه قتل بعد مقتل ابنه يحيى ، إذ ليس من المقـبول أن يتهم زكريا بالفاحشة مع مريم ، وهو من هو من علماء بني إسـرائيل وأحـبارهم ، كما أن ما سنذكره من قصة ولادة مريم لعيسى ، وإتـيان قومها به ، وظهور البرهان ببراءتها من تهمة الزنا ، يبطل اتهام زكريا بذلك ، ويبرئ ساحته ، ويرجح أنه ما قتل إلا بعد مقتل ابنه يحيى ، وقبل رفع عيسى – عليه السلام – بقليل ، وذلك ما كان من قصة نبي الله زكـريا وابـنه يحيى، التي كانت سيرتهما توطئة للحديث عن عيسى وأمه مريم ، فإليك بيان ذلك :

ثانياً : تاريخ عيسى :

نسب السيدة مريـم :

هى مريم ابنة عمران ، بن ماثان ، بن إلعاذر ، وأمها حنة ، بنت فاقود ، بـن قنبل ، ويرجع عمران وزوجه حنة بنسبهما إلى سليمان بن داود

---

(١) القرماني : أخبار الدول ١ / ٢٠٥ .

- عليهما السلام - ، وكان عمران من رؤساء بني إسرائيل ، وأحبارهم ، وصاحب صلاة ، وقيام ، وذكر ، وزوجه حنة كانت من العابدات الزاهدات ، وكان نبي الله زكريا زوج خالة مريم ، وهي أشياع أخت حنة ، وجانب الصواب من قال إنه زوج أخت مريم ، لأن مريم هي بكر أبيها وأمها ، ولم ينجبا قبلها أحداً ، وتوفى أبوها عمران وهي ما تزال جنينا في بطن أمها [١] ، وقد أثنى الله - تعالى - على بيت عمران فقال : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴾ [٢].

وكانت امرأة عمران عجوزاً لا تلد ، وبلغ زوجها من الكبر عتيا ، ورأت يوماً على شجرة طائراً يطعم فرخه ، فتحركت عاطفة الأمومة فيها ، ودعت ربها أن يهبها ولداً ، ونذرته أن يكون محرراً لله خادماً له ، ومفرغاً للعبادة في بيت المقدس ، وكان ذلك جائزاً في شريعتهم ، وكان على أولادهم أن يطيعوهم [٣].

ويقول ابن إسحاق : كان المحرر إذا حُرر جعل في مسجد بيت المقدس ، يقوم على طهارته ، ويخدمه ، ولا يبرحه حتى يبلغ الحلم ، ثم يخير ، فإن أحب أقام ، وإن أحب غادره إلى حيث يشاء ، وإن أراد أن يخرج بعد التخيير لم يكن له ذلك ، ولم يكن أحد من الأنبياء أو الصلحاء إلا ومن نسله محرر لبيت المقدس ، ولم يكن يقبل إلا الغلمان ، ولا تصلح

---

(١) البغوي : معالم التنزيل ٢ / ٢٩ ، ابن كثير : البداية ٢ / ٥٦ ، القرطبي : الجامع ٤ / ٦٦ .

(٢) آية ٣٣ سورة آل عمران .

(٣) القرطبي : الجامع ٤ / ٦٦ .

الجاريــة لذلك ، لما يصيبها من الأذى [١] ، قال الله – تعالى – على لسان امرأة عمران : ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [٢].

ميلاد مريم وكفالة زكريا لها :

اســتجاب المولى – عز وجل – لدعاء امرأة عمران ، فحملت بمريم، وفرح الأبوان بهذا الحمل فرحاً شديداً ، إذ رزقاه بعد كبرهما ، ولكن المنية وافــت عمران قبل أن يرى ولده ، وأتمت زوجه حملها ، ووضعته ، بيد أنهــا جزعــت لما رأتها أنثى ، إذ هي لا تصلح لخدمة بيت المقدس، لما يصيبها من الأذى ، ولأنها لا تصلح لمخالطة الرجال ، ولأنه لم يكن يقبل في النذر إلا الذكور كما قال ابن عباس [٣].

اعــتذرت امــرأة عمــران لربها فيما وضعت – والله أعلم بذلك – ، وســمتها مريم ، وهي في اللغة العبرانية بمعنى الخادمة والعابدة ، ودعت المولى – عز وجل – أن يعيذ هذه المولودة وذريتها من الشيطان الرجيم ، وأن يتقــبل نذرها ، فاستجاب لها المولى هذا الدعاء ، وتقبل منها نذرهــا [٤] ، حيث قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللَّهُ أَعْلَــمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وِإِنِّي أُعِيذُهَا

---

(١) البغوي : معالم التنزيل ٢ / ٢٩ .

(٢) من الآية ٣٥ سورة آل عمران .

(٣) الطــبري : تــاريــخ الرســل ١/ ٥٨٥ ، ابن كثير : البداية ٢ / ٥٧ ، القرطبي: الجامع ٦٦/٤ ، ٦٧ .

(٤) البغوي : معالم التنزيل ٢ / ٣٠ ، ٣١ ، ابن كثير : البداية ٢ / ٥٧ .

بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ [١]، وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ : أنه قال **(ما من مولود إلا الشـيطان يمسه حين يولد ، فيستهل صارخاً من مس الشيطان إياه ، إلا مريم وابنها)** [٢].

أرضــعت امرأة عمران ابنتها مريم ، وسوى المولى خلقتها ، وبارك فيها ، وأنبتها نباتاً حسناً ، حتى فُطمت ، فحملتها أمها إلى بيت المقدس ، ووضعتها بين يــدي الأحبار ، وقالت لهم : دونكم هذه النذيرة ، فتنافس عليها الأحبار لكفالتها ، حيــث كانــت مريم ابنة إمامهم ، وصاحب قربانهم ، وحاول نبي الله زكريا أن يســتبد بهــا دونهــم ، فقــال لهم : أنا أحق بها منكم ، فزوجتي خالتها ، فأجابه الأحــبار ، بأنهــا لو تركت لأحق الناس بها ، لتركت لأمها التي ولدتها ، ولكننا نقترع عليها ، فتكون عند من خرج سهمه عليها [٣].

انطلــق تســعة وعشرون حبراً إلى نهر الأردن ، وألقوا أقلامهم التي يكتبون بها التوراة في مائه ، بعد أن مُيزَ كل منها باسم صاحبه ، واتفقوا على أن من ثبت قلمه فوق الماء ، ولم يرسب ، فهو أحق بها ، فارتفع قلم زكــريا ، وطفا ، فكان هو الغالب لهم ، والكافل لمريم ، وأحق بها شرعاً ورحمــا [٤] حيث قال تعالى : **﴿ ذَلِــكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيكَ وَمَا**

---

(١) الآية ٣٦ ، ومن الآية ٣٧ سورة آل عمران .

(٢) أخــرجه أحمــد في مسنده من مسند المكثرين ، مسند أبي هريرة ، حديث رقم ٧٣٨٣ ، ابن كثير : البداية ٢ / ٥٧ .

(٣) البغوي : معالم التنزيل ٢ /٣١ ، ابن كثير: البداية ٢/ ٥٨ .

(٤) الــبغوي : معالم التنزيل ٢ /٣١ ، ابن كثير: البداية ٢/ ٥٨ ، القرطبي : الجامع ٤ / ٨٦ .

كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ (١).

اتخذ زكريا لمريم مكانا شريفاً في المسجد ، فكانت تعبد الله فيه ، وتقوم بما عليها من خدمة البيت وسدانته في أوقات خدمتها ، وتتعبد لله بعد ذلك في ليلها ونهارها ، حتى صارت يضرب بها المثل في العبادة والزهد بين بني إسرائيل ، وكانت مريم في غرفة علوية ، ذات باب لا يصعد إليها فيها إلا زكريا ، فيحضر لها من الطعام ما تقيم به أودها ، ولكنه كان يجد عندها رزقاً في غير أوانه ، كفاكهة الشتاء في الصيف ، وثمار الصيف في الشتاء ، ولم يكن يدخل عليها غيره ، فتعجب من ذلك ، وسألها عمن أتى بذلك ، فأجابته أن هذا رزق رزقها الله إياه ، وهو الذي يرزق من يشاء بغير حساب (٢)، حيث قال تعالى : **﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَـذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ إنَّ اللّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾** (٣).

وهنا تاقت نفسي زكريا للولد الذي حُرم منه ، حتى بلغ من الكبر عتيا ، وعقمت زوجته ، وارتجى من الله أن يرزقه به ، كما رزق مريم من غير سبب ، وفي غير أوانه ، فكان ما كان من قصه البشرى بميلاد يحيى ، وما دار فيها ، مما سقناه قبل ذلك .

البشرى بعيسى :

نمت مريم وترعرعت ، وشبت واشتد ساعدها ، وعمر قلبها بالتقوى

---

(١) آية ٤٤. سورة آل عمران .

(٢) البغوي : معالم التنزيل ٢/ ٣٢ ، ابن كثير : البداية ٢/ ٥٨ .

(٣) من الآية ٣٧ سورة آل عمران .

والصـــلاح ، ومكثــت بالبيــت تعــبد الله الذي يرسل إليها رزقها رغداً ، وأخلصـــت في القيام بسدانة البيت وخدمته ، حتى صارت مضرب الأمثال بين بني قومها ، فهي أول أنثى قبلت في النذر [١].

ولم تكن هذه هي كرامات السيدة مريم وحسب ، بل كانت الكرامة الكبرى لها في تبشير الملائكة باصطفاء المولى لها من بين سائر نساء العالمين ، واختيارها لتكون أما لآخر نبي ورسول من بني إسرائيل ، يولد من أم بلا أب ، مـــع التأكيد على طهارتها ، وعفتها ، واجتباء المولى لها ، وإسباغه عليها مـــن جمـــيل الصـــفات ، وعظيم الكرامات [٢] ، حيث قال تعالى : ﴿ **إِذْ قَالَــتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ** ﴾ [٣] ، وروى ابـــن عباس عـــن النبي ﷺ أنه قـــال : (**أفضل نساء الجنة أربع : مريم بنت عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة ابنة محمد ، وآسية ابنة مزاحم**) [٤].

وأمـــر المولى – عز وجل – السيدة مريم بعد تبشيرها بذلك بالطاعة، وإطالة القيام في الصلاة ، وكثرة العبادة ، والقنوت ، والسجود ، والركوع ، لـــتكون أهـــلاً لهـــذه الكرامة ، ولتقوم بشكر النعمة ، فكانت تقوم حتى

---

(١) ابن كثير : البداية ٢/ ٦٤ ، محمد أبو الفضل : قصص القرآن ص٢٥٠ ، ابن عاشور : التحرير ١١ / ٣٣٨ .

(٢) البغوي : معالم التنزيل ٢/ ٣٦ ، ٣٧ ، القرطبي : الجامع : ٤/ ٨٢ ، ٦ / ٢٥١ ابن كثير : البداية ٢/ ٥٩ .

(٣) الآية ٤٢ سورة آل عمران .

(٤) أخـــرجه أحمد في مسنده من مسند بني هاشم ، مسند عبد الله بن عباس ، حديث رقم ٢٨٠٥ ، ابن كثير : البداية ٢ / ٦١ .

تفطـرت قدماهـا (١) ، فقـال تعالى : ﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِـي مَـعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ (٢) ، كما كانت مريم مثالا حسناً في الامتثال لأوامر ربها ، حتى أثنى عليها سبحانه بتصديقها بآيات ربها ، وأنها كانت مـن الطائعيـن ، والقانتيـن ، والمصـلين ، وأنها كانت من العفيفات ، الحافظـات لفروجهـن (٣) ، حيث قال تعالى عنها : ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَـا وَكُتُـبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ (٤)، وقال سبحانه عنها : ﴿ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ﴾ (٥).

تعجبت السيدة مريم من بشارة الملائكة لها ، بأنها ستنجب ولدا زكياً ، يكون نبيا ، كريماً ، طاهراً ، مكرماً ، مؤيداً بالمعجزات ، وهي غير ذات زوج ، ولا ممـن تتزوج ، فأخبرتها الملائكة بأن الله قادر على ما يشاء ، وإذا قضـى أمـراً فإنما يقول له كن فيكون ، فاطمأنت بذلك ، وأنابت وسـلمت لأمـر الله ، وعلمت أن في هذا الأمر محنة عظيمة لها ولقومها الذين سيسيئون الظن بها ، لأنهم لا يعلمون حقيقة الأمر ، وإنما ينظرون للظاهر من غير تدبر ولا تعقل (٦) ، حيث قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَـرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ .... قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي

---

(١) البغوي : معالم التنزيل ٢/ ٣٧ ، ابن كثير : البداية ٢ / ٥٩ .
(٢) آية ٤٣ ، سورة آل عمران .
(٣) القرطبي : الجامع ٦/ ٢٥١ ، ١٨ / ٢٠٣ ، ٢٠٤ .
(٤) من الآية ١٢ سورة التحريم .
(٥) من الآية ٧٥ سورة المائدة .
(٦) ابن كثير : البداية ٢ / ٦٤ .

بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ (١).

نفخ الروح فى عيسى :

كانت مريم لا تخرج من المسجد إلا للطهارة من حيضها ، أو لاستيفاء بعض الضروريات لها ، وبينما هي ذات يوم في شرقى المسجد ، بعيدة عن أعين الناس لتخلو للعبادة ، إذ نزل عليها جبريل في صورته البشرية ، فتوجست منه خيفة أن يفعل بها سوءاً ، والتجئت إلى الله ، واستعاذت منه ، بعد ما رأته في محرابها ، ورجته أن يتقي الله فيها ، فلا يقترب منها ، فأخبرها جبريل أنه رسول رب العالمين ، وليس بشراً ، وما جاء إليها إلا ليهب لها غلاماً زكياً (٢)، حيث قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ (٣).

تعجبت السيدة مريم من هذه البشرى ، وكيف يكون لها ولد وهي غير ذات زوج ، ولا من الذين يفعلون الفاحشة (٤) ، بينما قال القرطبي(٥) : إنها لم تستبعد من قدرة الله شيئاً ، ولكنها أرادت معرفة كيف يكون هذا الولد ، أهو من زواج في المستقبل ، أم يخلقه الله ابتداءً أجابها الملك أن هذا أمر الله أن يخلق منك ولدا وأنت غير ذات زوج ، فهو القادر على كل شيء

(١) الآيتان ٤٥ ، ٤٧ سورة آل عمـران .

(٢) القرطبي : الجامع ١١ / ٩٠ ، ٩١ ، ابن كثير : البداية ٢ / ٦٤ .

(٣) الآيات ١٦ – ١٩ سورة مريـم .

(٤) ابن كثير : البداية ٢ / ٦٤ .

(٥) الجامع ١١ / ٩١ .

، والحكمة من ذلك ليكون هذا المولود ، وطريقة حمله ، دليلا على كمال قدرة الله على أنواع الخلق ، فقد خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى ، وخلق حواء من غير أم ، وخلق عيسى من غير أب ، وخلق سائر البشر من ذكر وأنثى ، وطمئن جبريل مريم بأن هذا المولود سيكون رحمة من الله للعباد ، يدعوهم في صغره وكبره بأن يفردوا الله بالعبادة وحده لا شريك له ، وأن ينزهوه عن اتخاذ الصاحبة ، والولد ، والشركاء ، والأنداد [1] فقال تعالى: ﴿ **قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا قَالَ كَذَلِك قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا** ﴾ [2].

نفخ جبريل في جيب ضرع مريم ، فنزلت النفخة فيها ، وحملت من فورها بعيسى ، وكانت في الثالثة عشر من عمرها [3] ، حيث قال تعالى : ﴿ **وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا** ﴾ [4].

حمل مريم بعيسى :

أصبح حمل مريم أمراً واقعاً ، وبدأت تضيق منه لما سيقوله الناس عنها ، وظهرت عليها بوادر الحمل ، وكان أول من أحس بذلك ابن خالها يوسف النجار ، الذي كان من العابدين القانتين معها في المسجد ، ولما رأى بوادر الحمل تعجب عجباً شديداً ، لما يعرفه من ديانتها ، وعبادتها ، وقيامها ، وهاهو ذا يراها حبلى من غير زوج ، فعرّض لها يوما في الكلام قائلاً : يا

---

(١) ابن كثير : البداية ٢ / ٦٤ ، ٦٥ .

(٢) الآيتان ٢٠ ، ٢١ سورة مريم .

(٣) ابن كثير : البداية ٢/ ٦٥ ، القرطبي : الجامع ١١ / ٩١ .

(٤) من الآية ٩١ سورة الأنبياء .

مـــريم هل يكون زرع من غير بذر ؟ ، قالت نعم ، فمن خلق الزرع الأول ؟، ثم قال : فهل يكون ولد من غير ذكر ؟ قالت: نعم ، إن الله خلق آدم من غير ذكـــر ولا أنثى ، قال لها : فأخبريني خبرك،فقالت : إن الله بشرني بكلمة منه اســـمه المســـيح عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين [1]، ويقـــال : إن زكـــريا سألها بمثل ذلك ، فأجابته بمثل هذا ، إذ كان هو الكافل لها منذ دخولها المسجد [2].

ويُـــروى أن مـــريم دخلـــت يومـــاً على خالتها زوجة زكريا ، فذكرا لبعضـــهما مـــا هما فيه من الشعور بالحمل ، وقالت أم يحيى لمريم : إني أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك ، وذلك مصداقاً لقوله تعالى في حق يحيى : ﴿ **مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ** ﴾ [3] ، ويبدو أن أمر حمل مريم قد شاع بيـــن النـــاس ، فاتهموهـــا بالفاحشة مع يوسف ، الذي كان يتعبد معها ، وأصابت الشائعة بيت نبي الله زكريا ، فداخلهم الهم في هذه المحنة مما دفع مريم إلى أن تتنحى بحملها إلى مكان بعيد عن القوم وعن الوادي في بيـــت لحم ، خوفا على نفسها وحملها من أذى قومها ، حتى اكتمل حملها تسعة أشهر ، وبدأت تعاني من آلام المخاض والولادة[4] حيث قال تعالى: ﴿ **فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا** ﴾ [5].

اشـــتد ألم المخاض على مريم ، فالتجأت إلى جذع نخلة يابسة لتستند

---

(١) من الآية ٤٥ سورة آل عمـــــران .

(٢) الطبري : تاريخ الرسل ١ / ٥٩٤ ، ٥٩٥ ، ابن كثير : البداية ٢/ ٦٥.

(٣) من الآية ٣٩ سورة آل عمران .

(٤) القرطبي : الجامع ١١ / ٩٢ ، ابن كثير : البداية ٢/ ٦٥ ، ٦٦ .

(٥) الآية ٢٢ سورة مريـــم .

إليه ، وتتعلق به كما تتعلق الحامل لشدة طلقها ، وبلغ بها الحزن مبلغاً ، حتى إنها تمنت أن لو ماتت قبل ذلك الأمر ، حيث أدركت أن القوم سوف يتهمونها في هذا الوليد ، ويكذبونها فيما تقوله عنه ، على الرغم من أنها كانت من العابدات ، الناسكات ، المجاورات في المسجد المعتكفات فيه ، ومن بيت النبوة والديانة ، كما أن حملها للوليد سوف يوقع قومها في البهتان ، ونسبة الفاحشة إليها ، وذلك مهلك لهم [١].

وبينما السيدة مريم يعتصرها الألم والحزن لهول ما هي فيه ، إذ بصوت الملك جبريل يناديها بألا تحزن بميلاد عيسى ، إذ تواكب مع ميلاده ظهور الكرامة تلو الأخرى لوالدته ، فأخبرها أن المولى قد أعاد المياه للنهر في أسفلها لتشرب منه ، وطالبها بأن تهز جذع النخلة اليابس ، لترى آية أخرى ، إذ يتساقط عليها منها رطب صالح للأكل ، وهو أفضل ما يكون للنفساء ، فتتأكل ، وتشرب ، ولتقر عيناً برؤية هذا الولد النبي [٢] ، حيث قال تعالى : ﴿ **فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا** ﴾ [٣].

استقرت نفس السيدة مريم وفؤادها لما رأته من الكرامات المتتالية لهذا الوليد ، وبقي أمر واحد يشغل تفكيرها ، وهو : ماذا تقول لقومها إذا ما عادت إليهم ؟ ، فأمرها المولى على لسان جبريل – عليه السلام – أن

---

(١) القرطبي : الجامع ١١ / ٩٤، ٩٧ ، ابن كثير : البداية ٢ / ٦٥ ، ٦٦

(٢) القرطبي : الجامع ١١ / ٩٤ – ٩٦ ، ابن كثير : البداية ٢ / ٦٦ ، ٦٧.

(٣) الآيات ٢٣ – ٢٥ ومن الآية ٢٦ سورة مريم .

تمسك عن الكلام ، إذا ما رآها أحد ، وتترك ذلك لوليدها ، ليرفع عنها خجلها ، وتتبين الآية ، فيزول ما تُتهم به ، فاطمأنت مريم لذلك ، وأتمت نفاسها ، وتأهبت للرجوع إلى قومها ، وهي واثقة من رعاية المولى لها ولوليدها [١] ، حيث قال تعالى : ﴿ **فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا** ﴾ [٢] وكان من صومهم في شريعتهم ، ترك الكلام والطعام [٣].

مريم تواجه قومها بعيسى

تقدمت السيدة مريم وهي تحمل وليدها بين يديها،وتسامع بنو إسرائيل بمجيئها ، فاجتمع رجالهم ونساؤهم ، وما إن رآها قومها حتى اتهموها بأنها جاءت بأمر منكر عظيم ، ليس له مثيل ، ومدت امرأة منهم يدها لتضربها ، فأجف الله نصفها ، وقال آخر : ما أرها إلا زنت ، فأخرس الله لسانه ، فامتنع الناس عن التعرض لها ، أو إيذائها ، وألانوا لها في القول بأنها أخت هارون العابد ، الذي كان في زمانهم ، فكيف يتأتى منها هذا الأمر ، ولم يكن أبوها من الأشرار الفاسقين ، ولا أمها من البغاة ، فاتهموها بالفاحشة العظمى ، والداهية الدهياء ، وإن كان في ثوب التقريع والتعريض [٤].

بينما ذكر الطبري أن قومها اتهموا بها زكريا ، حيث كان كافلاً لها ، ولم يكن يدخل عليها غيره ، فأرادوا قتله ، فأسرع بالفرار منهم ، فلحقوه

---

(١) القرطبي : الجامع ١١ / ٩٨ ، ٩٩ ، البغوي : معالم التنزيل ٥/ ٢٢٨.

(٢) من الآية ٢٦ سورة مريم .

(٣) ابن كثير : البداية ٢ / ٦٧ .

(٤) القرطبي : الجامع ١١ / ٩٩ – ١٠١ ، ابن كثير : البداية ٦٧/٢ ، ٦٨

وقد انشقت له الشجرة ، فدخلها ، وقد أمسك إبليس بطرف ردائه ، فنشروه فـيها ، وإن كنا قد استبعدنا مثل هذه الرواية عند تعرضنا لموت زكريا – عليه السلام – [(١)].

ويقال إن بعض الحاضرين قد اتهمها بابن خالها يوسف النجار ، فضاق الأمـر على مريم ، وامتنع المقال ، وعظم توكلها على ذي الجلال ، ولم يبق إلا الإخلاص ، فأشارت إلى وليدها ليكلموه ، فجوابهم عنده ، وبراءتها معه ، فاغتاظ الأشقياء منهم ، وقالوا : كيف تحيلنا في الجواب على صبي صـغير لا يعقـل الخطاب ، وإن استخفافها بنا ، وتهكمها علينا ، أشد من زناهـا ، إذ هـي لا تـرد علينا بكلام ، بل تحيل ذلك لمن كان في المهد صـبيا[(٢)]. فقـال تعالى ﴿ **فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَـيْئًا فَرِيًّا يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا** ﴾ [(٣)].

كلام عيسى وصفاتـه :

سـمع عيسـى – عليه السلام – مقالتهم ، فترك ثدي أمه حيث كان يرضع ، وأقبل عليهم بوجهه ، وأشار بسبابته اليمنى ، وقال : إني عبد الله ، فكان أول ما نطق به ، اعترافه بعبوديته لله تعالى ، وأن الله ربه ، رداً علـى مـن غـلا فيه بعد ذلك ، وزعم أنه إله ، أو ابن إله ، فأكد عيسى بكلماتـه الأولـى أنـه عـبد الله ورسوله ، وابن أمته ، وألقى في وجوه

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل ١ / ٦٠٠ ، ٦٠١ .

(٢) القرطبـي : الجامع ١١ / ١٠٣ ، البغوي : معالم التنزيل ٥/ ٢٢٩ ، ابن كثير : البداية ٢/ ٦٧ ، ٦٨ .

(٣) الآيات ٢٧ – ٢٩ سورة مريم .

الحاضرين ببرهان براءة أمه مما نسبوها إليه من الوقوع في الفاحشة [١] ، حيث قال تعالى على لسان عيسى : ﴿ **قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا** ﴾ [٢].

وبدأ عيسى – عليه السلام – يعدد صفاته التي ألهمها الله له ؛ وهي : إعطائه الإنجيل كتاباً له ، وجعله من المرسلين ، وأحد أولى العزم الخمسة ، وصاحب بركة ومنافع في الدين ، والدعاء إليه ، وآمراً بالمعروف ، وناهياً عن المنكر ، ومرشداً للضال ، وناصراً للمظلوم ، ومنزها لله من اتخاذ الصاحبة والولد ، وحريصاً علي الصلاة والزكاة عند بلوغه التكليف ، وخفض جناحه لوالدته ، إذ لا والد له سواها ، وبعده عن الفظاظة والغلظة ، إذ لا يصدر منه قول أو فعل ينافي أمر الله وطاعته ، وطلب التحية من الله تعالى في المواقف الثلاثة ، التي يكون المرء فيها أحوج ما يكون لرحمة الله به [٣] ، حيث قال تعالى : ﴿ **قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا** ﴾ [٤].

هذه هي الكلمات التي تحدث بها عيسى في مهده ، ثم عاد بعدها لطفولته ، حيث نمى كغيره من الأطفال إلى أن بلغ مبلغ الصبيان ، وكان

---

(١) القرطبي : الجامع ١١/ ١٠٣ ، البغوي : معالم التنزيل ٥/ ٢٢٩ ، ابن كثير : البداية ٢/ ٦٨، ٦٩ .

(٢) الآية ٣٠ سورة مريم .

(٣) القرطبي : الجامع ١١ / ١٠٣ ، ابن كثير : البداية ٢/ ٦٩ .

(٤) الآيات ٣٠- ٣٣ سورة مريم .

نطقه في مهده إظهاراً لبراءة أمه ، ويقال : إن القوم أذعنوا لما سمعوه من كلام عيسى ، وقالوا : إن هذا لأمر عظيم ، فلم يتعرضوا لهما بأذى ، بعد أن برأها الله من الفاحشة (١).

هجرة مريم لمصر :

اختلفت آراء المؤرخين فى سبب هجرة مريم بعيسى إلى مصر **فقال وهب بن منبه:** إنه لما ولد عيسى خرت الأصنام يومئذ في مشارق الأرض ومغاربها ، وأن الشياطين حارت في سبب ذلك ، فكشف لهم إبليس اللعين عن أمر عيسى وميلاده ، فجاءوا إليه فوجدوه في حجر أمه ، والملائكة محدقة به ، كما ظهر لمولده نجم عظيم في السماء ، وأشفق من ظهوره ملك الفرس ، فسأل كهنته عن ذلك ؟ ، فقالوا : ظهر هذا النجم لمولد عظيم في الأرض ، فبعث ملك الفرس رسله ومعهم الهدايا لعيسى وأمه ، ولما قدموا الشام سألهم حاكمها الرومانى عن سبب قدومهم ، فذكروا له ذلك ، وعلم أنه عيسى ابن مريم ، الذي ولد في هذا الوقت ببيت المقدس ، واشتهر أمره بسبب كلامه في المهد ، فأرسل حاكم بيت المقدس عيونه مع الوفد الفارسي ، ليدلهم على مكان عيسى وأمه ، وليقتلوهما إذ ما انصرف الفرس من عندهما ، ولما دخل الفرس على مريم وابنها وأعطوها هدايا كسرى الفرس حذروها من عيون الحاكم الروماني ، وأنهم ما جاءوا إلا لقتلها ، فحملت مريم وليدها ، وأسرعت بالفرار من بيت المقدس صوب مصر ، فأقامت فيها حيث قال تعالى : ﴿ وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ (٢). وهي مصر ، بما فيها من أرض مستوية ، وماء جار ظاهر

---

(١) القرطبي : الجامع ١١/ ١٠٣ ، البغوي : معالم التنزيل ٥/ ٢٣١ .

(٢) من الآية ٥٠ سورة المؤمنون .

للعيون ، ومكثت مريم ووليدها فى مضر تغزل الكتان ، وتلتقط الحب في أثر الحصادين ، ويوسف يحتطب الحطب ويبيعه ، حتى بلغ عيسى الثانية عشرة من عمره ، وتوفى هيرودس ، فعادت مريم إلى فلسطين ، وظهرت لعيسى في هذه الفترة العديد من الكرامات والمعجزات ، وسكنا في قرية الناصرة من أعمال صفد ، وبها سميت النصارى [١].

وذكر ابن عباس : سبباً آخر لهجرة مريم من الشام لمصر ، وهو أن عيسى أظهر في طفولته العجائب والكرامات ، وفشا أمر ذلك بين اليهود ، فهموا بقتله ، وخافت أمه عليه ، فأوحى الله إليها أن تنطلق به إلى أرض مصر ، فمكثت فيها ثم عادت [٢].

ويلوح لي أن رواية ابن عباس هي الأقرب إلى الصحة في بيان سبب هجرة مريم وابنها من فلسطين إلى مصر ، فما كان الله ليذر عيسى وأمه عرضه لفتن اليهود ، وأن يجعل خروجهم من بين أيديهم ، ونجاتهم إلى مصر على يد الوفد المجوسي ، وهم عبدة النار ، لا سيما وأن المولى قد أحاط مريم منذ ميلادها بالعديد من الكرامات ، وأيد ابنها بالمعجزات منذ ميلاده وبعد ذلك .

عادت مريم وابنها إلى أرض فلسطين من مصر ، وكان عيسى - عليه السلام - قد أشرف على مرحلة الشباب ، وتعلم التوراة ، وظهرت كراماته للناس ، وتناقل الناس ما يقوم به ، وما يأتي به من العجائب ، وظل على هذا الأمر حتى قتل يحى ، فأعلن عيسى دعوته للناس ، وهو

---

(١) القرطبي : الجامع ١١/ ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٢/ ١٢٦ ، ١٢٧ ، ابن كثير : البداية ٢/ ٧٦ ، القرماني : أخبار الدول ١ / ٢١٧- ٢١٩ .

(٢) ابن كثير : البداية ٢ / ٧٨ .

علـــى رأس الثلاثيـــن مـــن عمره ، وبذلك تبدأ مرحلة جديدة في حياة هذا الرسول [١] .

زمن ميلاد عيسى [عليه السلام] وأسماؤه :

ولد عيسى – عليه السلام – في بيت لحم بفلسطين في عهد الإمبراطور أغسطس الروماني ، وكان حاكم القدس هيرودس من جهة الرومان ، وذلك قـــبل هجـــرة النبـــي محمد ﷺ بستمائة وعشرين سنة [٢] ولنبي الله عيسى أسماء عديدة منها : المسيح ، وعيسى ، وكلمة الله وروح الله ، وابن مريم ، ولقد وردت هذا الأسماء في آيات شتى من القرآن الكريم ، فإليك بيان معنى كل منها :

١– **عيسى** : اسم معرب من يسوع ، أو يشوع العبراني ، ومعناه السيد ، أو المبارك [٣] قال تعالى : ﴿ **وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى** ﴾ [٤].

٢– **المسيح** : لقب لعيسى ، ومعناه الصديق ، وهو لفظ معرب [٥] ، وقيل سمي عيسى مسيحاً : لأنه مُسِحَ من الأقذار ، وطُهِرَ من الذنوب ، أو لأنـــه خرج من بطن أمه ممسوحاً بالدهن ، وقيل : مسحه جبريل بجناحيه حـــتى لـــم يكن للشيطان عليه سبيل ، وقيل : لأنه كان ممسوح القدم ، لا أخمـــص له ، وقـــال ابن عباس : (لأنه كان لا يمسح ذا عاهة إلا برئ)

---

(١) البغوي : معالم التنزيل ٢/ ٤٤ ، ابن كثير : البداية ٢ /٧٨، ٧٩

(٢) ابن عاشور : التحرير ١/ ٣٧٢ .

(٣) المرجع السابق نفس الجزء والصفحة .

(٤) من الآية ١٠٩ سورة المائدة .

(٥) القرطبي : الجامع ٤/ ٨٨ ، البغوي : معالم التنزيل ٢ / ٣٤ .

وقـيل : لأنه كان يمسح الأرض ، فلم يستكن بمكان ، بل كان يسيح فيها لنشر دينه ، وفراراً من تكذيب اليهود له ، وافترائهم عليه وعلى أمه [١].

قال تعالى : ﴿ **مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ** ﴾ [٢].

٣- **الكـلمة** : سـمي عيسى بذلك لأنه خلق في رحم أمه بكلمة الله ، وهـي كن فكان من غير أب ، أو لأن الناس يهتدون به كما يهتدون بكلام الله ، وقيل : بل هي الكلمة التي بشر الله بها مريم على لسان جبريل – عليه السلام – [٣] قال تعالى : ﴿ **وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ** ﴾ [٤].

٤- **روح الله** : إذ كل الأرواح من الله ، وأضيفت روح عيسى لذات الله تكريما له لمنزلته من الله ، فقال تعالى : ﴿ **وَرُوحٌ مِّنْهُ** ﴾ [٥].

٥- **ابـن مـريم** : وهو كنية له حيث قال تعالى : ﴿ **وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً** ﴾ [٦].

رسالة عيسى ودعوتـه لقومه:

نشـأ عيسـى – علـيه السلام – كما ينشأ كثير من الأطفال ، إلا أنه ظهـرت بـوادر فضله ، وبدأت مظاهر نبوته صغيراً ، فهو إذ يلعب مع أقـرانه ينبـئهم بما يأكلون ، وما يدخرون في بيوتهم ، وهو إذ يذهب إلى لم القرية لا ينهج منهج غيره ، بل يستمع إلى حديثه في جد واهتمام ، ثم

---

(١) القرطبي : الجامع ٤/ ٨٩ ، ابن كثير : البداية ٢ / ٩٨ .

(٢) من الآية ٧٥ سورة المائدة .

(٣) القرطبي : الجامع ٤ / ٧٦ ، البغوي : معالم التنزيل ٢ / ٣٤ .

(٤) من الآية ١٧١ سورة النساء .

(٥) من الآية ١٧١ سورة النساء .

(٦) من الآية [illegible] سورة المؤمنون .

هو لا يعلمه شيئا إلا ساءله عنه ، فلا تغيب عنه شاردة ، ثم يرحل إلى بيت المقدس مع أمه في مطلع الشباب ، فلم تلهه تلك المدينة البراقة ، أو يزيغ بصره من زخرفها ، بل نراه يلقى بنفسه في ميدان العلم ، يستقي من مورده ، ويلزم حلقة الدرس ، وينصت إلى حديث الكهنة ، ويسألهم فيما يقولون ، فنقم بعض الناس جرأته ، وضاق العلماء به ذرعاً ، إذ لم يعهدوا قبله أن يجترئ أحد على جدالهم ، ولكنه لم يعبأ بما كالوه له ، بل استمر يمطرهم بأسئلته ، ويسد المسالك أمامهم بمحاجته [1].

وكانت الرسالات الإلهية قد تتابعت من المولى لبني إسرائيل ، من لدن يعقوب وهو إسرائيل – حتى ختمت برسالة عيسى ابن مريم ، الذي ابتعثه الله وهو على رأس ثلاثين سنة من عمره ، فنزل عليه الوحي داخل مسجد بيت المقدس في شهر رمضان وبنو إسرائيل يتبايعون فيه ، فجعل ينهرهم عيسى ويقول : يا بني أولاد الحيات والأفاعي اتخذتم مساجد الله أسواقاً ، وأنزل الله عليه الإنجيل كتاباً ، ونزل عليه جبريل عشر مرات [2].

وكانت دعوة عيسى رحمة لبني إسرائيل ، وتصديقاً لما في التوراة الحقيقية من تعاليم بشرت بعيسى ، ودعا المسيح قومه لتوحيد الله ، مؤيداً دعوته لهم بما أظهره الله على يديه من المعجزات ، كما دعاهم إلى مكارم الأخلاق بعد أن قست قلوبهم ، وغيروا في دينهم وبدلوا [3].

---

(١) البغوي : معالم التنزيل ٢ / ٣٩ ، القرطبي : الجامع ٤ / ٩٣ ، محمد أبو الفضل : قصص القرآن ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ .

(٢) القرماني : أخبار الدول ١ / ٢١٧ .

(٣) القرطبي : الجامع ١٨ ، ٨٤ ، ابن عاشور : التحرير ٨/ ٤٧٠ ، ١٣ / ٢٣٤ .

وامتـن عيسى على بني إسرائيل أنه جاء ليبين لهم ما اختلفوا فيه من بعض أحكام التوراة ، وليحل لهم ما كان محرما عليهم فيها بذنوبهم ، من أكـل لحوم الإبل ، وشحومها ، والصيد في السبت ، وليحل لهم ما حرمه علـيهم أحبارهم من أنفسهم ، ولم يكن في التوراة.كما طالبهم بتقوى الله ، والبعد عن الشرك ، و طاعته فيما يدعوهم إليه ، من التوحيد ، فما كان من بني إسرائيل إلا أن اتهموه بأنه ساحر مبين [١].

ومـن الأدلـة على تفاني عيسى في دعوة بني إسرائيل ما رواه قتادة حيـث قال : (جاءهم عيسى بألين مما جاء به موسى ، لأن موسى جاءهم بتحريم الإبل ، وأشياء من الشحوم ، فجاءهم عيسى بتحليل بعضها) [٢].

قـال تعالى عنه : ﴿ **وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ** ﴾ [٣]، وقال سبحانه : ﴿ **وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ** ﴾ [٤]. وقـال علـى لسان عيسى: ﴿ **وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَطِيعُونِ إِنَّ اللّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَـذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ** ﴾ [٥].وقال – عليه السلام – عن نفسه : ﴿ **قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ**

---

(١) القرطبي : الجامع ٤ / ١٩٦ ، ١٦ / ١٠٨ ، ١٨ / ٨٤ ، البغوي : معالم التنزيل ٧ / ٢٢٠ ، ٢ / ٤١ .

(٢) القرطبي : الجامع ٤ / ٩٦ .

(٣) من الآية ٨٧ سورة البقرة .

(٤) آية ٤٨ ومن الآية ٤٩ من سورة آل عمران .

(٥) الآيتان ٥٠ ، ٥١ سورة آل عمران .

وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ (١).

وعلى الرغم من قسوة قلوب بني إسرائيل على عيسى ، إلا أنه لم يحرم من بعض المؤمنين به ، فقد جعله الله مباركاً ، وسبباً لحلولها في المكان الذي ينزل فيه ، وسببا لاهتداء أهلها ، فكان إذا لقيه الجهلة ، والقساة ، والمفسدون ، انقلبوا صالحين ، وانفتحت قلوبهم للإيمان به ، لذلك كان حواريو عيسى من عامة الأميين ، والصيادين ، والعشارين ، الذين هداهم الله ، فصاروا دعاة من بعده (٢).

شعر رجال الدين اليهودي بخطورة دعوة عيسى عليهم ، فها هو ذا عيسى ينكر عليهم انغماسهم في الشهوات ، وتسابقهم إلى جمع المال ، ثم هو يفضح أسرارهم ، وينشر بين الناس مخازيهم ، فأجمعوا أمرهم بينهم على مناوأته أينما حل وتكذيبه حيثما ذهب (٣).

ولكن عيسى – عليه السلام – لم يبال جمعهم ، بل صمد في سبيل الحق ، وسار متنقلا بين البلاد ، يبين زيف آرائهم ويفند أقوالهم ، فطالبوه بما يؤيد رسالته ، ويثبت دعوته ، ويدلهم على نبوته ، فأيده الله بالمعجزات الباهرة ، وآزره بالآيات البينة التي لا يستطيع بشرى أن يقوم بها من غير تأييد الله له ، ولكنهم تمادوا في طغيانهم (٤) ، وقال الذين كفروا منهم : ﴿هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٥). فإليك بعضاً من معجزاته وكراماته .

---

(١) من الآية ٦٣ سورة الزخرف .

(٢) ابن عاشور : التحرير ٨ / ٤٧٠ .

(٣) محمد أبو الفضل : قصص القرآن ص ٢٦٠ .

(٤) المرجع السابق نفس الصفحة .

(٥) من الآية ٦ سورة الصف .

معجزات عيسى [عليه السلام] .

المعجـــزة : هي أمر خارق للعادة ، يظهره الله على يد مدعي النبوة ، تأييداً له ، ولا مراء في أن لكل نبي معجزات تتناسب مع أهل زمانه ، فقد كان في قوم موسى – عليه السلام – من السحرة الماهرين الخبيرين بفنونه ، لذلك أيد الله كليمه موسى بآيات بهرت الأبصار ، وخضعت لها الرقاب ، وأسلم به السحرة عن طواعية وإيمان (١).

أما قوم عيسى – عليه السلام – فقد فاقوا سابقيهم بفنون الطب والحكمة ، لذلــك أيــد الله رســوله عيسى بمعجزات لا يستطيعون مجاراتها ، ولا يهتدون إليها ، من إبراء الأبرص ، والأعمى ، والمجذوم بإذن الله ، وأشدمن هذا وذاك إحياء الموتى من قبورهم بإذن الله ، ونفخ الروح في الطين بإذن الله ، لــيكون خلقــاً سوياً (٢) ، وإليك بعضاً من معجزات عيسى – عليه السلام – .

١ـ كلامــه في المهــد :

هــذه أولى معجزات عيسى – عليه السلام – حيث انطقه الله وهو ما زال في المهد رضيعاً ، ليبرئ أمه مما اتهمها به بنو إسرائيل من زناها به ، حيــث قــال تعــالى على لسان عيسى : ﴿ **إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا** ﴾ (٣).

---

(١) ابن كثير : البداية ٢ / ٨٥ .

(٢) ابن كثير : البداية ٢ / ٨٥ ، ٨٦ .

(٣) الآيات ٣٠ – ٣٣ سورة مريـــم .

لـــيس هـــذا فحســـب ، بل وتكلم عيسى وهو في بطن أمه ، حيث قال مجـــاهد : قالـــت مريم : كنت إذا خلوت أنا وعيسى حدثني وحدثته ، وإذا شغلني عنه إنسان سبّح في بطني وأنا أسمع [١].

٢ـ اطلاعه على ما يخفيــه الناس :

أنعم المولى على عيسى بمعرفة ما لم يره من الأحداث ، ومن ذلك ما حـــدث له وهو طفل مع أمه في مصر ، إذ إن الدهقان الذي نزلوا عنده قد افـــتقد مالاً من داره ، وكان لا يسكن داره إلا الفقراء والضعفاء ، فلم يدر من أخذه ، وعز ذلك على مريم ، وشق ذلك على الناس وعلى رب المنزل ، وأعياهم أمره ، فلما رأى عيسى ذلك عمد إلى رجل أعمى ، وآخر مقعد من جملة من أقام في المنزل ، فقال للأعمى : احمل هذا المُقعد ، وانهض بـــه ، فقـــال : إني لا أستطيع ذلك ، فقال : بلى كما فعلت أنت وهو حين أخذتما هذا المال من تلك الكوة من الدار ، فلما قال ذلك صدقاه فيما قال ، وأتيا بالمال ، فعظم عيسى في أعين الناس وهو صغير جداً [٢].

ومن ذلك أيضاً أن عيسى – عليه السلام – كان يخبر قومه وأترابه بما يأكلونه ، مما لم يعاينه ، وما يدخرونه حتى يأكلوه ، فعند عبد الله بن عمر أنه قال : كان عيسى ابن مريم وهو غلام يلعب مع الصبيان ، يقول لأحدهم : تريد أن أخبرك بما خبأت لك أمك ، فيقول : نعم ، فيقول : خبأت لك كذا وكـــذا ، فيذهب الغلام منهم إلى أمه ، فيقول لها أطعميني ما خبأت لي ، فتقول : وأي شيء خبأت لك ؟ ، فيقول كذا وكذا ، فتقول له من أخبرك ؟ ، فـــيقول : عيسى ابن مريم ، فقال القوم : والله لئن تركتم هؤلاء الصبيان

---

(١) البغوي : معالم التنزيل ٢/ ٣٨ ، القرطبي : الجامع ٤ / ٩٣ .

(٢) الطبري : تاريخ الرسل ١ / ٥٩٧ ، ٥٩٨ ، ابن كثير : البداية ٢/ ٧٦.

مع ابن مريم ليفسدنهم ، فجمعوهم في بيت ، وأغلقوا عليهم ، فخرج عيسى يلتمسهم فلم يجدهم ، فسمع ضوضاءهم في البيت ، فسأل عنهم ؟ ، فقالوا : إنما هؤلاء قردة وخنازير ، فقال : اللهم كذلك ففتحوا الباب عليهم فإذا هم خـــنازير ، وفشا ذلك في بني إسرائيل فهموا به [(١)] ، وصدق الله إذ يقول على لسان عيسى ﴿ **وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [(٢)].

ولما بُعث عيسى وجاء قومه بالبينات ، جعل المنافقون والكافرون من بني إسرائيل يستهزئون به ، ويقولون : ما أكل فلان البارحة ، وما ادخر فـــي منزله ، فيخبرهم عيسى بذلك ، فيزداد المؤمنون إيماناً ، والكافرون والمنافقون شكا وكفراناً به [(٣)].

٣- **إحياء الموتى بإذن الله** :

هذه معجزة أخرى من معجزات عيسى - عليه السلام - وهي إحياؤه للموتى بإذن الله ، فقد أحيا الله على يديه غير واحد من الذين وافتهم المنية ، ومن هؤلاء :

أ - إلعـــاذر الذي كان صديقاً لعيسى ، وتوفى قبل أيام ، وكان عيسى غائبا فلما حضر دعا عيسى له الله ، فقام إلعاذر بإذن الله ، وعاش وولد له.

ب - ابـــن العجـــوز الذي مات ، ومر به أمام عيسى وهو يُحمل على ســـريره ، فدعـــا عيسى له باسم الله الأعظم ، فقام الميت ، ولبس ثيابه ، وحمل السرير على عنقه ، ورجع إلى أهله .

---

(١) البغوي : معالم التنزيل ٢ / ٤١ ، ابن كثير : البداية ٢ / ٧٨ .

(٢) الآية ٤٩ سورة آل عمران .

(٣) ابن كثير : البداية ٢ / ٨٣ .

ج – ابـــنة جماع العشور – نوع من الضرائب – التي كانت قد ماتت منذ ليلة ، فدعا لها عيسى الله ، فعاشت وولد لها [١].

د – ابـــنة المرأة التي ماتت ، وجلست أمها على قبرها ، وعاهدت الله ألا تفارقه حتى تموت مثلها ، أو يحييها الله لها ، فدعاها عيسى بإذن الله ، فقامت وقد شاب شعرها ، لظنها أنها الساعة ، وطلبت من أمها أن تصبر وتحتسب ، والتماسها من عيسى أن يردها لقبرها ، وأن يهون عليها كرب الموت ، ففعل ذلك ، وبلغ ذلك اليهود فازدادوا على عيسى غضبـــاً [٢].

هـ – ويـــبدو أن بني إسرائيل لم يؤمنوا بهذه المعجزات ، فشككوا فيها بـــأن مـــن أحياهم عيسى كان موتهم قريبا ، فإنهم لم يموتوا ، وأصابتهم سكتة ، وطلبوا منه أن يحيى لهم من كان موته بعيداً فأحيا لهم عيسى بإذن الله ســـام بـــن نـــوح ، الذي خرج من قبره وقد شاب شعره ، فحدثهم عن الســـفينة ، وأمرها ، ثم طالب بني إسرائيل بتصديق عيسى ، فإنه نبي الله لهم ، ثم دعا له عيسى ، فأماته الله ، فآمن بعضهم ممن شاهد ذلك ، وكذب آخرون ، وقالوا : هذا سحر مبين [٣] وصدق الله تعالى إذا قال على لسان عيســـى : ﴿ **وَأُحْيِـــي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾ [٤] ، وقال سبحانه : ﴿ **وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي** ﴾ [٥].

---

(١) القرطبي : الجامع ٤ / ٩٥ .

(٢) ابن كثير : البداية ٢ / ٨٤ ، ٨٥ .

(٣) القرطبي : الجامع ٤ / ٩٥ ، ابن كثير : البداية ٢ / ٨٤ .

(٤) من الآية ٤٩ سورة آل عمـــران .

(٥) من الآية ١١٠ سورة المائدة .

٤- إبراء الأكمه والأبرص :

من معجزاته – عليه السلام – إبراء الأكمه ، وهو الذي ولد أعمى ، والأبرص وهو الذي أصيب بذلك المرض المزمن ، الذي يعتري الجلد ، وخص المولى هذين المرضين لأنهما كانا عياءين معجزين ، يستحيل شفاؤهما ، ولما كان الغالب على زمن عيسى الطب ، فأرى الله بني إسرائيل المعجزة من جنس ذلك ، وعلق ابن كثير على هذه المعجزة فقال : وأنَّى لحكيم إبراء الأكمه ، الذي هو أسوأ حالاً من الأعمى [١] ، وصدق الله حيث قال : ﴿ وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي ﴾ [٢] .

٥- الخلق من الطين طيراً بإذن الله :

على الرغم من الآيات والمعجزات المتتالية التي أيد الله بها نبيه عيسى ، على الرغم من ذلك فقد استمر بنو إسرائيل في تعنتهم له ، وعدم تصديقهم لدعوته ، فطلبوا إليه أن يخلق لهم خفاشاً من الطين ، وينفخ فيه الروح ، إن كان صادقاً فيما يدعيه ويقوله لهم من أنه رسول الله ، والحكمة من تعيين الخفاش ؛ لأنه – كما يقول القرطبي – أكمل الطير خلقاً ، إذ إن لها ثدياً ، وأسناناً ، وأذاناً ، وهي تحيض ، وتطهر ، وتلد ، فخلقها من الطين وبث الروح فيها أبلغ في القدرة والمعجزه لعيسى – عليه السلام – [٣].

أخذ عيسى – عليه السلام – طيناً ، وجعل منه خفاشاً سوياً بيديه ، ونفخ فيه بإذن الله ، فإذا هو يطير بين السماء والأرض ، ويقول وهب : كان يطير ما دام الناس ينظرون إليه ، فإذا غاب عن أعينهم سقط

---

(١) القرطبي : الجامع ٤ / ٩٤ ، ابن كثير : البداية ٢ / ٨٥ ، ٨٦ .

(٢) من الآية ١١٠ سورة المائدة .

(٣) القرطبي : الجامع ٤ / ٩٤ .

ميـــتاً ، ليتميز فعل الخلق عن فعل الخالق ، وليَعلم أن الكمال لله — — عز وجل — [١] الذي قال : ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ﴾ [٢].

٦ — إنزال المائدة من السماء .

هــذه معجزة أخرى امتن الله بها على نبيه عيسى ، تأييداً له ، ولقطع الحجـــة على قومه ، فقد ذكر ابن عباس ، وسلمان الفارسي ، وعمار بن ياسر ، وغيرهم من السلف أن عيسى أمر الحواريين بصيام ثلاثين يوماً ، فلمـــا أتموهـــا ، سألوا عيسى إنزال مائدة من السماء عليهم ، ليأكلوا منها وتطمئن بذلك قلوبهم ويعلموا أن الله قد تقبل صيامهم ، وأجابهم إلى طلبهم ، وليكون يوم نزولها عيداً لهم ، يفطرون عليها يوم فطرهم ، وتكون كافية لأولهم وآخرهم ، لغنيهم وفقيرهم ، فوعظهم عيسى في ذلك ، وخاف عليهم ألا يقوموا بشكرها ، وألا يؤدوا حق شروطها ، فأبوا عليه إلا أن يسأل الله لهم ذلك [٣].

قـــال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّـــكَ أَن يُـــنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاء قَالَ اتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ قَـــالُواْ نُـــرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [٤].

تمسك الحواريون بطلبهم ، فقام عيسى إلى مصلاه ، ولبس مسحاً من

---

(١) من الآية ١١٠ سورة المائدة .

(٢) البغوي : معالم التنزيل ٢ / ٣٩ ، القرطبي : الجامع ٤ / ٩٤ .

(٣) ابن كثير : البداية ٢ / ٨٨ .

(٤) الآيتان ١١٢ ، ١١٣ سورة المائدة .

شعر ، وأطرق رأسه ، وأسبل عينيه بالبكاء ، وتضرع إلى الله في الدعاء والسؤال أن يجيب قومه إلى ما طلبوا ، فأنزل الله – تعالى – المائدة من السماء ، والناس ينظرون إليها ، تنحدر بين غمامتين ، وتدنو شيئاً فشيئاً ، وكلما دنت سأل عيسى ربه أن يجعلها رحمة لا نقمة ، وأن يجعلها بركة وسلامة ، فلم تزل تدنو ، حتى استقرت بين يدي عيسى ، فكشف عنها الغطاء ، وسمى الله ، وأكل منها الفقراء أولاً والمرضى ، وكانوا قريباً من ألف وثلاثمائة ، فبرأ كل ذى عاهة ، وكانت تنزل في كل يوم مرة ، فيأكل منها آخر الناس كما يأكل أولهم ، ثم أمر الله عيسى بأن يقصرها على الفقراء والمحتاجين دون الأغنياء ، فشق ذلك على كثير من الناس ، وتكلم منافقوهم في ذلك ، فرفعت بالكلية ، ومسخ الذين تكلموا في ذلك[1]

قال تعالى عن سؤال عيسى لنزول المائدة : ﴿ **قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاء تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ قَالَ اللّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ** ﴾[2].

وأخرج الترمذي [3] عن عمار بن ياسر أنه قال : قال رسول الله ﷺ : **(أنزلت المائدة من السماء ، خبزاً ، ولحماً ، وأمروا ألا يخونوا ، ولا يدخروا لغد ، فخانوا ، وادخروا ، ورفعوا لغد ، فمسخوا قردة وخنازير)**

---

(١) ابن كثير : البداية ٢ / ٨٨ .

(٢) الآيتان ١١٤ ، ١١٥ سورة المائدة .

(٣) في سننه من كتاب تفسير القرآن عن رسول الله ، باب من سورة المائدة ، حديث رقم ٢٩٨٧، القرطبي : الجامع ٦ / ٣٧٢ .

وقال ابن عمر : (إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة ، المنافقون ، ومن كفر من أصحاب المائدة ، وآل فرعون) [(١)].

تلـك كانت لمحة عن معجزات عيسى ، التى أيده الله بها ، ليؤمن به قومـه ، ولكنهم كانوا من الجاحدين المنكرين لها ، والمشوهين لصاحبها ، إذ لم يؤمن بعيسى إلا القليل من بنى إسرائيل ، ومِنْ هؤلاء الحواريون. فمَنْ هم الحواريون ؟.

حواريو عيســى :

الحور : هو شدة البياض ، والحواري هو الناصر ، حيث قال النبي ﷺ يـوم الخـندق : (**لكـل نبي حواري ، وحواريّ الزبير بن العوام**) [(٢)].

والحواريـون : هم خواص الرسل ، وكانوا مع عيسى اثنى عشر رجلاً ، وهم أول من آمن به من بني إسرائيل ، حيث أوحى الله لعيسى ، إذا دخلت القـرية فـأت الـنهر الذي عليه القصارون – مبيضو الثياب – ، فاسألهم النصرة ، فأتاهم عيسى وقال : من أنصاري إلى الله ؟ قالوا : نحن ننصرك ، ونصـدقك ، فنصـروه ، وصدقوه ، وسموا بالحواريين لصفاء قلوبهم ، ولمـا هـم عليه من أثر العبادة ونورها ، ولكونهم أصفياء لعيسى – عليه السلام – [(٣)].

حيث قال تعالى : ﴿ **فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**

---

(١) القرطبي : الجامع ٦ / ٣٦٩ .

(٢) أخـرجه أحمد في مسند العشرة المبشرين بالجنة ، من مسند على بن أبي طالب حديث رقم ٧٧٢

(٣) البغوي : معالم التنزيل ٢ / ٤٣ ، القرطبي : الجامع ١٨ / ٨٩ ، ٩٠ .

رَبَّــنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [١]. وقال سبحانه : ﴿ **وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوَاْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ** ﴾ [٢].

ويعلــق صاحب التحرير[٣] والتنوير على منقبة إيمان الحواريين بقوله: كــان إيمان الحواريين نعمة على عيسى ، إذ لو لم يؤمنوا به لما وجد من يتــبع دينه ، فلا يحصل له الثواب المتجدد بتجدد اهتداء الأجيال بدينه إلى أن جــاء نســخه بالإسلام ، وخصهم المولى بالذكر تنويها بهم ، حتى كأن الوحي بالدعوة لم يكن إلا لأجلهم ، لأن الدعوة كانت لجميع بني إسرائيل ، فكفر أكثرهم

وهؤلاء الحواريون هم : سمعان بطرس ، وأخوه أندراوس ، ويوحنا بن زبدي ، وأخوه يعقوب ، ومتى العشار ، وتوما ، وفيليبس ، وبرثولماوس ، ويعقوب بن حلفى ، ولباوس ، وسمعان القانوني ، ويهوذا الأسخريوطي [٤]

وقبل أن يُرفع عيسى أوصى الحواريين بالدعوة لله وحده لا شريك له ، وعين كل واحد منهم إلى طائفة من الناس في إقليم من الأقاليم من الشام ، والمشــرق ، وبلاد المغرب ، فأصبح كل واحد منهم يتكلم لغة القوم الذين أرسله المسيح إليهم [٥].

---

(١) الآيتان ٥٢ ، ٥٣ سورة آل عمــــران .

(٢) آية ١١١ سورة المائدة .

(٣) ابن عاشور ٤ / ٣٤١ .

(٤) ابن عاشور : التحرير ٣ / ١٠٧ .

(٥) ابن كثير : البداية ٢ / ١٠٢ .

الإنجيل كتاب عيســى :

معنى الإنجيل : البشارة والشواهد متضافرة على أن الله أعطى المسيح الإنجـيل ، وأنــه كـتاب تضمن الهدى والنور ، وقد أهاب الله فيه ببني إسرائيل أن يرجعوا إليه ، ويعبدوه ، وأنبأهم فيه بأحداث مستقبلة وبشرهم باقتراب زمن النبي الذي وُعد بنو إسرائيل بأن يبعثه الله إليهم ، وعلى يديه يكون بعث شريعة جديدة ، وأنه يكون كموسى صاحب شريعة مستقلة [١] ، حيــث قال تعالى : ﴿ **وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعَيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْــنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾ [٢].

كمــا ذكــر ســبحانه صفة النبي محمد ﷺ في هذا الإنجيل ، فقال في القرآن الكريم ﴿ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ** ﴾ [٣]. وبين الله في الإنجيل أن المجاهدين لهم الجنة فقال في القرآن : ﴿ **إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ** ﴾ [٤].

تحريف الأنجيــــل :

الإنجــيل الكــتاب الســماوي المنزل على عيسى والذي أمرنا المولى بالإيمــان بــه فــي قوله : ﴿ **وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ**

---

(١) عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء ص ٣٨٩ .

(٢) آية ٤٦ سورة المائدة .

(٣) من الآية ١٥٧ سورة الأعراف .

(٤) من الآية ١١١ سورة التوبة .

وَرُسُــلِهِ ﴾ (١) ، هذا الكتاب لا يوجد الآن ، بل توجد قصص ألفها تلاميذ المســيح وتابعوهم، وهي بالطبع لم تسلم من المسخ والتحريف ، وكثرتها كــثرة فاحشـــة ، حتى إنها أربت على المائة ، وظلت شائعة ومعتمدة عند الطوائف النصرانية حتى القرن الرابع الميلادي عندما قرر مجمع نيقية سنة ٣٢٥م إلغـــاء الأناجــيل التـــي لا تقول بألوهية المسيح ، وبالتالي رفضت الكنيســـة كـــل ما يخالف رغباتها وأهوائها من هذه الأناجيل ، ولم تقر إلا بالأناجيل الأربعة المعروفة إلى اليوم (٢).

وهذه الأناجيل الأربعة كتبها اثنان ممن حواريّ المسيح وهما : متى ، ويوحنا ، واثنان من تابعيه وهما : مرقس ، ولوقا ، وهما لم يشهدا/ما كتبا مـــن أحـــداث ، كما يوجد في الأناجيل تفاوت كبير ، ونقص ، وزيادة في الأحداث ، ناهيك عن تحريفها لحقيقة المسيح ، والقول بألوهيته ، وصلبه ، وقبل هذا وذاك فكل الأناجيل منقطعة السند ،

كمـــا أن هـــذه الأناجـــيل كانـــت مكتوبة بلغات أخرى غير العربية ، كالآرامية ، والعبرانية ، ثم ترجمت لليونانية بعد اعتراف الدولة الرومانية بالنصرانية في عهد قسطنطين ت ٣٣٧م ، ولا يعلم من قام بالترجمة ، ولا مـــبلغ أمانـــته ، ومـــدى حرصه على الصدق فيما يقوم به ، مما أدى إلى الـــتحريف والتـــزييف فـــي نصوص الأناجيل بين لغة وأخرى ، ليس هذا فحســـب ، بل والترجمات العربية من الأناجيل توجد فيها اختلافات داخل

---

(١) من الآية ٢٨٥ سورة البقـــرة .

(٢) عـــبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء ص ٣٩١ ، ٣٩٢ ، محمد عمارة : ملاحظات علمية على كتاب المسيح في الإسلام للدكتور ميشال الحايك ، هدية مجلة الأزهر ، الجزء (٢) السنة (٧٩) ١٤٢٧هـ / مارس ٢٠٠٦م .

الإنجيل الواحد من طبعة لأخرى [١].

كما أن دائرة المعارف البريطانية تشكك في نسبة الأناجيل الأربعة إلى أصحابها المذكورين ، لأنها كتبت بعد رفع المسيح بحوالي ثلاثين سنة ، كإنجيل متى ، ومائة سنة كإنجيل يوحنا ، هذا على فرض أن أصحابها هم الذين كتبوها بأيديهم ، مع الأخذ في الاعتبار أن مرقس ولوقا لم يشهدا أحداث القصة التي كتباها ، وإنما كتبا ما سمعاه شفهياً من أحداث نقلا عن الجيل السابق عليهما ، ليس هذا فحسب بل وكل الأصول الأولى للأناجيل فقدت ، وأقدم مخطوطات الأناجيل الموجودة لدى النصارى الآن يفصل بينها وبين من نسبت إليهم حوالي ثلاثمائة سنة . مما يؤكد انقطاع السند ، وأن من كتب هذه الأناجيل متأخر نسبها إلى المتقدمين من حواريي المسيح وتابعيه ، وهؤلاء الآخرون لم يشاهدوا المسيح بأعينهم ، ولا سمعوه بآذانهم ، بل والأغرب من هذا أن إنجيل الحواري مَتّى اعتمد على إنجيل مرقس ، وهو تلميذ الحواري بطرس ، أي من الصف الثاني من أتباع المسيح [٢].

عيسى يبشر بمحمد [عليهما السلام] .

كان عيسى ابن مريم خاتماً لأنبياء بني إسرائيل ، وقد وقف في قومه خطيبا ذات يوم ، فبشرهم بخاتم الأنبياء الآتي بعده ، ونوه باسمه ، وذكر لهم صفته ليعرفوه ، ويتابعوه إذا أدركوه ، لإقامة الحجة عليهم ، وإحسانا

---

(١) ابن كثير : البداية ٢/ ١٠٢ ، ١٠٣ ، عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء ص ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، محمد عمارة : ملاحظات علمية على كتاب المسيح في الإسلام ص ٦٣ ، ٩١- ٩٣ .

(٢) محمد عمارة : ملاحظات علمية على كتاب المسيح في الإسلام ص٩٠ – ١٠٥ .

من الله إليهم [١] ، كما قال تعالى : ﴿ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [٢].

ورُوِيَ عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا : يا رسول الله أخبرنا عن نفسك قال : (**دعوة إبراهيم ، وبشرى عيسى**).[٣] كما وردت البشرى بمحمد ﷺ على لسان عيسى في قوله تعالى : ﴿ **وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ** ﴾ [٤].

كما أوحى الله إلى عيسى بصفة الرسول الآتي بعده ، ونعت أمته ، حيث قال له : وقضيت يوم خلقت السماوات والأرض أنى مثبت هذا الأمر على يد عبدي محمد ، وأختم به الأنبياء والرسل ، ومولده بمكة ، ومهاجره بطيبة ، وملكه الشام ، ليس بفظ ، ولا غليظ ، ولا سخاب في الأسواق ، ... العدل سيرته ، والحق شريعته ، والإسلام ملته ، اسمه أحمد ، أهدي به بعد الضلالة ، وأعلم به بعد الجهالة ، .... أمته خير أمة أخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ... يصلون لي قياماً ، وقعوداً ،

---

(١) ابن كثير : البداية ٢ / ٨٦ .

(٢) آية ١٥٧ سورة الأعراف .

(٣) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة في باب ذكر مولد المصطفى ، دعوة أبي إبراهيم ، حديث رقم ١٦ ، ابن كثير : البداية ٢ / ٨٦ .

(٤) من الآية ٦ سورة الصف .

وركعاً ، وسجوداً ، ويقاتلون في سبيلي صفوفاً ، وزحوفاً ، قرباتهم دماؤهم ، وأناجيلهم في صدورهم .... رهبان بالليل ، ليوث بالنهار ، ذلك فضلي أوتيه من أشاء ، وأنا ذو الفضل العظيـــم [١].

كما أوحى الله إلى عيسى قائلاً : صدقوا النبي العربي الأمي ، صاحب الجمـــل والتاج ، ... لم يُر قبله ولا بعده مثله ، الحسن القامة ، له عندي منزلة ليست لأحد من البشر ، كلامه القرآن ، ودينه الإسلام ، وأنا السلام ، طوبى لمن أدرك زمانه ، وشهد أيامه ، وسمع كلامه [٢].

رفع عيسى ابن مريـــم :

كـــان عيســـى ابن مريم جاداً في رسالته لبني إسرائيل على الرغم مما لاقاه منهم هو وأمه ، حيث كانوا يسمونه ابن البغية ، وواصل دعوته لهم ، ممـــا أثـــار سخطهم عليه بعد أن التف حوله الأنصار والأشياع ، وحاول اليهود القضاء على دعوته ، ولكن الله قيض لها الزيوع والانتشار ، إذ لم يكـــن عيسى يأوى إلى مكان ، بل كان يسيح في الأرض ، فيدعو إلى الله حيثما حل ، فلم يجد كهنة اليهود سبيلا للقضاء عليه ، إلا بتصويره لرجال السياسة على أنه عدو لهم ، فهو مؤلب للجموع ، مثير للفتن ، متطلع للملك ، بل وإن وجوده هو ودعوته فيه زوال لملك قيصر على بلاد الشام ، مما أوغر صدر حاكم فلسطين ، وتحين الفرص للقبض عليه ومحاكمته [٣]. .

ولاح لهيرودس تحقيق ذلك ، حينما تقدم أحد الحواريين للوشاية بسيده عيسى لدى كهنة اليهود ، فوجدوها فرصة لن تتكرر للقضاء عليه ، حتى

---

(١) ابن كثير : البداية ٢ / ٨٣ .

(٢) المصدر السابق ٢ / ٧٩ ، ٨٠ .

(٣) محمد أبو الفضل إبراهيم : قصص القرآن ص ٢٦٥ ، ٢٦٦ .

تمـــوت بموته دعوته ، لاسيما وأنهم لم يكونوا يعرفون له قراراً ، ولم يكن عيسى ليستظل بمكان ، بل كان دائم الحال والترحال في سبيل تبليغ دعوة الله ، وتحرك كهنة اليهود مع جنود السلطان يتقدمهم يهوذا الأسخريوطي ، لـــيدلهم علـــى عيسى ، الذي اجتمع هو وحوارييوهفي أحد البساتين بمدينة القدس [١].

وهنا تتعارض الروايات التاريخية فيما دار من أحداث بعد ذلك ، ولا أغالـــي إذا مـــا قلت : إن النصرانية والإسلام يفترقان عندها ، إذ يدعى النصارى أن عيسى قد قبض عليه ، وأنه صلب ، ليكون فداءً لهم ، ليس هذا فحسب ، بل وترتب على عقيدة الفداء ظهور العقائد الأخرى الفاسدة ، مـــن تألـــيه المسيح ، وأحسنهم فيه قولا من يقول إنه ابن الإله ، ومن هنا ظهـــرت عقيدة التثليث ، وكلها عقائد ما أنزل الله بها من سلطان ، وسنرد عليها عقب الحديث عن قضية رفع المسيح .

أما نحن المسلمين فنجزم ونعتقد بنص القرآن الكريم أن المسيح لم يقتل ، ولم يصلب ، وأن الله رفعه إليه ، ونجاه من طالبيه ، وأما ما عدا ذلك من تفاصيل فرعية فالأمر فيه محتمل ، كما قال صاحب التحرير[٢].

فقد روى ابن عباس أن الله لما أراد أن يرفع عيسى إلى السماء ، خرج المســـيح على أصحابه من عين في البيت ، ورأسه يقطر ماء ، وكان في البيت اثنا عشر رجلاً منهم من الحواريين ، وقال لهم عيسى : إن منكم من يكفر بي اثنتى عشرة مرة بعد أن آمن بي ، ثم قال : أيكم يلقى عليه شبهي

---

(١) ابـــن كثـــير : الـــبداية ٢ / ٧٧ ، ٨٣ ، ٨٦ ، ٨٩ ، محمـــد أبو الفضل : قصص القرآن ص ٢٦٥ – ٢٦٧ .

(٢) ابن عاشور ٤ / ٨٢ .

فيقــتل مكاني ، فيكون معي في درجتي ، فقام له شاب من أحدثهم سناً ، فقــال له عيســى : اجلس ، ثم أعاد عليهم الأمر ، فقام الشاب ، فقال له عيســى : اجلس ثم أعاد عليهم ، فقال الشاب : أنا ، فقال له عيسى : أنت هو ذاك ، فألقى المولى عليه شبه عيسى ، ورفع عيسى من روزنة البيت إلى السماء ، وجاء الطلب من اليهود ، فأخذوا الشبه ، فقتلوه ، ثم صلبوه ، فكفر به بعضهم اثنتى عشرة مرة ، بعد أن آمن به [1].

نخلــص مــن هذه الرواية إلى أن عيسى قد علم برفعه إلى السماء وعــرض على أصحابه يلقى شبهه على واحد منهم ويكون في درجته فلم يقم سوى الشاب الصغير ثلاث مرات متتالية ، فاختاره عيسى ، بينما رفع المولى رسوله ونبيه إلى السماء حياً ، وصلب ثم قتل هذا الشبيه به

وذكر وهب بن منبه رواية أخرى مفادها : أن عيسى لما أعلمه الله أنه مفــارق الدنيا ، دعا الحواريين ، وصنع لهم طعاماً ، وخدمهم بيده ، وقال لهــم : ألا مــن رد على شيئاً الليلة مما أصنع فليس مني ، ولا أنا منه ، فأقروه ، ثم أمرهم بالدعاء له ، فلم يستطيعوا ، فأخذ ينعى نفسه ، ثم قال لهم : الحق ليكفرن بي أحدكم قبل أن يصيح الديك ثلاث مرات ، وليبيعني أحدكم بدراهم يسيرة ، وليأكلن ثمني ، فخرج الحواريون وتفرقوا ، وكان اليهود يطلبون عيسى ، فأخذوا تلميذه شمعون ، وقالوا : هذا من أصحابه ، فجحد ، وقال : ما أنا بصاحبه ، فتركوه ، ثم أخذه آخرون ، فجحد كذلك ، ثــم صــوت الديــك ، فــبكى وأحــزنه ، فلما تنفس الصبح أتى يهوذا الاسخريوطي أحد الحواريين إلى اليهود ، وقال : ما تجعلون لي إن دللتكم على المسيح ؟ ، فجعلوا له ثلاثين درهما ، فأخذها ، ودلهم عليه ، فضرب

---

(١) ابن كثير : البداية ـ ٢ / ٩٤ .

الله شـــبه عيســـى على يهوذا ، فقبضوا عليه ، واستوثقوا منه ، وربطوه بالحـــبل ، وجعلـــوا يقودونه ويقولون : أنت كنت تحيي الموتى ، وتنتهر الشيطان ، وتبرئ المجنون ، أفلا تنجي نفسك من هذا الحبل ؟ ، وأتوا به إلى الخشبة فصلبوه عليها [1].

نخلـــص مـــن هذه الرواية إلى أن الله قد أعلم رسوله عيسى برفعه ، فقضى المسيح الليلة الأخيرة مع حوارييه ، وكأنه ينعي إليهم نفسه ، وعلم أن بعضهم سوف ينكرونه ، وأن أحدهم سوف يبيعه بثمن بخس ، وهذا ما كـــان مـــن يهـــوذا الإسخريوطي ، الذي دل عليه اليهود ، ولكن الله نجا رســـوله ، ومكر بهذا الخائن الذي ألقى عليه شبه عيسى ، فأخذه اليهود ، وصلبوه ، وهم يظنون أنه عيسى ابن مريم .

وقد رجّح صاحب التحرير والتنوير [2] **هذه الرواية** ، وهي أن يهوذا الأسخريوطي – أحد أصحاب المسيح – قد ضل ونافق ، وهو الذي وشى بعيسى ، وهو الذي ألقى الله عليه شبه عيسى ، وهو الذي صلب ، واستند صـــاحب التحرير إلى ما جاء في إنجيل برنابا – أحد تلاميذ الحواريين – وهو إنجيل تمنع الكنيسة تداوله ، إذ هو أقرب ما يكون للروايات الإسلامية في قضية رفع المسيح .

ويقال : إن جبريل التقى بالسيدة مريم بعد سبعة أيام من رفع المسيح ، وأبلغها بحفظ الله لولدها عيسى ، ورفعه حياً إلى السماء ، وأن المصلوب ليس عيسى ، وحدد لها لقاءاً مع ولدها في إحدى الغيضات ، والتقت به ، فقبل عيسى رأسها ، ودعا لها كما كان يفعل دائماً ، وقال لها : يا أمه إن

---

(١) ابن كثير : البداية ٢ / ٩٥ ، ٩٦ .

(٢) ابن عاشور ٤ / ٨٢ .

القــوم لم يقتلونــي ، ولكن الله رفعني إليه ، وأذن لي في لقائك ، والموت يأتــيك قريباً ، فاصبري ، واذكري الله كثيراً ، ثم صعد عيسى فلم تلقه إلا تلك المرة ، حتى ماتت بعد خمس سنوات ، وهي في الثالثة والخمسين من عمرها ، بينما رفع عيسى وهو في الرابعة والثلاثين من عمره [1].

ولقد انتقم الله من بني إسرائيل لمحاولتهم قتل عيسى-عليه السلام- فسلط عليهم (تيتوس) ابن الإمبراطور (فسبسيان) ، فغزا بيت المقدس بعد رفع عيسى بأربعين سنة ، فقتل من فيه من اليهود ، وسبى ذراريهم ، وأمــر بالمديــنة فنقضت أحجارها ، حتى لم يترك بها حجر على حجر[2] **﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾** [3].

وقــد نفى المولى – عز وجل قتل عيسى أو صلبه فقال : **﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُـمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾**[4].

غــير أن آيــة سورة آل عمران التي قال الله فيها : **﴿ إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَـى إِنِّـي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ... ﴾** [5]. قد أثارت نقاشاً كبيراً بين العلماء ، مما دفع النصارى للتمسك بها فيما يزعمون من صلب المسيح ،

---

(١) ابن كثير : البداية ٢ / ٩٦ ، ٩٧ .

(٢) جمال عبد الهادي : أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ . الطريق إلى بيت المقدس ١/ ٤٨ ، دار الوفاء ، المنصورة ، ط١ ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م

(٣) من الآية ١١٨ سورة النحــل .

(٤) الآيتان ١٥٧ ، ١٥٨ سورة النساء .

(٥) من الآية ٥٥ سورة آل عمران .

ووفاتــه أولاً ، ثــم رفعه ثانياً ، وهو ما يدعم عقائدهم الباطلة من الفداء والإلوهية للمسيح أو التثليث ، فإليك ما قاله العلماء في تفسيرهم لهذه الآية وردهم على النصارى فيما ادعوه من موت عيسى .

١- أن فــي الكلام تقديماً وتأخيراً ، تقديره رافعك إلى ، ومطهرك من الذين كفروا ، ومتوفيك بعد أن تنزل من السماء فى آخر الحياة الدنيا [١].

٢- قال الكلبي وابن جريج في معنى قوله:﴿ **مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ** ﴾ أي قابضك ورافعك في الدنيا إليّ من غير موت ، والتوفى له تأويلان :

أحدهما : أي رافعك إليّ وافيا لم ينالوا منك شيئاً .

الثاني : إني مستلمك من قولهم توفيت حقى أي استلمته [٢].

٣- قال الربيع بن أنس : التوفي في الآية معناه النوم ، أي أن عيسى نام ، فرفعه الله إليه نائماً ، ومعنى الآية إني منومك ورافعك إليّ كما قال تعالى : ﴿ **وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ** ﴾ [٣]. أي ينيمكم [٤].

٤- وقــيل المــراد بالوفاة الحقيقية ، حيث قال وهب بن منبه : توفــى الله عيســى ثــلاث ساعات من نهار ، ثم رفعه إلى السماء ، وهذا التأويل قال عنه القرطبي : إنه فيه بُعد كبير [٥].

والصحيح أن الله رفع عيسى إلى السماء من غير وفاة ولا نوم كما اختار

---

(١) البغوي : معالم التنزيل ٢ / ٤٦ ، القرطبي : الجامع ٤ / ٩٩ .

(٢) البغوي : معالم التنزيل ٢ / ٤٥ ، القرطبي : الجامع ٤/ ١٠٠ .

(٣) من الآية ٦٠ من سورة الأنعام .

(٤) البغوي : معالم التنزيل ٢ / ٤٥ ، القرطبي : الجامع ٤ / ١٠٠ .

(٥) المصدران السابقان الجزء والصفحة .

ذلك الطبري والقرطبي ، وهو الصحيح عن ابن عباس [١].

ويقــول صــاحب التحرير والتنوير : إن الذي دعا العلماء إلى تأويل معنى الوفاة ما ورد في الأحاديث الصحيحة : أن عيسى ينزل في آخر مدة الدنــيا [٢] ، فــأفهم ذلك أن له حياة خاصة ، أخص من حياة أرواح بقية الأنبــياء ، التــي هــي حــياة أخص من حياة بقية الأرواح ، لذلك رأي المفســرون أن تــأويل المعنى في هذه الآية ، أولى من تأويل الحديث في معنى حياته ونزوله [٣].

عقيدة النصارى في المسيح :

نجى المولى – عز وجل – المسيح من بين يدي اليهود والطالبين له ، ورفعــه إلــيه حــيا – كما أوضحنا ذلك – وألقى شبهه على أحد أصحابه الخائنيــن ، فأخذه اليهود وقتلوه وصلبوه ، وهم يعتقدون أنه عيسى ، وهم في ذلك مخطئون ، وللحق مكابرون ، وسلم لهم بذلك كثير من النصارى ، وكلا الفريقين مخطئ [٤] ، حيث قال تعالى : ﴿ **وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللّهُ وَاللّهُ خَــيْرُ الْمَاكِرِينَ** ﴾ [٥] ، ثم اختلف النصارى فيما بينهم حول حقيقة المسيح إلى عدة فرق كما قال تعالى : ﴿ **فَاخْتَلَفَ الاحزَابُ مِن بَيْنِهِمْ** ﴾ [٦].

---

(١) القرطبي : الجامع ٤ / ١٠٠ .

(٢) مــن حديث أبي هريرة الذي أخرجه أبو داود في سننه في كتاب الملاحم ، باب خروج الدجال ، حديث رقم ٣٧٦٦ .

(٣) ابن عاشور : التحرير والتنوير ٣ / ١١١ .

(٤) ابن كثير : البداية ٢ / ٨٦ .

(٥) الآية ٥٤ سورة آل عمران .

(٦) من الآية ٣٧ سورة مريم .

الفـرقة الأولى : قالــت كــان فيــنا الله ، ثم صعد إلى السماء ، وهم : اليعقوبية .

الفـرقــة الثانـية : قالت كان فينا ابن الله ما شاء ، ثم رفعه الله إليه ، وهم: النسطوريـــة .

الفرقة الثالثة : قالت كان فينا عبد الله ورسوله ، ما شاء ، ثم رفعه الله ، وهؤلاء هم: المسلمون وهم الناجون ، المثابون ، المؤيدون ، المنصورون ، ومــن خالفهــم فــي شيء من هــذه القيود فهم الكافرون ، الضالون ، الجاهلون [١] الذين توعدهــم الله بقولــه : ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾ [٢].

وتظاهــرت الكافــرتان علــى المسلمة حتى قتلوها ، فلم يزل الإسلام طموساً حتى بعث الله محمدا [٣] قال ابن عباس وذلك قوله : ﴿ **فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ** ﴾ [٤].

الفــرقة الرابعة : قالت إن الإلهية مشتركة بين الله ومريم وعيسى ، فكل واحــد مــنهم إله ، وهم : المرقوسية ، فرد الله عليهم [٥] بقوله : ﴿ **لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ** ﴾ [٦] والتثليث أصل في عقيدة النصارى ،

---

(١) البغوي : معالم التنزيل ٣ / ٣٣ ، القرطبي : الجامع ٤ / ١٠١ ، ٦ / ٩ ، ابن كثير : البداية ٢ / ٧٠ ، ٩٤ .

(٢) من الآية ٣٧ من سورة مريم .

(٣) ابن كثير : البداية ٢ / ٧٠ ، ٩٤ .

(٤) من الآية ١٤ سورة الصف .

(٥) البغوي : معالم التنزيل ٣ / ٨٢ .

(٦) من الآية ٧٣ سورة المائدة .

ولكـــنهم مختلفون في كيفيته[١] ، فيقولون إن الله جوهر واحد ، وله ثلاثة أقانـــيم ، ويجعلون لكل أقنوم إلها ، ويعنون بالأقانيم : الوجود ، والحياة ، والعلـــم ، ويعـــبرون عن الأقانيم بالأب والابن والروح القدس[٢] تلك هي عقائد النصارى في المسيح فما موقف الإسلام منها :

١ـ ألوهية المسيح والرد عليها :

الدلـــيل الواهي الذي استند إليه النصارى في القول بألوهية المسيح ، هي المعجـــزات التـــي قام بها ، حيث قالوا إنها خارجة عن إرادة البشر ، فينبغي أن يكـــون المقتدر عليها موصوفا بالألوهية ، فنرد عليهم بأن عيسى – عليه الســـلام – لو كان مستقلا بنفسه لكان – جدلا – خلص نفسه من أيدي أعدائه ، ولكن لم يحدث ذلك ، وبالتالي يسقط ما يقوله النصارى من أنه كان مستقلا ، وإن لم يسلموا بذلك فلا حجة لهم في معجزات عيسى ، لأن موسى وغيره مـــن الأنبـــياء قد جاءوا بالعديد من المعجزات ، التي هي أقوى من معجزات عيسى ، فإن أنكر النصارى ذلك ، فإننا ننكر معجزات عيسى [٣].

وإن توســـل النصـــارى بكـــثرة معجزات عيسى – عليه السلام – في دعـــوى الألوهية ، فإننا نقول لهم إن كثرتها لها علاقة بمستوى التكذيب ، ومستوى الغلظة التي هم عليها ، ولا علاقة لها بمستوى التكريم للرسول ولا بمنزلته ، وإلا فمعجزات موسى أكبر من معجزات إبراهيم كما استند النصارى إلى دليل آخر أوهن من سابقة في الادعاء [٤] بألوهية المسيح ،

---

(١) ابن عاشور : التحرير ٤ / ١٦٨ .

(٢) القرطبي : الجامع ٦ / ٢٣ .

(٣) القرطبي : الجامع ٦/ ٢٤ .

(٤) محمد عمارة : ملاحظات علمية على كتاب المسيح في الإسلام ص١١٣ ، ١١٤ .

وهــو أن الله خلقه بكلمة منه ، وليس له أب ، فقالوا هو ابن الله ، فرد الله علــيهم بأن آدم أولى بأن يُدعي له ذلك ، إذ خُلق من غير أبوين ، فإن لم يكن آدم إلها ، فعيسى أولى بالمخلوقية من آدم ، فكلاهما خلق من دون أب ، ويزيد آدم بكونه من دون أم أيضاً [١] فذلك قوله : ﴿ **إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴾ [٢].

كمــا أنكر المولى – عز وجل – على النصارى القول بألوهية عيسى وأمه إذ إنهما كانا آدميين ، يعيشان بالطعام والغذاء ، ويخرجان ما يأكلان ، فكــيف يكــون إلهاً من يفعل ذلك ، ومن لا يقيمه إلا إذا أكل [٣] ، فقال تعالى : ﴿ **مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ ....** ﴾ [٤].

٢ـ عقيدة الفداء والرد عليها :

ومن العقائد الباطلة للنصارى في عيسى عقيدة الفداء ، إذ يقولون إن بني آدم كلهــم اســتحقوا العذاب الأخروي بخطيئة آدم ، فجاء عيسى ابن مريم مخلصــاً لهــم ، وشــافعاً ، وقــدم نفسه للصلب ، ليكفر عن البشر خطيئتهم الموروثــة ، وهــذه الفرية أوهن من بيت العنكبوت ، إذ لا تزر وازرة وزر أخــرى ، كمــا أن آدم وزوجــه حــواء قــد تاب الله عليهما ، وكفرا عن عصــيانهما ، ومــا إخــراج الله لهما من الجنة إلا لحكمة نزولهما للأرض واســتخلافهما فيها ، وكيف يسوغ النصارى القول إن الله – على زعمهم –

---

(١) ابن عاشور : التحرير ٣ / ١١٥ .

(٢) الآية ٥٩ سورة آل عمران .

(٣) البغوي : معالم التنزيل ٣/ ٨٣ .

(٤) من الآية ٧٥ سورة المائدة .

يفــدي البشرية المخطئة بابنه ، فهذا ليس من العدل في شيء أن يؤتى ببرئ غــير مذنب ، ويطوق إثم جريمة جناها سواه ، كما أن عقاب غير الآثم ليس فــيه رحمـــة ، وبخاصـــة إذا كـــان المُعاقَب البار من شأن الجبلة أن تشمله بالـــرحمة ، ولـــو مع الذنب ، فالابن البار غير الآثم[1]. مما ينفي هذه العقيدة ويبين بطلانها وأنها لا أساس لها من نقل أو عقل

الرد على عقائد النصارى الباطلة من القرآن :

نهـــى الله تعـــالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء في الدين ، والزعم أن عيسى إله ، أو ابن إله ، بل الواجب عليهم أن يعتقدوا أنه عبد الله ورسوله ، وابـــن أمته ، التي حملت به من نفخة جبريل بإذن الله [2] ، حيث قال تعالى : ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُـــلِهِ وَلاَ تَقُولُـــواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَـــهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً** ﴾ [3].

ثـــم أخبر المولى – عز وجل – أن اليهود والنصارى ادعوا على الله شـــططا ، وزعموا أن له ولداً، تعالى عما يقولون علواً كبيراً ، وأخبر أنه لـــيس لهم مستند فيما زعموا ، إلا مجرد القول ، ومشابهة من سبقهم إلى هـــذه المقالـــة الضالة [4] ، فقال تعالى : ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ**

---

(١) ابن عاشور : التحرير ٦٨/٤ ، عبد الوهاب النجار : قصص القرآن ٤٣١ ، محمد عمارة : ملاحظات علمية على كتاب المسيح في الإسلام٥٦

(٢) ابن كثير : البداية ٢ / ٧١ ، ٧٢ .

(٣) آية ١٧١ ، سورة النساء .

(٤) ابن كثير : البداية ٢ / ٧٢ .

وَقَالَــتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّه ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (١).

كما بين المولى أن النصارى مختلفون في عقيدتهم الباطلة تجاه المسيح ، فمــنهم مــن يقول إنه إله ، ومنهم من يقول إنه ابن إله ، وكلاهما في ضلال وكفــر مبين(٢) حيث قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْــنُ مَــرْيَمَ وَقَــالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّه فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ لَّقَــدْ كَفَــرَ الَّذِيــنَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٣).

ويذكر المولى لأهل الكتاب النصارى أن من يدعونه إلها ، أو ثالث ثلاثــة ، يتبرأ من هذا يوم القيامة ، وينفي عن نفسه أنه قال لهم ذلك ، وهذا على سبيل التكريم لعيسى ، والتقريع والتوبيخ لعابديه ، ممن كذب وافــترى على الله أن عيسى إله ، أو ابن إله ، أو شريك لله ، والله يعلم أن عيســى لم يقل ذلك ، ولكن ليرى أتباعه الضالين إقراره بالعبودية أمام الله ، فيكون في ذلك مزيد حسرة لهم ، ويؤكد عيسى أنه ما دعاهم إلا لعبادة الله الواحد الأحد – والله يعلم ذلك – وأنه ظل شهيداً عليهم في توحــيدهم ، حتى رفعه الله إليه ، فكان سبحانه هو الشاهد لهم بعد ذلك على ما أحدثوه بعده من تحريف وتبديل ، والقول على الله ما لم يقله ، وفــي الــنهاية يفــوض عيسى أمرهم إلى الله ، إن شاء عذب من مات

---

(١) آية ٣٠ سورة التوبــة .

(٢) ابن كثير : البداية ٢ / ٧٣ .

(٣) الآيتان ٧٢ ، ٧٣ سورة المائدة .

مشركاً ، وغفر لمن تاب قبل الموت [١].

قـال تعـالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [٢].

فكل هذه الشواهد القرآنية تنفي جملة وتفصيلاً كل ما يدعيه النصارى فـي حق عيسى ، وتؤكد لكل من له أدنى نظر أن هذا محض افتراء منهم على الله ، وعلى رسوله عيسى – عليه السلام – .

ب – الرد على عقائد النصارى الباطلة من السنة المطهرة:

تواتـرت العديـد من الأحاديث التي تبين طبيعة المسيح ، وبشريته ، ونزوله في آخر الزمان بشريعة الإسلام ، وموته على ذلك ، حيث أخرج الـبخاري من حديث عبادة بن الصامت عن رسول الله ﷺ أنه قال : **(من شهد أن لا إلـه إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسـى عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه ، والجنة حق ، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل)** [٣].

---

(١) البغوي : معالم التنزيل ٣ / ١٢٢ ، القرطبي : الجامع ٦/ ٣٧٤ – ٣٧٨ .

(٢) الآيات ١١٦ – ١١٨ من سورة المائدة .

(٣) أخـرجه الـبخاري في صحيحه في كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قوله : يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم حديث رقم ٣١٨٠ ، ابن كثير: البداية٢/٩٩

وروى أبـــو هريرة عن الرسول ﷺ أنه قال : (**يوشك أن ينزل فيكم ابـــن مـــريم ، حكمـــاً مقسطاً ، يكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ،ويفيض المال حتى لا يقبله أحد**) [١].

ومـــن حديـــث أبـــي هريرة أيضاً أن النبي ﷺ قال في نزول عيسى : **(ويهلـــك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام ، ويهلك المسيح الدجال ، فيمكث في الأرض أربعين سنة ، ثم يتوفى فيصلي عليه المسلمون)** [٢].

ومن هذه الأدلة أيضاً محاجة النبي ﷺ لوفد نجران ، الذين أنكروا على الرســـول ﷺ قوله : إن عيسى عبد الله ، وكلمته ، فقالوا : أرنا عبد خلق من غير أب ، فقال لهم : آدم من كان أبوه ؟ ، أو عجبتم من عيسى ليس له أب؟ ، فآدم عليه السلام ليس له أب ولا أم ، فدعاهم الرسول ﷺ للإسلام ، فقالوا : كـــنا مســـلمين قبلك ، فقال ﷺ : كذبتم ، يمنعكم من الإسلام ثلاث : قولكم اتخـــذ الله ولـــداً ، وأكلكـــم الخنزير ، وسجودكم للصليب ، فقالوا : من أبو عيسى ؟ ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴾ [٣].

وأمر المولى الرسول ﷺ أن يباهلهم إن لم يستجيبوا له ويتبعوه ، فامتنعوا عن المباهلة ، وعدلوا إلى المسالمة ، والموادعة ، وقالوا لبعضهم : لقد علمتم أن محمداً لنبي مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ، ولقد علمتم أنه

---

(١) أخـــرجه أحمـــد في مسنده ، باقي مسند المكثرين ، من مسند أبي هريرة ، حديث رقم ٦٩٧١ ، البغوي : معالم التنزيل ٢ / ٤٦ .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه في كتاب الملاحم ، باب خروج الدجال ، حديث رقم ٣٧٦٦ ، البغوي : معالم التنزيل ٢ / ٤٦ .

(٣) الآية ٥٩ سورة آل عمــــران .

ما لاعن قوم نبيا قط فبقي كبيرهم ، ولا نبت صغيرهم ، وإنها للاستئصال منكم إن فعلتم ، فإن كنتم قد أبيتم إلا إلف دينكم ، والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم ، فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم ، فطلبوا ذلك من رسول الله ﷺ وسألوه أن يضرب عليهم الجزية ، ففعل ذلك ، وأرسل معهم أبا عبيدة بن الجراح لجمعها منهم(١).

ولم يكن نصارى نجران وحدهم الذين يقرون ويعترفون بعبودية المسيح ، ورفعه من دون قتل أو صلب ، بل شاركهم في هذا نصارى الحبشة ، وعلى رأسهم النجاشي ، الذي أحسن للمهاجرين المسلمين إليه ، وسمع بأذنيه قول جعفر بن أبي طالب في المسيح ، وقراءته لآيات سورة مريم ، التي تنص على عبودته المسيح لله ، وإقرار النجاشي بذلك ، وقوله عما سمعه من القرآن إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة (٢).

وقبل هذا وذاك فإن الأناجيل الأقدم من الأربعة المشهورة – كإنجيل برنابا – وكذلك المذاهب النصرانية التي انتشرت وسادت قبل عصر المجامع الكنسية البيزنطية ، – ومنها المذهب الأريوسي نسبة إلى أريوس ٢٨٠ – ٣٣٦ م – والتي سادت في الشرق إلى القرن الرابع الميلادي ، كانوا ينكرون القتل أو الصلب للمسيح – عليه السلام – ، بل وحتى الأناجيل الأربعة المشهورة والمعتمدة لدى أغلب الكنائس النصرانية مختلفة ومتناقضة في وقائع القتل والصلب (٣).

---

(١) القرطبي : الجامع ٤ / ١٠٣ ، ابن كثير : البداية ٢ / ٦٩ ، ٧٠ .

(٢) ابن كثير : البداية ٣ / ١٢٢ .

(٣) محمد عمارة : ملاحظات علمية على كتاب المسيح في الإسلام ص٥٥ ، ٥٦ ، ٥٨ .

فكـــل هـذه الشواهد من القرآن والسنة والعقل ، تؤكد بشرية المسيح ، ورفعه ، ونزوله في آخر الزمان ، ليحكم بشريعة الإسلام ، وليكون واحداً مـــن المسلمين ، مما يؤكد أن جميع الرسالات أصلها واحد ، وهو الدعوة للإســـلام ، ثم الاستسلام الكامل لله ، وإن كان لكل نبي شرعة ومنهاجاً ، ومن ثم فليس هناك أديان سماوية – كاليهودية والنصرانية – جاء الإسلام في ختامها ، وإنما يمكن القول بيقين راسخ : أنها رسالات سماوية ، دعت إلى دين واحد ، وهو الإسلام ، الذي لا يقبل الله من الأولين والآخرين غيره ، وأن ما عدا ذلك من العقائد والأديان فاسد ومضل ، حيث ختم المولى هذه القضية بقوله : ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلَامُ** ﴾ [1] ، وحذر من يبتغ الهدي في غيره بقوله : ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ [2].

نسأل الله أن يثبتنا على الحق بعد إذ هدانا إليه ، ﴿ **رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَـــنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** ﴾ [3]. وصلى اللهم وبارك على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

---

(١) من الآية ١٩ سورة آل عمران .

(٢) الآية ٨٥ من سورة آل عمران .

(٣) من الآية ٢٠١ سورة البقرة .

المصادر والمراجع

ثبت المصـــادر والمراجع

القرآن الكريم .

إبراهيم البيجوري : **فضيلة الشيخ** .

١- المختار من شرح البيجوري على الجوهرة المسمى تحفة المريد على جوهرة التوحيد

طبعة الإدارة المركزية للمعاهد الأزهرية، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

إبراهيم عبد الله حسن الحصري : دكتور

٢- دراسات في العقيدة الإسلامية .

مطبعة الأزهر الحديثة بطنطا ، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م .

ابن الأثير : **عز الدين أبو الحسن على بن أبي الكرم ت ٦٣٠هـ .**

٣- الكامل في التاريخ

الجزء الأول ، دار صادر ، بيروت ، د ط ، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .

أحمد بن حنبل : **أبو عبد الله أحمد بنّ محمد** ت ٢٤١هـ .

٤- المسند .

المكتبة الشاملة ٢ .

أحمد عبد الحميد يوسف : دكتـــور .

٥- مصر في القرآن والسنـة .

دار المعارف ، القاهرة ، ط٤ ، د ت .

البخاري : **أبو عبد الله محمد بن إسماعيل ت ٢٥٦هـ .**

٦ - الجامع الصحيح .

المكتبة الشاملة ٢ .

البغوي : أبو محمد الحسين بن مسعود ت ٥١٦هـ .

٧- معالم التنزيل .
حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر ، وعثمان جمعة ضميرية ، وسليمان مسلم الحرشي .
ثمانية أجزاء ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، ط٤، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م

البيهقي : **أحمد بن الحسين بن على ت ٤٥٨هـ .**

٨- دلائل النبوة .
المكتبة الشاملة ٢ .

الترمذي : **محمد بن عيسى بن سورة ت ٢٧٩ هـ .**

٩- الجامـــع .
المكتبة الشاملة ٢ .

الثعالبي : **أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم ت٤٢٧هـ**

١٠- قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس .
تحقيق محمد سيد ، ذار الفجر للتراث ، القاهرة ، ط١ ، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م .

جمال عبد الهادي محمد ووفاء محمد رفعت : **دكتـــوران**

١١- الإسلام دين الله في الأرض والسماء .
دار الوفاء ، المنصورة ، ط٢ ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .

١٢- جزيرة العـــرب .
الجزء الثاني ، دار الوفاء ، المنصورة ، ط١ ، ١٤٠٦هـ /١٩٨٦م

١٣- الطريق إلى بيت المقدس
الجزء الأول ، دار الوفاء ، المنصورة ، ط١ ، ١٤٠٧هـ /١٩٨٧م

ابن أبي حاتم : عبد الرحمن بن محمد بن إدريس ت ٣٢٧هـ .

١٤- تفسيــره .

المكتبة الشاملة ٢ .

الحاكـم : محمد بن محمد بن أحمد بن إسحاق ت ٣٧٨هـ .

١٥- المستدرك على الصحيحين .

المكتبة الشاملة ٢ .

ابن حبان : محمد بن حبان بن أحمد ت ٣٥٤هـ .

١٦- صحيح ابن حبـان .

المكتبة الشاملة ٢ .

حلمي السعيد السعـيد : دكتـــور .

١٧- دراسات في قضايا النبوة.

بدون بيانـــات .

أبو داود : سليمان بن الأشعث ت ٢٧٥ هـ .

١٨- كتاب السنـن .

المكتبة الشاملة ٢ .

السيد محمد يونس : دكتور

١٩ - تاريخ الأنبيـاء .

بدون دار نشر ، ط١ ، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م .

ابن الشحنة : محب الدين أبو الوليد محمد بن محمد ت ٨١٥هـ

٢٠ - روض المناظر في علم الأوائل والأواخر .

تحقيق سيد محمد مهنى ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

ط١ ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م .

الطبراني : سليمان بن أحمد بن أيوب ت ٣٦٠هـ .

٢١- *المعجم الكبيــر .*

المكتبة الشاملة ٢ .

الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير ت ٣١٠هـ .

٢٢- *تاريخ الرسل والملوك* ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيــم الجزء الأول ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٤ ، د ت .

٢٣ـ جامع البيان في تأويل القرآن .

تحقيق أحمد محمد شاكــر .

٢٤جزء ، مؤسسة الرسالة ، ط١ ، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م .

ابن عاشـــــور : محمد الطاهر ت ١٩١٩م .

٢٤- *التحرير والتنويــر .*

١٦ جزء ، المكتبة الشاملـــــة ٢ .

عبد الحميد عبد اللاه عبد الرحمن : دكتـــور

٢٥- *قضايا النبوة في ضوء العقل والنقــل .*

الدار الإسلامية للطباعة والنشر ، المنصورة ، ط١، ١٤٢٦هـ /٢٠٠٥م

عبد الصبور مرزوق : دكتور .

٢٦- *الأعلام والموضوعات في القرآن الكريم .*

الجزء الأول من المجلد الأول ، دار الشروق ضمن مشروع مكتبة الأسرة ، ٢٠٠٢م .

عبد الوهاب النجار : فضيلة الشيــخ .

٢٧- *قصص الأنبيــاء .*

مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط٢ ، ١٣٢٦هـ / ١٩٦٦م .

ابن قتيبة : **أبو محمد بن عبد الله بن مسلم ت ٢٧٦هـ** .

٢٨- *المعـارف .*

تحقيق د/ ثروت عكاشة ، دار المعارف ، القاهرة ، بدون بيانات .

القرطبي : **أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري ت ٦٧١هـ** .

٢٩ - *الجامع لأحكام القرآن الكريـم .*

عشرون جزءاً ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، د ط ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

القرماني : **أحمد بن يوسف ت ١٠١٩هـ** .

٣٠ - *أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ .*

دراسة وتحقيق د/ فهمي سعد ، ود / أحمد حطيط ، الجزء الأول عالم الكتب ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م .

ابن كثير : **عماد الدين أبو الفداء إسماعيل ت ٧٧٤هـ** .

٣١- *البداية والنهاية .*

تحقيق أحمد عبد الوهاب فتيح .

الأجزاء : الأول ، والثاني والثالث ، دار الحديث ، القاهرة ، ط٤ ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م .

محمد جاد المولى ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، وعلى محمد البجاوي ، والسيد شحاتة : **أصحاب الفضيلـة** .

٣٢- *قصص القـرآن .*

المكتبة التجارية ، القاهرة ، ط١١ ، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .

محمد عمارة : دكتور

٣٣- ***ملاحظات علمية على كتاب المسيح في الإسلام*** للدكتور / ميشال الحايك ، نقد وتعليق للدكتور محمد عمارة .

هديـــة مجلـــة الأزهـــر ، الجزء (٢) السنة (٧٩) صفر ١٤٢٧هـ / مارس ٢٠٠٦م .

محمود محمد سيد : دكتور

٣٤- ***أضواء على الجانب العقائدي في فكر الإمام الطحاوي***

الدار الإسلامية للطباعة والنشر ، المنصورة ، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٦م

محمد أبو النور الحديدي : دكتور

٣٥- ***عصمة الأنبياء والرد على الشبهة الموجهة إليهم.***

مطبعة الأمانة، القاهرة ، بدون بيانات أخرى .

مسلم : أبو الحسين مسلم القشيري ت ٢٦١هـ

٣٦- ***الجامع الصحيـــح .***

المكتبة الشاملة ٢ .

المقدســـي : المطهر بن طاهـــر ت ٥٠٧ هـ .

٣٧- ***البدء والتاريخ***

ستة أجـــزاء ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، بدون بيانات .

منير محمد غضبـــان

٣٨ - ***المسيرة الإسلامية للتاريخ .***

دار التوزيع والنشر الإسلاميـــة ، د ط ت .

اليعقوبي : أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر ت ٢٩٢ هـ .

٣٩- ***تاريخ اليعقوبـــي .***

جزءان ، دار صادر ، بيروت ، د ط ، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م .

فهرس الموضوعات

الفهرست

رقم الإيداع

بدار الكتب والوثائق القومية

٢١١٤٥ لسنة ٢٠٠٧

مطبعة الشروق بالراهبين